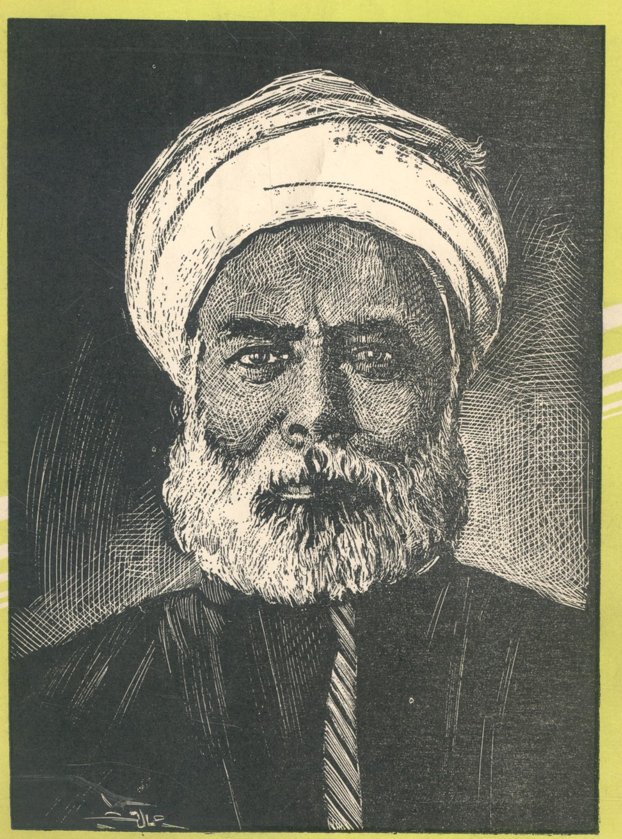
مذكرات الإمام محمد عبده

تقديم وتعليق : طاهر الطناحي



دار الهلال

مذكرات
الإمام محمد عبده

عرض وتحقيق وتعليق
طاهر الطناحي

دار الهلال

تقديم
بقلم الأستاذ طاهر الطناحي

هـذا هو الكتاب الثالث من المجموعة الاسـلامية لتراث الاسـتاذ الامام الشيخ محمـد عبده ، الذى أخذت على نفسى أن أعنى فيها عناية جديدة بحياته العلمية وحيـاته الوطنية والسياسيـة واصـلاحه الدينى والاجتماعى

وقد حفزنى الى ذلك حـافزان : الأول ــ أننى عنيت منـذ نشـأتى الاولى بآثار هـذا الامام العظيم ، فقرأت له كل ما كتب فى الـكتب والصحف ، وكل ما شرحه من كتب البلاغة والبلغاء ، وما عنى به من وجوه الاصلاح فى مختلف الميادين . واذا كنت لم أسعد بلقائه ــ لمجيئى بعد وفاته بعدة سنوات ــ فقد سعدت بلقاء بعض تلامذته ومريديه ، وفى مقدمتهم المرحومون : شاعر النيل محمد حافظ ابراهيم ، والسيـد محمد رشيد رضا ، والشيخ مصـطفى عبد الرازق ، والاستاذ ابراهيم الهلباوى . وقد كان هذا الأخير قرينا وزميلا له منذ الصبا ..!

وقد أتاحت لى معرفتى هؤلاء الرجال الكبار أن أقف على الكثير من ذكرياتهم التاريخية والعلمية والأدبية والوطنية عن حياة الشيخ محمـد عبـده . وقـد دونت بعض ذلك فى الكتابين الأول والثانى من هـذه المجموعة الجديدة (۱)

والثانى من هـذين الحافزين : ان الاستاذ الامام حين توفى فى سن السادسة والخمسين من حياته القصيرة فى عدد السنوات ــ الطويلة فيما خلف من آثار واصـلاحات ــ لم يكن قد أتيح له أن يجمع ما بحث وكتب فى مؤلفات مطبـوعة كما فعل الكثيرون من رجال العلم والأدب والاصلاح ، فقام تلميذه المرحوم السيد محمـد رشيد رضا بجمع الكثير

(۱) كتاب « الاسلام دين العلم والمدنية » وكتاب « دروس من القرآن الكريم »

من كتاباته فى الوقائع الرسمية ، وفى مجلة المنار ، وفى جريدة العروة الوثقى التى كان يصدرها مع السيد جمال الدين الافغانى فى باريس ، وقد نشر طائفة من تفسيره للقرآن الكريم ودون له تاريخا جمع فيه الكثير من الأبواب . ولم يخرج للناس هذا التاريخ الذى أسماه « تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده » الا فى سنة ١٩٣١ م ، بعد وفاة الامام بستة وعشرين عاما ، وقبل وفاته هو ببضع سنوات . ويظهر ان ضيق الوقت وكثرة نفقات الطبع اضطرت السيد رشيد أن يجمل تاريخ الامام اجمالا ، ويدمج سيرته فى سيرة السيد جمال الدين الافغانى ، ويضم حياته الشخصية الى حياته الدينية والسياسية ، ويدخل حياته العلمية فى حياته الاجتماعية ، ويضيف فتاويه الى آرائه الاصلاحية ، ويخلط مذكراته الوطنية وكتاباته عن الثورة العرابية وآراءه فى محمد على ، واسماعيل ، وتوفيق، وأعوانهم فى مجموعة أخرى مما ليس فيها . ويطبع ذلك كله فى جزء واحد يستوعب ١٠٥١ صفحة .. وقد كان من دوافع هذه الترجمة المزدحمة المتداخلة انه كان على عرش مصر أبناء محمد على ، واسماعيل ، وتوفيق ، فلم يكن فى مقدوره أن يخرج للناس حياة الامام اخراجا ترضى عنه الحقيقة ويرضى عنه التاريخ كل الرضاء

***

وقد عمد السيد رشيد الى شىء لم يسبق اليه مترجم لحياة عظيم من عظماء التاريخ ، ولا لتلميذ يكتب عن تاريخ أستاذه ، فقد وضع تاريخ الشيخ محمد عبده وما قام به من أعمال ، وكأنه يضع تاريخا لنفسه أيضا ، فقد لا ترى فصلا أو بحثا للسيد رشيد رضا عن الاستاذ الامام ، الا وقد أشرك فيه نفسه ، وكأن حياته جزء من حياة الامام ، بل بلغت به حماسته لنفسه أن جعل عمله مكملا لأعمال الامام فى بحوثه وآرائه وكتبه ، ككتاب التوحيد ، وتفسير القرآن الكريم ، وغير ذلك مما كتبه أو ألقاه من بحوث ودروس . وقد روى عن الامام أبياتا قالها قبيل وفاته وهو على فراش الموت يدعو الامام فيها الله تعالى أن يجعل السيد رشيد رضا

خلفا له على دين الاسلام يضىء نهجه ، ويسير على طريقه ، ويماثله نطقا وعلما وحكمة . وهذه الأبيات هى :

ولست أبالى أن يقال محمد
أبل ، أم اكتظت عليه المآتم
ولكن دينا قد أردت صلاحه
أحاذر أن تقضى عليه العمائم
وللناس آمال يرجون نيلها
اذا مت ماتت واضمحلت عزائم
فيارب ان قدرت رجعى قريبة
الى عالم الأرواح ، وانفض خاتم
فبارك على الاسلام وارزقه مرشدا
« رشيدا » يضىء النهج والليل قاتم
يماثلنى نطقا وعلما وحكمة
ويشبه منى السيف والسيف صارم

وسواء أكانت هذه الأبيات للشيخ محمد عبده ، أم للسيد محمد رشيد رضا الذى رواها عنه ، فانها تدل على عنايته بنفسه ، وايمانه بأنه خليفته فى الاصلاح الاسلامى . وقد استولى على الكثير من آرائه ، واقتنع بأن له الحق فى طبعها وشرحها والزيادة عليها دون أحد غيره من تلامذة الاستاذ الامام

وعلى الرغم من ذلك ، فواجب الانصاف يدعونا الى أن نقول ان السيد محمد رشيد رضا قد حفظ لنا جانبا غير قليل من حياة الامام ، لولاه لضاع الكثير منها ، ولنسى الكثير من آثاره . وليس عليه ــ وقد كان كاتبا عصاميا ، وناشرا عصاميا ــ أن يقدم لنا حياة الامام تقديما كاملا مخدوما من جميع جوانبه ، وخصوصا أن حياته حياة ضخمة متعددة الجوانب ، واسعة الأفق . وحسبه ما قدم لجيله من مجهود ، وعلى رجال الجيل التالى أن يقوموا بما تحتاج اليه آثار الامام من بحوث وتحقيقات

وما يجب لها من خدمة علمية كافية لتؤدى لهذا الجيل والأجيال القادمه ما كان رحمه الله يهدف اليه من فائدة لأبناء العروبة والاسلام

***

وقد كان من أهم الجوانب فى حياة محمد عبده الجانب الوطنى ، ولكن السيد رشيد رضا أجمل فيه القول اجمالا بل حاول أن يدافع عن اشتراكه فى الثورة العرابية باعتباره « مواليا » لأسرة محمد على « ومدافعا » عن الخديو توفيق ومنتقدا لأحمد عرابى وصحبه ، وغير موافق على ثورته ولم يكن كذلك .. فقد كتب أحد الصحافيين عن الثورة العرابية بمناسبة العفو عن زعمائها المنفيين فى جزيرة سيلان ، وأسند للأستاذ الشيخ محمد عبده أنه أحد أركان هذه الثورة .. فانبرى له السيد رشيد رضا ، وكتب مقالا فى صفحة ٥١٢ من مجلد المنار الرابع (مجلد ١٣١٩ هـ الموافق سنة ١٩٠١ م) . وكان خديو مصر فى ذلك الحين عباس حلمى الثانى . فدافع عن اشتراك محمد عبده فى الثورة العرابية ، وقال فيما قال :

« عرض هذا الصحافى المتحذلق بذكر الفتنة العرابية ، وياليته كان يعرف حقيقة الفتنة العرابية ، ويعرف المتهورين فيها والناصحين لهم بالاعتدال ؛ فهو لا يعرف ولا يحب أن يعرف .. فاذا أحب أن يعرف ، فليسأل العارفين ، وليراجع كتابة الكاتبين ، وعند ذلك تظهر له مزية من عرض به ان كان من المنصفين ، فيظهر له ان هذا الرجل الكبير العقل السديد الرأى كان ينتقد أعمال عرابى وتهوره فى جريدة الوقائع الرسمية فى القسم الأدبى ، على حين ترتعد فرائص قصر الخديو من عرابى ، وعلى حين يرى هذا المنتقد الشجاع أن رئيس النظار (رياض باشا) ينزل من ديوانه بأمر عرابى مكرها ، ويسمع من أتباعه ما يكره ، ثم تظهر له تلك الخطبة التى خطبها هذا الرجل العظيم فى زعماء الثورة العرابية عندما ألزموه حضور مجتمعهم ، وأن يقوم فيهم خطيبا .. » ثم ذكر السيد رشيد أن موضوع الخطبة كان معارضا كل المعارضة للثورة

وزعمائها فى أعظم مجتمع لهم « ولو كانوا يعقلون لرجعوا الى رشدهم ، ولكن الأمة لم تكن استعدت لفهم ارشاد هذا الحكيم » !

والثورة التى يتكلم عنها السيد رشيد ، لم تكن وقتئذ قد بدأت بدءا جديا أو اشتركت فيها الأمة اشتراكا فعليا ، وكان عرابى ما زال برتبة أميرالاى حتى انه بعد سقوط وزارة رياض باشا وتولى محمد شريف باشا الوزارة ، نقل هو وفرقتـه الى رأس الوادى بالشرقية ، وكانت الثورة ما زالت فى دور التكوين . وقد كان الشيخ محمد عبده وقتئذ من أعلام الكتاب وقادة الرأى فى مصر ، اذ كان رئيسا لجريدة الوقائع الرسمية . وكان يكتب قبل الثورة العرابية ، ومنذ تعين محررا فى هذه الجريدة سنة ١٨٧٩ م ، مقالات وطنية وأدبية واجتماعية ودينيـة . وكلها تهدف الى الاصـلاح القومى ونشر الحرية ومعارضـة الظلم والاسـتبداد ، وكان يهدف فى كل مقالة الى رفع مستوى الأمة .. وقد كان ينتقد فيها الحكومة انتقادا كان من أهم أسباب سـقوط وزارة نوبار باشـا ، وكان رجال الجيش وسائر المتعلمين فى الأمة يرونه الرائد الأول ليقظة البلاد بعـد خروج أستاذه جمـال الدين الافغـانى من مصر بأيدى الخديو توفيق وأعوانه . ومن هذه المقالات « حب الفقر وسفه الفلاح » . وقد نشرت فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٨٠ وفيهـا يدافع عن الفلاح ، وينتقـد الضرائب المفروضة على أرضه مما جعله يلجأ الى المرابين وأرباب البنوك ، ومن هذه المقالات التى نشرت فى سنتى١٨٨٠ و١٨٨١ م قبل الثورة العرابية : « وخامة الرشـوة » و « القوة والقـانون » و « منتدياتنـا العمومية وأحاديثها » و « خطأ العقلاء » و « ما هو الفقر الحقيقى فى البلاد » و « وضع الشيء فى غير محله » و « الشورى وولى الأمر » و « الشورى والقانون » . وفى هذا المقال الأخير يقول :

« ان استعداد الناس لأن ينهجوا المنهج الشورى غير متوقف على أن يكونوا متدربين فى البحث والنظر على أصول الجدل المقرر لدى أهله ، بل يكفى كونهم نصبوا أنفسهم ، وطمحت أبصـارهم للحق وضبـط

المصالح على نظام موافق لمصالح البلاد ، وأحوال العباد ..

« ومما تقدم سرده ، تعلم أن أهالى بلادنا المصرية دبت فيهم روح الاتحاد ، وأشرفت نفوسهم منه على مدارك الرأى العام ، وأخذوا يتنصلون من جرم الاهمال ، ويستيقظون من نومة الاغفال ، وقد مرت عليهم حوادث كقطع الليل المظلم .. »

ومن هذه المقالة وحدها ، ما ينفى ما ادعاه السيد رشيد رضا من أن محمد عبده كان معارضا للعرابيين فى ثورتهم ، لأنه كان يرى ان الأمة غير مستعدة لتدبير شئونها بنفسها ، كما يدل على أن نقده للعرابيين فى أوائل الحركة ، كان لاستقلالهم عن الأمة ، ولكن لما انضم عرابى للأمة ، وحصل منها على توكيلات أعيان البلاد والقرى وممثليها ، وظهرت الحركة العرابية بمظهر قومى ، كان من أوائل رجالها يؤيدها بالرأى والعلم ، والقول والعمل

***

وقدكانت مقالاته قبل الثورة العرابية — ومنذ تولى الوقائع الرسمية — من بواعث هذه الثورة ، فقد كان هو وعدد من زعمائها من تلامذة السيد جمال الدين الافغانى ، وقد أسسوا معه أثناء وجوده بمصر حزبا سياسيا باسم « الحزب الوطنى الحر » . وكان هذا الحزب يطالب بتنازل الخديو اسماعيل عن الحكم ، ويطالب بالاصلاح . وقد سعى لدى محمد شريف باشا لكى يقنع اسماعيل بالتنازل ، وقد قال الشيخ محمد عبده عن السيد جمال الدين انه باعث النهضة الوطنية فى مصر ، وأن هجرته الى مصر ، واقامته فيها من سنة ١٨٧١ الى سنة ١٨٧٩ م كانتا بعثا وطنيا سياسيا لها ، وحدا فاصلا بين ماض مظلم ، وحاضر مضىء ، ومستقبل مبشر بالكرامة والحرية

وقد كتب فيما كتب قبل احتدام الثورة العرابية مقالا عن « الحياة السياسية والوطن والوطنية » بتاريخ ٢٨ نوفمبر سنة ١٨٨١ بعد موافقة الخديو على طلب العرابيين وصدور قانون مجلس النواب ، جاء فيه :

« الوطن فى اللغة محل الانسان مطلقا ، فهو والسكن بمعنى : استوطن القوم هــذه الأرض ونوطنوها أى اتخذوها سكنا ، وهو عنــد أهل السياسة مكانك الذى تنسب اليه ويحفظ حقك فيه ، ويعلم حقه عليك ، وتأمن فيه على نفسك وآلك ومالك . ومن أقوالهم فيه : لا وطن الا مع الحرية ، وقال لابروير الحكيم الفرنسى : لا وطن فى حالة الاســتبداد ، ولكن هناك مصالح خصوصيــة ، ومفاخر ذاتيــة ، ومناصب رسمية . وكان حد الوطن عنــد قدماء الرومانيين المكان الذى فيه للمرء حقوق وواجبات سياسية

« وهــذا الحد الرومانى الأخــير لا ينقض قولهم : لا وطن الا مع الحرية ، بل هما سيان .. فان الحرية هى حق القيام بالواجب المعلوم ، فان لم توجد فلا وطن لعدم الحقوق والواجبات السياسية ، وان وجدت فلا بد معها من الواجب والحق .. وهما شــعار الأوطان التى تفتــدى بالأموال والأبدان وتقدم على الأهل والخلان ، ويبلغ حبها فى النفوس الزكية مقام الوجد والهيمان

« أما السكن الذى لا حق فيه للساكن ، ولا هو آمن فيه على المــاله والروح ، فغاية القول فى تعريفه انه مأوى العاجز ، ومستقر من لا يجد الى غيره سبيلا .. فان عظم فلا يسر ، وان صغر فلا يساء . قال لابروير : « ما الفائدة من أن يكون وطنى عظيما كبيرا ، اذ كنت فيه حزينا حقيرا أعيش فى الذل والشقاء خائفا أسيرا ! »

« على أن النسبة للوطن تصل بينه وبين الساكن صلة منوطة بأهداب الشرف الذاتى ، فهو يغار عليــه ويذود عنه كما يذود عن والده الذى ينتمى اليه وان كان سيىء الخلق شديدا عليه .. ولذلك قيل فى مثل هذا المقام ان ياء النسبة فى قولنا مصرى وانجليزى وفرنسى ، هى منموجبات غيرة المصرى على مصر ، والفرسى على فرنســا ، والانجليــزى على انجلترا ، فأنكر ذلك بعض الناس ، وكان فى الأمر لاشك سوء فهم أو سوء افهام

« وجملة القول ان فى الوطن من موجبات الحب والحرص والغيرة ثلاثة تشبه أن تكون حدودا ، الأول انه السكن الذى فيه الغذاء والوقاء والأهل والولد ، والثانى انه مكان الحقوق والواجبات التى هى مدار الحياة السياسية وهما حسيان ظاهريان ، والثالث انه موضع النسبة التى يعلو بها الانسان ، ويعز أو يسفل

«فاذا تقرر ذلك مما قلناه ، وجب على المصرى حب الوطن من كل هذه الوجوه ، فهو سكنه الذى يأكل فيه هنيئا ، ويشرب مريئا ، ويبيت فيه أمينا ، وهو مقامه الذى ينسب اليه ولا يجد فى النسبة عارا ، ولا يخاف تعبيرا .. وهو الآن موضع حقوقه وواجباته »

***

ذلك بعض ما كان يكتبه قبل الثورة ، وفى خلال سنة ١٨٨١ م وهى السنة التى حدثت فيها واقعة قصر النيل كمقدمة لأحداثها الكبرى التى وقعت فى السنة التى تؤرخ بها وهى سنة ١٨٨٢ م . وقد فتحت هذه الكتابات والمقالات عقول الأمة ووجهتها نحو طلب الحرية والاصلاح ، بعد أن عاشت زمنا فريسة للطغيان والاستبداد ، وضحية للجهل والفساد

فاذا كان للشيخ محمد عبده ضلع فى الثورة العرابية ، واشتراك فيها ، فهو أولا ذلك البعث الذى نشأ من مقالاته وآرائه التى أثرت فى الأمة ما بين عسكريين وغير عسكريين وما بين أغنياء وفقراء ، وهيأتها لهذه الثورة

وثانيا ما قام به من مساعدة العرابيين بعد أن انضموا الى الأمة ، وانضمت اليهم الأمة ، وتحقق اتحاد الجميع على طلب الحرية ، ومجلس النواب ، والخلاص من الظلم والاستبداد

ولذلك حين فشلت الثورة ، وقبض على زعمائها ، كان فى مقدمة هؤلاء الزعماء المقبوض عليهم ، والذين أودعوا السجن رهن المحاكمة الاستاذ الشيخ محمد عبده ، الذى قال وهو فى سجنه هذا البيت ضمن خطاب لأحد أصدقائه :

تقلـدتنى الليـالى وهى مدبرة كأننى صارم فى كف منهزم

وقد حوكم الامام ، وحكم عليه بالنفى ثلاث سـنوات خارج القطر المصرى ، فاختـار النفى فى لبنـان ، وجرد من وظيفته ، فى حين حكم بالبراءة للبعض ، وبالنفى فى قريته مددا قصيرة على آخرين . ولو كان محاكموه قد ثبت لهم انه كان معارضـا للعرابيين أو كان محايدا أو غير مساعد لهم فى ثورتهم ضد الخديو والانجليز ، وضد النفوذ الأجنبى لما حكموا عليه ، أو كان حكمهم بالنفى داخل البلاد لا بالتجريد والتشريد فى خارج الوطن

***

واذا كان قد نصح العرابيين ـ وهم منفردون بالحركة ـ بالتريث فى معارضتهم وقتئذ لمصطفى رياض باشا رئيس الوزارة ، فذلك لآن رياض باشا كان فى أوائل عهده من أحسن رؤساء الوزارات الذين تولوا الحكم فى ذلك الحين بعد الوزير الاجنبى الظالم نوبار باشا . فقد رفع كثيرا من الظلم عن المصريين ، وخاصة الفلاحين ، وأقام ميزان العدالة فى كثير من الجهات ، وأصلح الكثير مما أفسدته يد الطغيان . وكان محمد عبده يراه لذلك مثالا للرئيس الوطنى العادل الذى يجب تأييده ، وعدم التسرع فى معارضته .. ولكنه حين وجده فى أواخر وزارته قد ضـعف أمام النفوذ الاجنبى ، وأمام استبداد الخديو توفيق ، أنكر هذه الحال ، وكان من أول الخارجين عليه برغم ما كان له فى نفسه من تقدير ، وما كان يحفظ له من أبوة ومحبة ، وقد فضل أبوة الوطن على أبوته ، ومحبته على كل محبة لولى وصديق ..!

ولا ريب ان الذين أرادوا أن يدافعوا عن الشيخ محمد عبده ، بأنه لم يكن موافقا للعرابيين فى ثورتهم ، وانه كان ينتقدهم ، ولا يتفق واياهم فى الرأى ، قد أسرفوا فى ذلك كل الاسراف ، لأنه وهو من قادة الرأى من حقه ألا يأخذ ما يجرى أمامه أخذا جزافا دون أناة وتفكير ، ودون تدبر وارشاد .. فما وقع من مناقشات بينه وبين العرابيين فى أول الحركة

يحدث بين كبار الرجـال ، وقادة الأمم ، فى كل حركة وكل ثورة من الثورات ، ولا يعد ذلك خروجا على الرأى العام ، أو على اتحاد الأمة . وانما يعتبر الخروج خروجا حين تصبح ثورة الأمة بجميع طبقاتها وطوائفها ، لا ثورة طائفة واحدة يطلب رجالها حقوقا خاصة لهم فى المرتبات والرتب العسكرية كغيرهم من الضباط الشراكسة . وهـذا ما حدث ، فقد كان الشيخ محمد عبده ينتقد العرابيين فى هـذا الدور من الحركة العرابية ، حتى اذا انتقلت الى الدور الوطنى الذى اشتركت فيه الأمة جميعا ، وطالبت بحقوقها كاملة .. كان من أوائل الزعماء الذين دافعوا عنها وطالبوا بهذه الحقوق.

***

ولذلك عنيت بأن أجعل من هـذه المذكرات صورة صادقة للحياة الوطنية والسياسية لهذا الامام الكبير ، فلم أقتصر على نبـذ عن الثورة العرابية كتبها فى دفتر صغير ــ وهو فى السجن ــ بل جمعت كتاباته الوطنية وآراءه فى محمد على ، واسماعيل ، وتوفيق ، وما كتبه بالتفصيل ثم بالاختصار عن الثورة العرابية وأسبابها وأحداثها والرجال الذين اشتركوا فيها ، وما دونه من تحليل لأهداف هؤلاء الرجال . وقد قمت بتحقيق ذلك وشرحه والتعليق عليه تعليقا علميا وتاريخيا دقيقا ، وتقديمه تقديما جديدا ، بحيث اجتمع من ذلك ما يصح أن يطلق عليه اسم «محمد عبده فى حياته الوطنية » أو « مذكرات الامام محمد عبده » وقد اخترت هذا الاسم لأنها بقلمه !..

ولا بد من الاشارة هنا الى ان الشيخ محمـد عبده كان قد طلب منه الخديو عباس حلمى الثانى فى السنين الأولى من ولايته عرش الخديوية أن يضع كتابا عن الثورة العرابيـة . وقد وضع منه جانبا كبيرا ، بدأ بأسباب الثورة منذ عهد الخديو اسماعيل ، وانتهى الى وزارة محمـد شريف باشا الثانية . وفى أثناء وضعـه لهـذا الكتاب ، دس عليه عنـد

الخديو من أفهمه أن الشيخ محمــد عبده عدو لأسرة محمــد على ، وانه لايريد أحدا منها على عرش البلاد ، فتأثر الخديو من هذه الدسيسة .. فانصرف الشيخ عن اتمام الكتاب ، وساءت علاقة الخديو به ، وما زالت تسوء حتى بلغت الغاية . ولكن الشيخ محمــد عبده كان من الشجاعة الوطنية على حظ كبير ، فلم يتــأثر باعراض الخديو عنــه ، ولم يخش استبداده ومضايقاته ، بل كان يقف من العدالة وحق الوطن ما اشتهر عنه فى عدة مواقف حتى أصبح العدو الأكبر للخديو عباس ، وكان محمــد عبده يستعين عليه بما كان له من شخصية عظيمة مهيبة فى الأمة ، واحترام عند أصحاب السلطة الفعلية فى البلاد .. بل كان يجهر برأيه فى كل أمر يراه من مصــلحة بلاده ، وما يجب أن ينير به قومه ليعرفوا أنفســهم ، ويتوخوا مصالحهم ، ويقفوا على حقيقة تاريخهم وأحوالهم

ولقد حدث أن دعا بعض المنافقين للخديو عباس ، والموالين للعــائلة الخديوية فى سنة ١٩٠٢ م ، الى الاستعداد لاقامة ذكرى جده محمد على بمناسبة مرور مائة عام على حكمه فى مايو سنة ١٩٠٥ م . فوجد الاستاذ الامام فى الاحتفال بهذه الذكرى تقديسا للاستبداد ، وتسجيلا على الأمة المصرية شرفا مزعوما ، وحكما مغصوبا كله أنانية وظلم واستبداد ، فكتب مقالا فى مجلة المنار فى سنة ١٩٠٢ م . بعنوان « آثار محمد على فى مصر » جعلته فى مقدمة هذه المذكرات !

واذا كنت قد عنيت بآثار الامام محمد عبده فى هذا الوقت ، فذلك ــ الى ما بينت فى رأس هــذا « التقــديم » ــ استجابة لعناية الجمهورية العربية المتحدة بذكرى أعلام العرب والاسلام ، والقيام على احياء تراثهم

وانه لمن حق هذا الجيل أن يقف على حياة هــذا الامام العظيم الذى أحدث فى بلادنا العربية والاسلامية عدة مدارس فى الاصــلاح الدينى ، والاصلاح السياسى ، والاصلاح الاجتماعى ، وايقــاظ الأمة الاسلامية من غفلتها ، ودفعها فى طريق الوعى القومى والرقى الانســانى خطوات الى الأمام

طاهر الطناحى

سيرة الإمام

من ولادته إلى جمال الدين

الحمد لله ولى الضعفاء اذا رجعوا اليه ، ونصيرهم اذا اعتمدوا فى أعمالهم عليه ، وأخلصوا له العمل ، ومحصوه من شوائب الحيل ، ولم ييأسوا من رحمته ، ولم يبطروا بنعمته ، والصلاة والسلام على محمد خاتم رسله ، الهادى الى الحق وسبله ، الداعى اليه بقوله وفعله ، المؤثر له على نفسه وأهله ، المعرض عن نعيم الدنيا لأجله ، وعلى آله وصحبه الذين بايعوه ، وعلى الصراط المستقيم والنهج الواضح تابعوه

لماذا أكتب سيرتى ؟ ..

وبعد .. فما أنا ممن تكتب سيرته ، ولا ممن تترك للأجيال طريقته ، فانى لم آت لأمتى عملا يذكر ، ولم يكن لى فيها اليوم أثر يؤثر ، حتى أكون لأحد منها قدوة ، أو يكون لأحد فى أسوة .. وهذا الذى أجد من استصغار أمرى ، وخفاء أثرى ، وظهور عجزى عن بلوغ ما يرمى اليه فكرى ويطمح اليه نظرى كان يمنعنى من أن أكتب شيئا يتعلق بحياتى ، تعرض فيه بداياتى ، وشىء من أعمالى بعدها وصفاتى ، حتى أكون به باقيا عند من يطالعه بعد مماتى . وكنت أقول : وقت أصرفه فى حكمة أستفيدها خير من زمن أنفقه فى قصة أستعيدها ، وما الذى عساه يبقى منى ، وأنا فى قومى لم أترك ما يؤثر عنى

ولكن عرض لى أن زرت يوما بعض أصدقائى من الغربيين ممن نظروا فى الآفاق ، وبحثوا فى العادات والاخلاق ، وجابوا لذلك الاقطار ، وركبوا الأخطار ، وتجشموا مشاق الأسفار ، وحققوا فى ذلك ونقبوا ، وكتبوا فيه ما شاء الله أن يكتبوا ، فدار الحديث بيننا عن شئون بعض الأمم الحاضرة ، وما يجرى فيها عما أدت اليه حوادثها الماضية .. فذكرت

لهم ما عندى فى ذلك ، وما أقيم عليه رأيى من مشــاهدات ، فى أيامى الخاليات ، فرأوا فيما ذكرت شيئا يستحق أن يذكر ، ولا ينبغى أن يهمل ويهدر ، وزادوا على ذلك أن قالوا : انهم يتمنون أن يروه منقولا الى لغتهم ، مقروءا فى قومهم بلسانهم ، ولن يكمل ذلك حتى يكون مدرجا فى سيرتى ، معروضا فى تضــاعيف وصفى لمعيشتى ، وما تنقلت فيه من أدوار ، وما تدرجت اليه من آراء وأفكار ، مع اســناد كل شىء الى سببه ، ورد كل أمر الى أصله ، وسألونى مع ذلك أن أكتب ما أعرف من نسبى ، وما كان عليه بيتى ومنزلة أهلى من قومى ، فقلت : سبحان الله لو كانوا من المسلمين لقلت انهم أخذوا بقوله صلى الله عليه وســلم : « لا تحقرن من المعروف شيئا »

أولئك قوم يعرفون الأقدار ، ويقدرون الآثار ، لايبخسون شيئا حقه ، ولا ينكرون عليه ما استحقه ، يطلبون المنفعة فى كل شىء حتى فيما لا قيمة له فى نظرنا ، وفيما نعده من الضائعات فيما بيننا . هذا الذى لفتهم الى دعوتى لتحرير سيرتى ، نزر قليل مما أقصه كل يوم على أبناء جلدتى ، وهم يسمعون ما بين عابث بلحيته ، ولاه بكبريائه وعنجهيته ، ومغرور بمقامه ورتبته ، ومعجب بسنه وشيخوخته ، وما استحثنى على اثبات شىء مما غشينى الا رجل واحد يشاركنى فى الملة ، ولكنه يفارقنى فى الأصــل والمنشأ (١) وكان من كلامه فى اســتنهاضى لذلك « انه ان لم ينفع أهل عصرنا ، انتفع به من يأتى بعدنا » غير أن المرء ولوع بما بين يديه ، غير واثق بما غاب عنه ، فكنت أدافعه بما قدمت من الأعاليل .. ولكن لمــا نصره أولئك الغرباء ، وأيده فى طلبه العرفاء ، وبالغوا فى الالحاح على ، حتى قال لى أحدهم فى اليوم التالى (٢) : « لعل الفصل الأول قد تم » يريد بذلك لعلى بدأت فى العمل عقب مفارقته ، وأتممت الفصل الأول من الكتاب ، مع انى لم أكن شرعت فيه . وفى يوم سفره ، قال : « أرجو

---

(١) ذكر المرحوم الشيخ محمد رشيد رضا فى كتابه « تاريخ الاستاذ الامام » أنه يقصده بتلك الاشارة

(٢) يقصــد المستر ويلفرد بلنت الانجليزى المشهور

أن أقرأ الكتاب بلغتنا فى مثل هذه الأيام من العام المقبل »

لمــا تكرر الطلب فى هــذه الصور المختلفة ، رأيت ان الاضراب عن الاجابة اغراق فى الخمول ، وتقصير فى احترام رأى لم يَشُبه رياء ، ولم يحمل عليه الا قوة الظن بالفائدة فى المطلوب

ثم نظرت نظــرة فى نفسى وما كانت بدايتى ، وما لاقيت فى تربيتى ، وما نزعت اليه أثناء الطريق فى سيرى ، وما انتهيت اليه فيما تأخر من أيام عمرى ، قست جميع ذلك الى ما عليه الناس حولى ، فوجدت اختــلافا قد يسهو عنه الغافل ، ولكن ربما ينتفع بملاحظته العاقل

امران عظيمان

وجدت اننى نشأت كما نشأ كل واحد من الجمهور الأعظم من الطبقة الوسطى من سكان مصر ودخلت فيما فيه يدخلون ، ثم لم ألبث بعــد قطعة من الزمن أن سئمت الاستمرار على ما يألفون ، واندفعت الى طلب شىء مما لايعرفون ، فعثرت على ما لم يكونوا يعثرون عليه ، وناديت بأحسن ما وجــدت ودعوت اليه ، وارتفع صوتى بالدعوة الى أمرين عظيمين ــ الأول : تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبــل ظهور الخلاف والرجوع فى كسب معارفه الى ينابيعه الأولى واعتباره من ضمن موازين العقــل البشرى التى وضعها الله لترد من شططه ، وتقلل من خلطه وخبطه ، لتتم حكمة الله فى حفظ نظام العالم الانسانى ، وانه على هذا الوجه يعد صديقا للعلم ، باعثا على البحث فى أسرار الكون ، داعيا الى احترام الحقائق الثابتة ، مطالبا بالتعويل عليها فى أدب النفس واصلاح العمل..كل هذا أعده أمرا واحدا ، وقد خالفت فى الدعوة اليه رأى الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة .. طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم ، وطلاب فنون هــذا العصر ومن هو فى ناحيتهم

أما الأمر الثانى فهو اصلاح أساليب اللغة العربية فى التحرير ، سواء

كان فى المخاطبات الرسمية بين دواوين الحكومة ومصالحها ، أو فيما تنشره الجرائد على الكافة ، منشأ أومترجما من لغات أخرى، أو فى المراسلات بين الناس . وكانت أساليب الكتابة فى مصر تنحصر فى نوعين ، كلاهما يمجه الذوق وتنكره لغة العرب .. الأول ماكان مستعملا فى مصالح الحكومة وما يشبهها ، وهو ضرب من ضروب التأليف بين الكلمات رث خبيث غير مفهوم ، ولا يمكن رده الى لغة من لغات العالم لا فى صورته ولا فى مادته .. ولا يزال شىء من بقاياه الى اليوم عند بعض الكتاب من القبط ، ومن تعلم منهم ، غير أنه والحمد لله قليل . والنوع الثانى ما كان يستعمله الأدباء والمتخرجون من الجامع الأزهر ، وهو ماكان يراعى فيه السجع وان كان باردا ، وتلاحظ فيه الفواصل وأنواع الجناس وان كان رديئا فى الذوق بعيدا عن الفهم ثقيلا على السمع ، غير مؤد للمعنى المقصود ، ولا ينطبق على آداب اللغة العربيـة .. وهو وان كان يمكن رده الى أصـول اللغة العربية فى صورته ، لكنه لا يعد من أسـاليبها المرضية عند أهلها . ولا يزال هذا النوع موجودا فى عبارات المشايخ خاصة . ثم ورد علينا فى أخريات الأيام ضرب آخر من التعبير كان غريبا فى بابه ، وهو ما جاءنا من الأقطـار السورية فى جريدتى الجنة والجنان المنشأتين بقلم المعلم بطرس البسـتانى .. وهـذا الضرب كان يعد من غرائب الأسـاليب ، وبه أنشئت جريدة الأهـرام فى مصر وقـد محى أثره والحمد لله

العدالة والطاعة

وهناك أمر آخر كنت من دعاته ، والناس جميعا فى عمى عنه ، وبعد عن تعقـله .. ولكنه هو الركن الذى تقوم عليه حيـاتهم الاجتماعية . وما أصابهم الوهن والضعف والذل الا بسبب خلو مجتمعهم منه ، وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب ، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة .. نعم كنت فيمن دعا الأمة المصرية الى

معرفة حقها على حاكمها ، وهى هذه الأمة التى لم يخطر لها هذا الخاطر على بال من مدة تزيد على عشرين قرنا .. دعوناها الى الاعتقاد بأن الحاكم وان وجبت طاعته ، هو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم وأنه لا يرده عن خطئه ولا يقف طغيان شهوته الا نصح الأمة له بالقول ، وبالفعل جهرنا بهذا القول (١) والاستبداد فى عنفوانه والظلم قابض على صولجانه ، ويد الظالم من حديد ، والناس كلهم عبيد له أى عبيد ..

نعم اننى فى كل ذلك ، لم أكن الامام المتبع ولا الرئيس المطاع ، غير أنى كنت روح الدعوة .. وهى لا تزال بى فى كثير مما ذكرت قائمة ، ولا أبرح أدعو الى عقيدتى فى الدين وأطالب باتمام الاصلاح فى اللغة وقد قارب . أما أمر الحكومة والمحكوم ، فتركته للقدر يقدّره ، وليَد الله بعد ذلك تدبيره . لاننى قد عرفت أنه ثمرة تجنيها الأمم من غراس تغرسه ، وتقوم على تنميته السنين الطوال .. فهذا الغراس هو الذى ينبغى أن يعنى به الآن والله المستعان

أصبت نجاحا فى كثير مما عنيت به ، وأخفقت فى كثير مما وجهت عزيمتى اليه ، ولعل ذلك أسباب بعضها مما غرز فى طبعى ، وشىء منها احتف حولى ، وطائفة منها من أصالتى فى الرأى أو خطلى ، ومن الذى يستطيع أن يفصل ذلك غيرى ، حتى يكون ان شاء الله عبرة لمن يأتى من بعدى

لهذا رأيت أن أكتب ما لاقيت ، وأثبت ما صادفت من لدن ما عقلت ، منبها على ما فىّ من معايب ، وعلى احسان الله الى فى بعض المزايا ، وعلى علل الحوادث التى مررت بها أو مرت بى فى أطوار حياتى . غير أننى أبدأ بكلام قليل مما يتعلق بما فى بيتى ، وهو مالا أعرفه الا بالسماع من أهله كما لايخفى

---

(١) يشير بذلك الى موقفه من حكومة الخديو توفيق فى الثورة العرابية

اهلى وبيتى

والدى ووالدتى

أول ماعقلت من أنا ، ومن والدى ، ومن والدتى ، ومن هم أقاربى وجيران بيتى ، عرفت أنى ابن عبده خير الله من سكان قرية محلة نصر بمركز شبراخيت من مديرية البحيرة ، ووقر فى نفسى احترام والدى ، ونظرت اليه أجل الناس فى عينى ، وسكن من هيبته فى قلبى ما لم أجده لأحد من الناس اليوم عندى . أما عوامل هذا الاحترام وذلك الاجلال ، فأتذكر منها قلة الكلام أمامى ، ووقار كان فى الحركات والأعمال والهيئة ، والتنزه عن مخالطة الناس ، ومشاهدتى أهل بلده يحترمونه ويبالغون فى توقيرهم اياه ، وانفراده بالطعام دون والدتى واخواتى ، فان ذلك كان آية العظم عندنا .. فانه ماكان يواكل نساءه وأولاده فى تلك الأوقات الا الفقراء وأهل الطبقة السفلى من أهل القرية

ثم وجدت والدى يقرى الضيف ، ويؤوى الغريب ، ويفتخر باكرام النزيل .. وذلك كان يزيد منزلته من نفسى علوا ، وأنا لا أفهم من هذا الا أنه شىء يفتخر به بدون أن أعقل له علة ، وبالجملة كنت أعتقد أن والدى أعظم رجل فى القرية ، وكل من فيها دونه .. وهو بذلك كان أعظم رجل فى الدنيا ، فان الدنيـا لم تكن عنـدى أوسع من قرية محلة نصر . وكان يؤكد اعتقادى هذا ، رؤيتى لبعض الحكام كناظر القسم (مأمور المركز) وحاكم الخط (معاون المركز) ينزلون عندنا ولا ينزلون فى بيت العمدة ، مع أنه كان أوسع رزقا من والدى وأكثر دورا وعقارا ، ونشأ عندى لذلك الاعتقاد بأن الكرامة وعلو المنزلة لا يتعلقان بالثروة ووفرة المال .. هذا ، وكنت أعقل من صـغرى ما كان عليه والدى من ثباته فى عزيمته وشدته فى المعاملة ، وقسوته على من يعاديه ، وقد أخذت عنه جميع الصفات ما عدا القسوة ، وأحمد الله ولا أحصى ثناء عليه

أما والدتى فكانت منزلتها بين نساء القرية لا تنزل عن مكانة والدى ، وكانت ترحم المساكين ، وتعطف على الضـعفاء ، وتعد ذلك مجـدا ،

وطاعة الله وحمدا . ولم أزل أجد أثر ما وعيت من ذلك فى نفسى الى اليوم ..

عمى :

عرفت لى عما يسمى « بهنسى » ولا أعرف من أحواله شيئا لانه مات قبل أن أحفظ عنه ، وكان لوالدى ابن عم يسمى ابراهيم ، ولم يكن له بين الناس ما يذكر به ، وكان يساكننا فى بيت واحد ، ولا يزال ولده يسكن فى قسم من منزلنا الى اليوم ، ولنا أقارب كثيرون بيوتهم من خير البيوت فى القرية

جدى لابى :

هذا ما عرفته من حاضر بيتى فى أول أمرى ، وما طرأ عليه سيأتى ذكره فى سيرتى . أما ماضيه فانما أذكره حديثا عن أبى ، ورواية عن بعض من عرف شيئا منه ممن أثق به من ذوى قرابتى وغيرهم .. جدى لابى كان يسمى حسن خير الله ، توفى عن أبى وعمى بالهواء الاصفر الذى فتك بسكان القطر المصرى فى أواسط القرن الماضى ، ويقال انه كان له قبل موته من بنى عمه وذوى عصبته نحو اثنى عشر رجلا وشى بهم واش من بيت آخر ، جاء البلدة وسكن فيها وحسد أهل الحسب من سكانها ، فسعى بأهل هذا البيت (بيت خير الله) عند الحكام بحجة أنهم ممن يحمل السلاح ويقف فى وجوه الحكام وأعوانهم عند تنفيذ المظالم ، فأخذوا جميعا وزجوا فى السجون واحدا بعد واحد ، ومن دخل منهم السجن لا يخرج الا ميتا ، وكان جدى حسن شيخا بالبلدة ، وهو الذى بقى من البيت مع ابن أخيه ابراهيم الذى سبق ذكره

هجرة والدى

بعد وفاته طالت يد ذلك الواشى بمساعدة أعوان الحكومة الى سلب ما كان فى البيت من تراث حيث لم تكن قوة تدافعه . فانه لم يكن

بقى الا والدى فى سن الرابعة عشرة ، وعمى فى سن السادسة عشرة ، وابراهيم فى سن الثامنة عشرة والنساء ، فأخذ جميع ما كان فى البيت حتى الأبواب وبعض أخشاب السقوف ، فهاجر والدى وعمى معهما من البلدة ، ولجئوا الى خال والدى الحاج محمد خضر وكان عمدة فى قرية صغيرة تعرف بكنيسة أورين من مركز شبراخيت ، ولكنه لم يستطع ايواءهم عنده خوف الاضطهاد ، لأن هذه المصائب كلها لم تكن قد استلت أحقاد الظلمة من الحكام والوشاة ، فأخذهم خفية وسار بهم الى مديرية الغربية عند أحد أقاربه فى قرية يقال لها « منية طوخ » بمركز السنطة ، ثم انتقل الى قرية بجانبها تسمى « شترا » ، وكان معهم من النقود ما يسمح لهم باستئجار أطيان يعملون فى زراعتها ، اما بأنفسهم أو بشركاء يعملون بأيديهم ويقتسمون الربع معهم ، واشتهر والدى بالفتوة والبراعة فى الصيد بالسلاح ، وأحبه لذلك مصطفى أفندى المنشاوى ومحمد أخوه .. وكانا موظفين فى دائرة المرحوم اسماعيل باشا الخديو ، الأول فى وظيفة مفتش زراعة والثانى بوظيفة ناظر ، وطابت له صحبتهما وعدوه كأنه واحد من أهلهما ودام ذلك مدة سنين

سجن والدى

ولما اشتد الظلم على أهل قرية محلة نصر ، وضاقت بهم السبل ، كما كان يسومهم ذلك الواشى من الخسف والذل ، أخذوا يتسللون بيتا بعد بيت ، يهجرون القرية ويذهبون ليقيموا فى جوار من سبقهم من أهلى.. فأحس الشقى باشراف القرية على الخراب ، وفى ذلك انتقاص منافعه وخسارة كبيرة فى مصالحه ، فجدد الوشاية بوالدى ومن معه ، ورفع شكوى الى مدير البحيرة ، وكان فى شبراخيت ، يذكر فيها أن والدى مأوى لمن فروا بأسلحتهم من القرية ، وكان قد صدر أمر المرحوم عباس باشا الاول بتجريد الأهالى من السلاح وحظر حمله عليهم ، فكتب مدير البحيرة بذلك الى مدير الغربية ، واتهم مع ذلك مصطفى أفندى المنشاوى

بايوائه بعض الفارين من العسكرية ، فأخــذ الجميع على غرة ، وقبض عليهم فى بيوتهم ، وسيقوا الى مديرية الغربية .. أما مصطفى المنشــاوى فأرســل الى ليمــان الاسكندرية ، وأما والدى ومن معه فأرسلوا الى مديرية البحيرة ليحبسوا هناك الى أن يصدر الأمر فى شأنهم . ولم يزالوا فى السجن الى أن توفى عباس باشا فأفرج عنهم وعن غيرهم ، وبعد ذلك عاد والدى الى مسقط رأسه فى أول ولاية المرحوم سعيد باشا ، ولم يجد شيئا مما كان يملكه أسلافه الا جدران البيت مهدمة !

تقــدم انه طالت اقامته فى مديرية الغربية ، ويقال أن مدتها بلغت نحو خمس عشرة ســنة ، وفى أثنائها عرف كثيرا من سكان البــلاد المجاورة لشترا ، وعرف فيمن عرف بيت والدتى وهو بيت كبير فى بلــدة تسمى « حصة شبشير » يعرف ببيت عثمان ، كان كبيره اذ ذاك جدى ابراهيم عثمان الكبير ، فتزوج والدتى وأخذها الى « شبشير » وفيها ولدت فى أواخر (١) سنة خمس وستين بعــد المئتين والألف من الهجرة ، لم يولد له منها غيرى الا بنتــان احداهما تسمى زمزم وهى بكرة توفيت قبــل ولادتى ، والاخرى تسمى مريم وهى لم تمت حتى تزوجت وأنا فى آخر سنى طلب العلم

كنت أسمع المزاحين من أهل بلدتنــا يلقبون بيتنــا ببيت التركمان ، فسألت والدى عن ذلك فأخبرنى أن نسبنا ينتهى الى جــد تركمانى جاء من بلاد التركمان فى جماعة من أهله ، وسكنوا فى الخيام بمديرية البحيرة مدة من الزمن ، ثم اتفق أن اتصل بهم شيخ يسمى عبد الملك لا يعرف نسبه ، ولكنه كان معتقــدا له كرامات تنسب اليه ، واتخذ له خلوة فى المحل الذى أسست فيه قرية « محلة نصر » فلما توفى ، رأى جدنا ـــ وقد

---

(١) أواخر سنة ١٢٦٥ هـ يوافق أوائل سنة ١٨٤٩ م . وقد توفى الشيخ محمد عبده سنة ١٩٠٥ م الموافق سنة ١٣٢٣ هـ فيكون عمره حين وفاته ٥٦ سنة بالتاريخ الميلادى و ٥٨ سنة بالتاريخ الهجرى . وفى رواية انه ولد سنة ١٢٥٦ هـ ، وهى على ما نرى ضعيفة لانه كان أصغر من السيد جمال الدين الافغانى بنحو عشر سنوات . وقد ولد السيد الافغــانى فى سنة ١٢٥٤ هـ ـ سنة ١٨٣٨ م ويؤيد تاريخ الميلاد الذى كتبه الامام هنا انه دخل الجامع الاحمدى بطنطا لاول مرة سنة ١٢٧٩ هـ ، وهو فى الرابعة عشرة تقريبا

كان من أهل بيت الشيخ وبيت آخر يسمى بيت الفرنوانى — أن يبنوا له قبة ثم يقيموا لهم بيوتا من البناء حول تلك القبة ويسكنوها ثم انضم اليهم بيوت كثيرة تكون فى مجموعها قرية محلة نصر ، وذلك من زمن مديد لايعرف ابتداؤه ، ولا تزال قبة الشيخ وبيت أقربائه الى اليوم . أما تسميتها بمحلة نصر فذلك لأن مزارع البلدة كانت أعطيت اقطاعا لشخص يسمى نصرا .. فسميت باسمه من زمن لا نعرفه أيضا

وقد أخبرنى المرحوم على باشا مبارك انه اطلع على رحلة لعبد اللطيف البغدادى الشهير ، تعرف بالرحلة الكبرى ، ورأى فيها اسم محلتى نصر ومسروق ، وانه نزل ضيفا فى بيت خير الله التركمانى ، وقال ان البيوت الكبيرة فى البلدة كانت ثلاثة : بيت الشيخ ، وبيت خير الله ، وبيت الفرنوانى

أما بيت والدتى فيقال انه عربى قرشى ، وانه يتصل فى النسب بعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ولكن ذلك كله روايات متوارثة لايمكن اقامة الدليل عليها

نسب الآباء ونسب الاعمال

وهنا موضع الكلام على سبب ضياع الانساب فى الاسلام ، وكيف وصل الأمر بالمسلمين الى ألا يعرف الواحد منهم من آبائه أكثر من ثلاثة ، ومنهم من لايعرف غير والده

جاء الاسلام والعرب أشد الناس محافظة على أنسابهم ، وأشدهم حرصا على معرفة ما كان لأسلافهم من مجد وحسب ، وكانوا يبالغون فى الاعتزاز بشرف الأحساب حتى كادوا لا يعدون من خلال الخير شيئا يساوى شرف النسب .. وهيهات أن يرتفع ذو أدب بأدبه الى رتبة شريف بنسبه ، وان كان خاملا فى نفسه غير شىء فى عمله . ولا يخفى ما كان فى ذلك من بخس الحق والاستهانة بالكرم الذاتى والشرف العصامى والاتكال فى نيل المقامات العالية بين الناس على ما فعل السابقون ، لا على

ما يكسبه المرء بجده واجتهاده . نعم كان فى الافتخار بالآباء والأجداد ؛ ومعرفة ما أتوا به من جليل الاعمال ، وما كانوا عليه من كريم الخصال ، تحريض لأخلاقهم على الاقتداء بهم ، وحفظ ما ورثّوهم من علو ورفعة.. لكن الكسل الملازم لطبيعة الانسـاب ، كان يغلب جانب الاتكال على جانب الاسوة ، فجاء الدين الاسلامى ينكر الافراط والغلو فى اعتبـار الانسـاب .. كما أنكر ذلك فى كل شىء حتى فى الدين نفسـه ، وقال التنزيل (ان أكرمكم عند الله أتقـاكم) وقال صـلى الله عليه وسلم : « ائتونى بأعمالكم ولا تأتونى بأنسابكم » ليدل على ان النسب وحده ليس بالشىء يرفع ويخفض .. ولكن المعول عليه ، وما يصـح أن يرجع الـكرم اليه ، انما هو ما يكون عليه المرء نفسه ، فان وافق ذلك نسبـا عاليا وحسبا تالدا كان أبلغ فى الشرف وأعرق فى الكرم والا فلن يبخس العامل عمله ، ولن يحرم أولئك الذين فاض عليهم الفضل الالهى فرفع أنفسهم عما كان وضعهم آباؤهم فجعلهم بذاتهم أصولا للكرم وأدواحا للمجد بما أودع فيهم من الغرائز الفاضـلة ، ووفقهم للأعمال الصالحة ، فمنهم يبتدىء الحسب واليهم فى القرون المستقبلة يرجع النسب

ادعوهم لآبائهم

هذا ما أراده الاسلام وما دعا اليه ، ولكنه مع ذلك أمر برعاية النسبة الى الآباء ، ونفى ما كان عند الجاهلية من عادة التبنى والالتحاق بالأدعياء ، وفرض على المؤمنين أن يدعوهم لآبائهم ليعرفوا بهم لا بما اندرجوا فيه ، وجعل لقريش من الفضل على غيرها من القبائل ما تقصر من بلوغه رواحل الآمال ، وأوصى على بن أبى طالب أن يعهد بجلائل الأعمال الى أهل البيوتات الصالحة وذوى القدم السابقة . وجاءت سنة السلف شـاهدة بأن للأنساب وتوارث الاحساب مظاهر فى أعمـال الاشخاص وآثار فى خصالهم ينبغى النظر اليها .. فلم يهمل الاسلام شأن النسب ، ولم يضع من شأن الأدب المكتسب ، بل طلب العدل فى الأمرين ، وجمع لأهله بين

النظرين الصادقين

ولكن ماذا يصنع الاسلام فى المسلمين وقد مهروا فى تحريفه ، وقلب مقاصده العالية الى أضدادها ، كأنما هم مغرون بذلك من أعدائه . رأوا من بداية الأمر أن بعض من لا نسب لهم من الموالى والملصقين ، قد بلغوا من منازل الكرامة بين المسلمين ما يغبطهم عليه أهل الاحساب .. وذلك بما أحرزوا من شجاعة ونجدة ، أو علم وفضيلة ، وبلغ من أمر بعض الموالى الذين لا يعرف آباؤهم فضلا عن أجدادهم فى الدولة العباسية أن استبدوا على الخفاء من نسل العباس بن عبد المطلب ، واغتصبوا الملك منهم ، وسادوا على كل ذى حسب ونسب من آل بيت النبوة ، فسقطت لذلك منزلة النسب من نفوس المسلمين ، وعاندوا سنة من أعظم سنن الله فى خلقه ، وهى سنة توارث الأخلاق والغرائز . وان ما يكون فى الآباء من أصول الملكات يهيىء الأبناء لكسب مثلها ، وما جاء مخالفا لذلك فهو من مبتدعات القدرة الالهية ، وأما التربية فانكانت حسنة مهدت السبيل وأسرعت بتكوين الملكة الصالحة فى النفس المستعدة حتى يكون الشاب من أهل بيت صالح بمنزلة الشيخ ممن جاهد نفسه وأخذها بالرياضة على مكارم الأخلاق ، وليس له سلف فيها .. وان كانت رديئة أماتت الاستعداد للخير ومحته من طبيعته النفس وجاءت بدله بضده

وشأن التربية مع الاستعداد للرذائل ذلك الشأن بعينه ، فان كانت صالحة أماتت ذلك الاستعداد ، ولكن بعد عناء يستغرق السنين الطوال ، وان كانت غير صالحة أسرعت بتكوين الملكات الخبيثة فى نفس الناشىء حتى يكون الفتى من قوم فاسقين قد بلغ مبلغ الشيخ من غيرهم ، يرميه القدر من أول نشأته بسهام الحاجة ، فيأخذ يكلف نفسه ما ليس فى استعدادها ، ويحملها على معاطاة ما لا يليق من الخلال من الحيلة والمكر والخديعة مثلا وهو ليس من أهلها

العناية بأنساب الحيوان !

هكذا أغفل المسلمون مراعاة هذه السنة فى أنفسهم ، مع انهم لم يغفلوا عنها فى دوابهم من الخيـــل والحمير وماشيتهم من البقر والغنم والابل ونحوها ، فيطلبوا نتاج الجياد ولكنهم لايطلبون البنين من أم البنين .. بل ولعوا بالجوارى والاماء ممن لا تعرف أصـــولهن ، ولم تعرض على الاختيار خلالهن ، فى بيوت آبائهن ، وأكثر ما كان ذلك فى بيوت الخلفاء ومن يليهم من علية الناس فكان الابن ينسى خئولته بعد أن كان يفتخر بها

وقد ولع الملوك بالمماليك ، وظنهم فيهم الاخلاص فى الولاء ، وثقتهم بأمانتهم ، الى رفعهم على رءوس من سواهم .. فتوجهت اليهم النفوس بالرعاية والاحترام ، وما كان لأحد من أولئك العبيد المحترمين أن يذكر له أبا ، أو يتذكر لنفسه نسبا ، فصار الجهل بالانساب عادة .. وبئست العادة ، وأصبح البيت القديم المؤسس على مئتين من السنين لايعرف من آسلافه الا واحدا أو اثنين ، ومن بقى بعد ذلك فقد آكل الزمن ذكره

ولذلك أقول أن ما أسمعه عن بيت والدى ووالدتى ، انما هو روايات فى أفواه الأهل والأقارب ممن يعرفهم من الناس ، قد يكون لها طريق الى الصحة وقد تكون مما يخترعه الناس للتزيد فى الفضـــل .. غير أن ذلك يأتى فى الانتساب الى قريش وعمر بن الخطاب ، أما فى الانتساب الى أصل تركمانى فلا أظن ذلك يأتى ، ولهذا يترجح عندى جانب صحة الخبر ، ويؤيده ما يرى فى أهل بيتنا من بعض الخصال التى لايشاركهم فيها من يجاورهم فى مساكنهم

نشاتى وتربيتى

تعلمت القراءة والكتابة فى منزل والدى ، ثم انتقلت الى دار حافظ قرآن .. قرأت عليه وحدى جميع القرآن أول مرة ، ثم أعدت القراءة حتى أتممت حفظه جميعه فى مدة سنتين ، أدركنى فى ثانيتهما صبيان من أهل القرية .. جاءا من مكتب آخر ليقرءا القرآن عند هذا الحافظ ، ظنا

منهما أن نجاحى فى حفظ القرآن كان من أثر اهتمام الحافظ

بعد ذلك حملنى والدى الى طنطا ، حيث كان أخى لأمى الشيخ مجاهد رحمه الله ، لأجود القرآن فى المسجد الأحمدى لشهرة قرائه بفنون التجويد . وكان ذلك فى سنة ١٢٧٩ (١) الهجرية

وفى سنة مائتين واحدى وثمانين الهجرية ، جلست فى دروس العلم ، وبدأت بتلقى شرح الكفراوى على الاجرومية فى المسجد الأحمدى بطنطا ، وقضيت سنة ونصف سنة لا أفهم شيئا لرداءة طريقة التعليم ، فان المدرسين كانوا يفاجئوننا باصطلاحات نحوية أو فقهية لا نفهمها ، ولا عناية لهم بتفهيم معانيها لمن لم يعرفها ، فأدركنى اليأس من النجاح وهربت من الدروس ، واختفيت عند أخوالى مدة ثلاثة أشهر ، ثم عثر على أخى فأخذنى الى المسجد الأحمدى ، وأراد اكراهى على طلب العلم ، فأبيت وقلت له : قد أيقنت أن لا نجاح لى فى طلب العلم ، ولم يبق على الا أن أعود الى بلدى وأشتغل بملاحظة الزراعة كما يشتغل الكثير من أقاربى : وانتهى الجدال بتغلبى عليه ، فأخذت ما كان لى من ثياب ومتاع ، ورجعت الى محلة نصر على نية ألا أعود الى طلب العلم ، وتزوجت فى سنة ١٢٨٢ على هذه النية

فهذا أول أثر وجدت فى نفسى من طريقة التعليم فى طنطا ، وهى بعينها طريقته فى الأزهر .. وهو الأثر الذى يجده خمسة وتسعون فى المائة ممن لايساعدهم القدر بصحبة من لايلتزمون هذه السبيل فى التعليم .. سبيل القاء المعلم ما يعرفه أو ما لا يعرفه بدون أن يراعى المتعلم ودرجة استعداده للفهم ، غير ان الأغلب من الطلبة الذين لايفهمون تغشهم أنفسهم فيظنون أنهم فهموا شيئا .. فيستمرون على الطلب الى أن يبلغوا سن الرجال ، وهم فى أحلام الأطفال ، ثم يبتلى بهم الناس وتصاب بهم

(١) هذا يؤيد أن الامام محمد عبده ولد فى سنة ١٢٦٥ هـ ـ لا فى سنة ١٢٥٦ هـ لان سنه تكون وقتئذ ١٤ عاما ـ لا ٢٣ عاما حين دخوله الجامع الاحمدى وقد ذكر حسن باشا عاصم والقاضى الشيخ أحمد ابو خطوة اللذان رلياه يوم الاربعين انه ولد سنة ١٢٦٦ للهجرة وقد نال شهادة العالمية سنة ١٢٩٤ هـ فيكون عمره وقتئذ ٢٨ أو ٢٩ اما اذا كانت سنة ١٢٥٦ هـ فيكون عمره وقت حصوله على شهادة العالمية ٣٨ سنة وهذا غير صحيح

العامة ، فتعظم بهم الرزية لأنهم يزيدون الجاهل جهالة ، ويضللون من توجد عنده داعية الاسترشاد ، ويؤذون بدعاويهم من يكون على شيء من العلم ، ويحولون بينه وبين نفع الناس بعمله

عودة الى طلب العلم

بعد أن تزوجت بأربعين يوما ، جاءنى والدى صحوة نهار ، وألزمنى بالذهاب الى طنطا لطلب العلم .. وبعد احتجاج وتمنع واباء ، لم أجد مندوحة عن اطاعة الأمر ، ووجدت فرسا أحضره فركبته ، وأصحبنى والدى بأحد أقاربى .. وكان قوى البنية شديد البأس ، ليشيعنى الى محطة (ايتاى البارود) التى أركب منها قطار السكة الحديدية الى طنطا

كان اليوم شديد الحر ، والريح عاصفة ملتهبة ، تحصب الوجه بشبه الرمضاء .. فلم أستطع الاستمرار فى السير ، فقلت لصاحبى : أما مداومة المسير فلا طاقة لى بها مع هذه الحرارة ، ولا بد من التعريج على قرية أنتظر فيها حتى يخف الحر .. فأبى على ذلك فتركته ، وأجريت الفرس هاربا من مشادته ، وقلت انى ذاهب الى (كنيسة أورين) ــ بلدة غالب سكانها من خئولة أبى ــ وقد فرح بى شبان القرية لأننى كنت معروفا بالفروسية واللعب بالسلاح ، وأملوا أن أقيم معهم مدة يلهو فيها كل منا بصاحبه .. أدركنى صاحبى وبقى معى الى العصر ، وأرادنى على السفر ، فقلت له خذ الفرس وارجع وسأذهب صباح الغد وان شئت قلت لوالدى اننى سافرت الى طنطا .. فانصرف وأخبر ما أخبر ، وبقيت فى هذه القرية خمسة عشر يوما تحولت فيها حالتى ، وبدلت فيها رغبة غير رغبتى

مع الشيخ درويش

ذلك ان أحد أخوال أبى ، واسمه الشيخ درويش ، سبقت له أسفار الى صحراء ليبيا .. ووصل فى أسفاره الى طرابلس الغرب ، وجلس الى السيد محمد المدنى والد الشيخ ظافر المشهور الذى كان قد سكن الاستانة وتوفى بها وتعلم عنده شيئا من العلم ، وأخذ عنه الطريقة الشاذلية ، وكان

يحفظ « الموطأ » وبعض كتب الحديث ويجيد حفظ القرآن وفهمه ، ثم رجع من أسفاره الى قريته هذه ، واشتغل بما يشتغل به الناس من فلاحة الأرض وكسب الرزق بالزراعة

جاءنى هذا الشيخ صبيحة الليلة التى بتها فى الكنيسة ، وبيده كتاب يحتوى على رسائل كتبها السيد محمد المدنى الى بعض مريديه بالاطراف بخط مغربى دقيق ، وسألنى أن أقرأ له فيها شيئا لضعف بصره .. فرفضت طلبه بشدة ولعنت القراءة ومن يشتغل بها ، ونفرت منه أشد النفور .. ولما وضع الكتاب بين يدى رميته الى بعيد ، لكن الشيخ تبسم وتجلى فى ألطف مظاهر الحلم ، ولم يزل بى حتى أخذت الكتاب وقرأت منه بضعة أسطر ، فاندفع يفسر لى معانى ما قرأت بعبـارة واضحة تغالب اعراضى فتغلبه وتسبق الى نفسى . وبعد قليل جاء الشبان يدعوننى الى ركوب الخيل واللعب بالسلاح والسباحة فى نهر قريب من القرية ، فرميت الكتاب وانصرفت اليهم . بعد العصر جاءنى الشيخ بكتابه ، وألح على فى قراءة شىء منه ؛ فقرأت ثم تركته الى اللعب ، وفعل فى اليوم التالى كما فعل فى الأول . أما اليوم الثالث فقد بقيت أقرأ له فيه ، وهو يشرح لى معـانى ما أقرأ نحو ثلاث ساعات لم أمل فيها ، فقال لى انه فى حاجة الى الذهاب الى المزرعة ليعمل فيها فطلبت منه ابقـاء الكتاب معى فتركه ، ومضيت أقرأه وكلما مررت بعبارة لم أفهمها وضعت عليها علامة لأسأله عنها الى أن جاء وقت الظهر ، وعصيت فى ذلك اليوم كل رغبـة فى اللعب ، وكل هوى ينازعنى الى البطالة .. وعصر ذلك اليوم سألته عما لم أفهمه ، فأبان معناه على عادته ، وظهر عليه الفرح بما تجدد عندى من الرغبة فى المطالعة والميل الى الفهم

مفتاح سعادتى

كانت هذه الرسائل تحتوى على شىء من معارف الصوفية ، وكثير من كلامهم فى آداب النفس وترويضها على مكارم الاخلاق وتطهيرها من دنس

الرذائل وتزهيدها فى الباطل من مظاهر هذه الحياة الدنيا

لم يأت على اليوم الخامس الا وقد صار أبغض شيء الى ما كنت أحبه من لعب ولهو ، وفخفخة وزهو ، وعاد أحب شيء الى ما كنت أبغضه من مطالعة وفهم ، وكرهت صور أولئك الشبان الذين كانوا يدعوننى الى ما كنت أحب ويزهدوننى فى عشرة الشيخ ــ رحمه الله ــ فكنت لا أحتمل أن أرى واحدا منهم ، بل أفر من لقائهم جميعا كما يفر السليم من الاجرب

وفى اليوم السابع سألت الشيخ : ما هى طريقتكم ؟.. فقال : طريقتنا الاسلام ، فقلت : أو ليس كل هؤلاء الناس بمسلمين ؟..

قال : لو كانوا مسلمين لما رأيتهم يتنازعون على التافه من الأمر ، ولما سمعتهم يحلفون بالله كاذبين بسبب وبغير سبب . هذه الكلمات كانت كأنها نار أحرقت جميع ما كان عندى من المتاع القديم .. متاع تلك الدعاوى الباطلة والمزاعم الفاسدة ، متاع الغرور بأننا مسلمون ناجون ، وان كنا فى غمرة ساهية

سألته : ما وردكم الذى يتلى فى الخلوات أو عقب الصلوات ، فقال : لا ورد لنا سوى القرآن ، تقرأ بعد كل صلاة أربعة من أرباع مع الفهم والتدبر . قلت : انى لى أن أفهم القرآن ولم أتعلم شيئا ؟.. قال أقرأ معك ، ويكفيك أن تفهم الجملة وببركتها يفيض الله عليك التفصيل ، واذا خلوت فاذكر الله ــ على طريقة بينها لى . وأخذت أعل بما قال من اليوم الثامن ، فلم تمض على بضعة أيام الا وقد رأيتنى أطير بنفسى فى عالم آخر غير الذى كنت أعهد ، واتسع لى ما كان ضيقا ، وصغر عندى من الدنيا ما كان كبيرا ، وعظم عندى من أمر العرفان والنزوع بالنفس الى جانب القدس ما كان صغيرا .. وتفرقت عنى جميع الهموم ، ولم يبق لى الا هم واحد وهو أن أكون كامل المعرفة كامل أدب النفس، ولم أجد اماما يرشدنى الى ما وجهت اليه نفسى الا ذلك الشيخ الذى أخرجنى فى بضعة أيام من سجن الجهل الى فضاء المعرفة ، ومن قيود

التقليد ، الى اطلاق التوحيد .. هذا هو الأثر الذى وجدته فى نفسى من صحبة أحد أقاربى ، وهو الشيخ درويش خضر من أهل (كنيسة أورين) من مديرية البحيرة . وهو مفتاح سعادتى ان كانت لى سعادة فى هـذه الحياة الدنيا ، وهو الذى رد لى ما كان غاب من غريزتى ، وكشف لى ما كان خفى عنى مما أودع فى فطرتى

وفى اليوم الخامس عشر ، مر بى أحد سكان بلدتنا (محلة نصر) فأخبرنى ان والدتى ذهبت الى طنطا لترانى ، فعلمت أنها ستقول لوالدى اننى لا أزال فى بلدة الكنيسة ، فأصبحت مبكرا الى طنطا خوف عتاب الوالد واشتداده فى اللوم ، لأننى لو كنت أقمت له ألف دليل على اننى وجدت فى مهربى مطلبه ومطلبى لما اقتنع ..

فى ساحة الدرس

ذهبت الى طنطا ، وكان ذلك قرب آخر السنة الدراسية فى شهر جمادى الآخرة من سنة ١٢٨٢ الهجرية ، فاتفق ان بعض المشايخ كانت ماتت بنته ، فعـاقه الحزن عليها عن اتمام شرح الزرقانى على العزية ، وآخر عرض له عارض منعه عن اتمام شرح الشيخ خالد على الاجرومية ، فأدركت كلا منهمـا فى أوائل الكتاب الذى كان يدرس ، وجلست فى الدرسين فوجدت نفسى أفهم ما أقرأ وما أسمع والحمد لله . وعرف ذلك منى بعض الطلبة فكانوا يلتفون حولى لأطالع معهم قبل الدرس ماستتلقاه

وفى يوم من شهر رجب من تلك السنة ، كنت أطالع بين الطلبة وأقرر لهم معانى شرح الزرقانى ، فرأيت أمامى شخصـا يشبه أن يكون من أولئك الذين يسمونهم بالمجاذيب .. فلما رفعت رأسى اليه قال مامعناه : ما أحلى حلوى مصر البيضاء .. فقلت له : وأين الحلوى التى معك ؟.. فقال : سبحان الله من جد وجد .. ثم انصرف فعددت ذلك القول منه الهاما ساقه الله الى ليحملنى على طلب العلم فى مصر دون طنطا

وفى منتصف شوال من تلك السنة ذهبت الى الأزهر ، وداومت على طلب العلم على شيوخه مع محافظتى على العزلة والبعد عن الناس حتى كنت أستغفر الله اذا كلمت شخصا كلمة لغير ضرورة . وفى أواخر كل سنة دراسية ، كنت أذهب الى (محلة نصر) لأقيم بها شهرين — من منتصف شعبان الى منتصف شوال — وكنت عند وصولى الى البلد أجد خال والدى الشيخ درويشا قد سبقنى اليه ، فكان يستمر معى يدارسنى القرآن والعلم الى يوم سفرى . وكل سنة كان يسألنى ماذا قرأت ، فأذكر له ما درست ، فيقول : ما درست المنطق ، ما درست الحساب ، مادرست شيئا من مبادىء الهندسة .. وهكذا كنت أقول له : بعض هذه العلوم غير معروف الدراسة فى الازهر ، فيقول : طالب العلم لايعجز عن تحصيله فى أى مكان .. فكنت اذا رجعت القاهرة ، ألتمس هـذه العلوم عنـد من يعرفها ، فتارة كنت أخطىء فى الطلب ، وأخرى أصيب ، الى أن جاء المرحوم السيد جمال الدين الافغانى الى مصر أواخر سنة ١٢٨٦ هـ

لقاء بالسيد جمال الدين

وقد صاحبته من ابتداء شهر المحرم سنة ١٢٨٧ هـ ، وأخذت أتلقى عنده بعض العلوم الرياضية والحكمية (الفلسفية) والكلامية ، وأدعو الناس الى التلقى عنه كذلك . وأخذ مشايخ الأزهر والجمهور من طلبته يتقولون عليه وعلينا الأقاويل ، ويزعمون ان تلقى تلك العلوم قد يفضى الى زعزعة العقائد الصحيحة . وقد يهوى بالنفس فى ضلالات تحرمها خيرى الدنيا والآخرة ، فكنت اذا رجعت الى بلدى عرضت ذلك على الشيخ درويش ، فكان يقول لى : « ان الله هو العليم الحكيم ، ولا علم يفوق علمه وحكمته ، وان أعدى أعداء العليم هو الجاهل وأعدى أعداء الحكيم هو السفيه ، وما تقرب أحد الى الله بأفضل من العلم والحكمة ، فلا شىء من العلم بممقوت عند الله ولا شىء من الجهل بمحمود لديه الا

ما يسميه بعض الناس علما ، وليس فى الحقيقة بعلم ، كالسحر والشعوذة ونحوهما اذا قصد من تحصيلهما الاضرار بالناس » (١)

---

(١) كان قد مضى على الشيخ محمد عبده ثلاث سنوات فى طلب العلم بالجامع الازهر ، حين وفد على مصر السيد جمال الدين الافغانى، وكان قد أصاب منذ التحاقه بالجامع الاحمدى حتى حضور السيد حظا غير قليل من قراءة العلوم العقلية والنقلية على الشيخ درويش خضر ، وعلى الشيخ حسن الطويل ، والشيخ محمد بسيونى وغيرهم من العلماء . ثم استقل بدراسة علوم اللغة والفلسفة والمنطق والتوحيد ووجهه توجيها اجتماعيا وأدبيا ووطنيا وسياسيا واسلاميا جديدا ، فكان خير خلف لخير سلف، وظهر ذلك فيما بعد فى كتاباته ودروسه وجهاده السياسى والاسلامى مما تراه فى مذكراته التالية

الفصل الأول

مذكرات الإمام

محمد على

تولت السلطة فى البلاد المصرية ــ قبل دخول الجيش الفرنسى ــ أنواع من الحكومات التى تسمى فى اصطلاح الغربيين حكومات الاشراف، وتسمى فى عرف المصريين حكومات الالتزام ، وتعرف عند الخاصة بحكومات الاقطاع . وأساس هذا النوع من الحكومات تقسيم البلاد بين جماعة من الأفراد ، يملك كل أمير منهم قسما يتصرف فى أرضه وقوى ساكنيها وأبدانهم وأموالهم كما يريد .. فهو حاكمهم السياسى ، والادارى ، والقضائى ، وسيدهم المالك لرقابهم

ومن طبيعة هذا النوع من الحكومة أن تنمو فيه الاثرة ، وتغلظ فيه أصول الاستبداد وفروعه ، وتنزع نفس كل أمير الى توسيع دائرة ملكه بالاستيلاء على ما فى يد جاره من الأمراء . فكان من مقتضى الطبيعة ، أن كل أمير لا ينفك عن التدبير والتفكير فيما تعظم فيه شوكته ، وما يدفع به عن حوزته ، وأن يكون الجميع دائما فى استعداد اما للوثوب واما للدفاع . ولكن الأمراء فى مجموعهم ، كانوا يقاومون سلطة الملوك .. فيضطر الملك لاستمالتهم ومحاباة بعضهم للاستعانة به على البعض الآخر ، فضعف بذلك استبداد الملوك فيهم

وكانت حاجة الأمراء الى المال ، تسوقهم الى ظلم رعاياهم .. وكانت شدة الظلم تميل برعاياهم الى خذلانهم عند هجوم العدو عليهم .. ظهر ذلك فى خصوماتهم المتوالية ، فاضطر الأمراء أن يخففوا من ظلمهم ، وأن يتخذوا لهم من الأهلين أنصارا يؤازرونهم عند قيـام الحرب بينهم وبين خصومهم . فلما أحس الأهلون بحاجة الأمراء اليهم ، زادوا فى الدالة عليهم واضطروهم الى قبول مطالبهم ، فعظمت قوة الارادة الشعبية عند أولئك الذين كانوا عبيدا بمقتضى الحكومة ، وانتهى بهم الأمر أن قيدوا الأمراء والملوك معا .. ولم يكن ذلك فى يوم أو عام ، ولكنه كان فى عدة قرون كما هو معروف عند أهل المعرفة والتاريخ

نعم كانت الحكومة فى مصر على نوع تخـالف به جميـع الحكومات الشرقية، وكانت البلاد موزعة بين أمراء كل منهم يستغل قسما منها ويتصرف فيه كما يهوى ، وكان كل يطلب من القوة ما يسمح له بمد يده الى ما فى يد الآخر أو يدفع به صولته ، فالخصام كان دأبهم ، والحرب كانت أهم عملهم . لذلك كان كل منهم يستكثر من المماليك ما استطاع ليعد منهم جنده ، ولكن كانت تعوزه مئونتهم اذا كثروا ، فاضـطروا الى اتخاذ أعوان من أهالى البلاد ، فوجدوا من العرب أحزابا كما وجـدوا منهم خصوما . ثم رجعوا الى سكان القرى فوجدوا فيهم ما يحتاجون اليه ، فاتخذوا بيوتا منها أنصارا لهم عند الحاجة ، وعرف هؤلاء حاجة الأمراء اليهم فارتفعوا فى أعينهم ، وصار لهم من الأمر مثل ما لهم أو ما يقرب من ذلك

لهذا كنت ترى فى البلاد المصرية بيوتا كبيرة لها رؤساء يعظم نفوذهم ويعلو جاههم .. ذلك كان يقضى على كل أمير من أولئـك الأمراء أن يصرف زمنه فى التـدبير ، واستجلاب النصير ، واعداد ما يستطيع فى قوة لحفظ ما فى يده والتمكن من اخضاع غيره . وكان أنصـاره من الأهالى يجارونه فى ذلك خوفا من تعدى أعوان خصمه عليهم ، فوقعت

القسمة بين الأهالى ، ولا تزال الاقسام معروفة الى اليوم . وهذا يحدث بطبعه فى النفوس شمما ، وفى العزائم قوة ، ويكسب القوى البدنية والمعنوية حياة حقيقية مهما احتقرت نوعها . فكانت العناصر جميعها فى استعداد لأن يتكون منها جسم حى واحد يحفظ كونه ويعرف العالم بمكانته

القوى الحيوية الكامنة

جاء الجيش الفرنسى والبلاد فى هذه الحالة .. دخل البلاد بسهولة لم يكن ينتظرها . احتل عاصمتها واستقر له السلطان فيها . لم تكن الا أيام قلائل حتى ظهر فيه القلق ، وعظمت حوله القلاقل .. وأخذت القوى الحيوية الكامنة فى البلاد تظهر ، فكثرت الفتن ، ولم تنقطع الحروب والاعتداءات ولم يهدأ لرؤساء العساكر بال . يدلل على ذلك شكوى نابليون نفسه فى تقاريره التى كان يرسلها الى حكومة الجمهورية من اصطياد العربان لعساكره من كل طريق ، وسلبهم أرواحهم بكل سبيل . واضطر نابليون أن يسير فى حكومة البلاد بمشورة أهلها ، وانتخب من اعيانها من يشركه فى الرأى لتدبيرها طوعا لحكم الطبيعة التى وجدها

ظهور محمد على

قتل بعض زعماء الجيش الفرنسى ، واضطربت عليه البلاد ، وجاء الجيش العثمانى وعاونه الجيش الانجليزى ، وخرجت عساكر نابليون من مصر ، ولا أطيل الكلام فقد ظهر محمد على بالوسائل التى هيأها له القدر ..

ما الذى كانت تنتظره البلاد من نوع حكومتها ؟.. كانت تنتظر أن يشرق نور مدنية يضىء لرؤساء الأحزاب طرقهم فى سيرهم لبلوغ آمالهم ، وقد كان ذلك يكون لو أمهلهم الزمان حتى يعرف كل منهم ما بلغ به غيره الغاية التى كان يقصدها فى بلاد غير بلاده . أو كانت البلاد تنتظر

أن يأتى أمير عالم بصير فيضم تلك العناصر الحيــة بعضها الى بعض ، ويؤلف منها أمة تحكمها حكومة منها ، ويأخذ فى تقوية مصباح العلم بينها حتى ترتقى بحكم التدريج الطبيعى ، وتبلغ ما أعدته لها تلك الحياة الأولى

ماذا صنع محمد على ؟

ما الذى صنع محمد على ؟ لم يستطع أن يحيى ، ولكن استطاع أن يميت . كان معظم قوة الجيش معه ، وكان صاحب حيلة بمقتضى الفطرة .. فأخذ يستعين بالجيش ، وبمن يستميله من الاحزاب ، على اعدام كل رأس من خصومه ، ثم يعود بقوة الجيش وبحزب آخر على من كان معه أولا، وأعانه على الخصم الزائل ، فيمحقه .. وهكذا ، حتى اذا سحقت الاحزاب القوية ، وجه عنايته الى رؤساء البيوت الرفيعة ، فلم يدع منها رأســا يستتر فيه ضمير (أنا) واتخذ من المحافظة على الأمن سبيلا لجمع السلاح من الأهلين ، وتكرر ذلك منه مرارا حتى فسد بأس الأهالى ، وزالت ملكة الشجاعة منهم ، وأجهز على ما بقى فى البلاد من حيــاة فى أنفس بعض أفرادها ، فلم يبق فى البلاد رأسا يعرف نفسه حتى خلعه من بدنه أو نفاه مع بقية بلده الى السودان فهلك فيه

أخذ يرفع الأسافل ويعليهم فى البلاد والقرى ، كأنه كان يحن لشبه فيه ورثة عن أصله الكريم حتى انحط الكرام وساد اللئام ، ولم يبق فى البلاد الا آلات له يستعملها فى جباية الأموال وجمع العساكر بأية طريقة ، وعلى أى وجه .. فمحق بذلك جميع عناصر الحياة الطيبة من رأى وعزيمة واستقلال نفسى ليصير البلاد المصرية جميعها اقطاعا واحدا له ولأولاده ، على أثر اقطاعات كثيرة كانت لأمراء عدة

ماذا صنع بعــد ذلك .. اشرأبت نفسه لأن يكون ملــكا غير تابع للسلطان العثمانى .. فجعل من العدة لذلك أن يستعين بالأجانب من الأوربيين ، فأوسع لهم فى المجاملة وزاد لهم فى الامتياز خارجا عن حدود

المعاهدات المنعقدة بينهم وبين الدولة العثمانية ، حتى صار كل صعلوك منهم — لم يكن يملك قوت يومه — ملكا من الملوك فى بلادنا ، يفعل ما يشاء ، ولا يسأل عما يفعل . وصغرت نفوس الأهالى بين أيدى الأجانب بقوة الحاكم وتمتع الأجنبى بحقوق الوطنى التى حرم منها ، وانقلب الوطنى غريبا فى داره ، غير مطمئن فى قراره ، فاجتمع على سلطان البلاد المصرية ذلان :

١ — ذل ضربته الحكومة الاستبدادية المطلقة

٢ — وذل سامهم الاجنبى اياه الى ما يريده منهم غير واقف عند حد أو مردود الى شريعة

قالوا : انه أطلع نجم العلم فى سماء البلاد .. نعم عنى بالطب لأجل الجيش ، والكشف على المجنى عليهم فى بعض الأحيان عندما يراد ايقاع الظلم بمتهم . وعنى بالهندسة لأجل الرى حتى يدبر مياه النيل بعض التدبير ، ليستغل اقطاعه الكبير ..!

هل فكر يوما فى اصلاح اللغة : عربية أو تركية أو أرنئودية ؟.. هل فكر فى بناء التربية على قاعدة من الدين أو الأدب ؟.. هل خطر فى باله أن يجعل للأهالى رأيا فى الحكومة فى عاصمة البلاد أو أمهات الأقاليم ؟ هل توجهت نفسه لوضع حكومة قانونية منظمة يقام بها الشرع ويستقر العدل ؟

لم يكن شىء من ذلك ، بل كان رجال الحكومة اما من الارنئود أو الجراكسة أو الأرمن المورالية ، وما أشبه هذه الأوشاب — وهم الذين يسميهم بعض الأحداث من أنصاره اليوم دخلاء — وكانوا يحكمون بما يهوون لايرجعون الى شريعة ولا قانون ، وانما يبتغون ، مرضاة الأمير ، صاحب الاقطاع الكبير

أين البيوت المصرية وأين الحرية ؟

أين البيوت المصرية التى أقيمت فى عهده على قواعد التربية الحسنة ؟ أين البيوت المصرية التى كانت لها القدم السابقة فى ادارة حكومة ، أو

سياستها ، أو سياسة جندها مع كثرة ما كان فى مصر من البيوت الرفيعة العماد ، الثابتة الأوتاد ؟..

أرسل جماعة من طلاب العلم الى أوربا ليتعلموا فيها .. فهل أطلق لهم الحرية أن يبثوا فى البلاد ما استفادوا ؟..كلا.. ولكنه اتخذهم آلات تصنع له ما يريد ، وليس لها ارادة فيما تصنع .. وظهر بعض الأطباء الممتازين ، وهم قليل . وظهر بعض المهندسين الماهرين ، وهم ليسوا بكثير ، والسبب فى ذلك ، أن محمد على ومن معه ، لم يكن فيهم طبيب ولا مهندس .. فاحتاجوا الى بعض المصريين ، ولم يكن أحد من الأعوان مسلطا على المهندس عند رسم ما يلزم له من الأعمال ولا على الطبيب عند تركيب أجزاء العلاج .. فظهر أثر استقلال الارادة فى الصناعة عند أولئك النفر القليل من النابغين ، وكان ذلك مما لا تخشى عاقبته على المستبدين !

اين مدارس الفنون الحربية ؟

هل كانت له مدرسة لتعليم الفنون الحربية ؟

أين هى ؟.. وأين الذين نبغوا من طلابها ؟.. فان وجد أحد نابغ ، فهل هو من المصريين ؟.. عدوا ان شئتم أحياء أو أمواتا !..

ترجمت كتب كثيرة فى فنون شتى من التاريخ والفلسفة والأدب ، ولكن هذه الكتب أودعت فى المخازن من يوم طبعت ، وأغلقت عليها الأبواب الى أواخر عهد اسماعيل باشا .. فأرادت الحكومة تفريغ المخازن منها أو تخفيف ثقلها عنها ، فنشرتها بين الناس فتناول منها من تناول . وهذا يدلنا على أنها ترجمت برغبة بعض الرؤساء من الأوربيين الذين أرادوا نشر آدابهم فى البلاد ، لكنهم لم ينجحوا لأن حكومة محمد على لم توجد فى البلاد قراء ولا منتفعين بتلك الكتب والفنون ..!

كانوا يتخطفون تلامذة المدارس من الطرق وافناء القرى (١) كما

(١) الافناء : الناس المجهولون

يتخطفون عساكر الجيش .. فهل هذا مما يحبب القوم فى العلم ، ويرغبهم فى ارسال أولادهم الى المدارس ؟.. لا .. بل كان يخوفهم من المدرسة ، كما كان يخيفهم من الجيش ..

اين الزراعة والصناعة

حمل الأهالى على الزراعة ، ولكن ليأخذ الغلات .. ولذلك كانوا يهربون من امتلاك الأطيان كما يهرب غيرهم من الهواء الأصفر ، والموت الأحمر .. وقوانين الحكومة لذلك العهد تشهد بذلك

يقولون انه أنشأ المعامل والمصانع ، ولكن هل حبب الى المصريين العمل والصنعة حتى يستبقوا تلك المعامل من أنفسهم ؟.. وهل أوجد أساتذة يحفظون علوم الصنعة وينشرونها فى البلاد ؟..

أين هم ؟.. ومن كانوا ؟.. وأين آثارهم ؟.. لا .. بل بغض الى المصريين العمل والصنعة بتسخيرهم فى العمل والاستبداد بثمرته ، فكانوا يتربصون يوما لا يعاقبون فيه على هجر المعمل والمصنع لينصرفوا عنه ساخطين عليه ، لاعنين الساعة التى جاءت بهم اليه

الجيش والاسطول

يقولون انه أنشأ جيشا كبيرا فتح به الممالك ، ودوخ به الملوك . وأنشأ أسطولا ضخما تثقل به ظهور البحار ، وتفخر به مصر على سائر الأمصار .. فهل علم المصريين حب التجنيد ، وأنشأ فيهم الرغبة فى الفتح والغلب ، وحبب اليهم الخدمة فى الجندية وعلمهم الافتخار بها ؟..

لا .. بل علمهم الهرب منها ، وعلم آباء الشبان وأمهاتهم أن ينوحوا عليهم معتقدين انهم يساقون الى الموت .. بعد أن كانوا ينتظمون فى أحزاب الأمراء ويحاربون لايبالون بالموت أيام حكم المماليك ، وكأن من ينتظم فى الجندية على عهد محرر مصر لايخرج منها الا بالموت !..

هل شعر مصرى بعظمة اسطوله أو بقوة جيشه ، وهل خطر ببال أحد

منهم أن يقول هذا جيشى وأسطولى ، أو جيش بلدى أو أسطوله ؟..

كلا .. لم يكن شيء من ذلك ، فقد كان المصرى يعد ذلك الجيش وتلك القوة عونا لظالمه ، فهى قوة خصمه .. كذلك كان يعدها كل عثمانى فى مصر أو فى غير مصر !..

ليقل لنا أنصـار الاستبـداد ، كم كان فى الجيش من المصريين الذين بلغوا فى رتب الجندية الى رتبة البكباشى على الأقل ؟.. فما أثر ذلك فى حيـاة مصر والمصريين الا أسوأ الأثر .. أثر كله شر فى شر ، لذلك لم تلبث تلك القوة أن تهدمت واندثرت

ظهر ذلك الأثر العظيم حينما جاء الانجليز لاخماد ثورة عرابى .. دخل الانجليز مصر بأسهل ما يدخل به دامر (١) على قوم ، ثم استقروا ولم توجد فى البلاد قوة تثبت لهم أن فى البلاد من يحامى عن استقلالها ، وهو ضد ما رأيناه عند دخول الفرنسيين الى مصر .. وبهذا رأينا الفرق بين الحياة الأولى والموت الأخير

الدين والاوقاف

من جدران سلطانه دعامة من الدين .. أى دين كان دعامة لسلطان محمـد
من جدران سلطانه دعامة من الدين .. أى دين كان دعامة لسلطان محمد
على ؟.. دين التحصيل (٢) دين الكرباج .. دين من لا دين له الا ما يهواه ويريده . والا فليقل لنا أحد من النـاس أى عمل من أعماله ظهرت فيه رائحة للدين الاسلامى الجليل ؟..

لا يذكرون الا مسألة الوهابية ، وأهل الدين يعلمون أن الاغارة فيها كانت على الدين لا للدين .. نعم ان الوهابية غلوا فى بعض المسـائل غلوا أنكره عليهم سائر المسلمين .. وما كان محمد على يفهم هذا ، ولا سفك دماءهم لارجاعهم الى الاعتدال ، وانما كانت مسألة محضة تبعثها

(١) الدامر : هو الذى يدخل على القوم بلااستئذان
(٢) يعنى تحصيل الضرائب بالقوة والظلم

جراءة محمد على ، على سلطـانه العثمانى ، وكان معه ما كان مما هو معروف

نعم أخذ ما كان للمساجد من الرزق ، وأبدلها بشىء من النقد يسمى «فائض رزنامة» لايساوى جزءا من الالف من ايرادها . وأخذ منأوقاف الجامع الازهر ما لو بقى له اليوم لكانت غلته لا تقل عن نصف مليون جنيه فى السنة ، وقرر له بدل ذلك ما يساوى نحو أربعة آلاف جنيه فى السنة

وقصـارى أمره فى الدين ، انه كان يستميل بعض العلماء بالخلع أو اجلاسـهم على الموائد لينفى من يريد منهم اذا اقتضت الحـال ذلك ، وأفاضل العلماء كانوا عليه فى سخط .. ماتوا عليه

ولا أظن أن أحدا يرتاب ــ بعد عرض تاريخ محمد على ــ على بصيرته ان هذا الرجل كان تاجرا زارعا ، وجنديا باسلا ، ومستبدا ماهرا ، لكنه كان لمصر قاهرا ، ولحياتها الحقيقية معدما .. وكل ما نراه الآن فيها مما يسمى حياة ، فهو من أثر غيره

الخديو اسماعيل

كان المصريون قبل سنة ١٢٩٣ هـ (١) يرون شئونهم العامة والخاصة ملكا لحاكمهم الأعلى ، ومن ينوب عنه فى تدبير أمورهم .. يتصرف فيها حسب ارادته . وكانت سعادتهم وشقاؤهم موكولين الى أمانته وعدله ، أو خيانته وظلمه ، ولا يرى أحد من حقه أن يرى رأيا فى ادارة بلاده ، أو فكرة يتقدم بها فى عمل من الاعمال يرى فيها صالحا لأمته ولا علاقة بينهم وبين الحكومة سوى أنهم مملوكون لها ، مصرفون فيما تكلفهم به الحكومة ، وتفرضه عليهم . وكانوا بعيدين غاية البعد عن معرفة ما عليه الأمم الأخرى ، سواء كانت شرقية أم غربية

(١) سنة ١٢٩٣ الهجرية توافق سنة ١٨٧٦الميلادية التى وقعت فيها الحرب العثمانيـــة وكان لها مع يقظةجمال الدين اثرها كما سياتىبعد

ومع سفر البعض منهم الى البلاد الأوربية ، وما جاورهم من البلاد الاسلامية ، أيام محمد على باشا الكبير ، وابراهيم باشا ، لم يشعر الأهالى بشىء من ثمرات تلك الاسفار ، ولا فوائد تلك المعارف التى حصلوا عليها واكتسبوها

وقد أنشأ الخديو اسماعيل مجلس الشورى فى مصر سنة ١٢٨٣ الهجرية ، ومع ان الغاية من انشائه أن يكون للأهالى رأى فى شئون بلادهم يرجع اليه الحاكم ، فان أحدا منهم ولا من أعضاء هذا المجلس نفسه كان له ذلك الحق ، لأن الخديو اسماعيل قيده فى النظام وفى العمل .. أما فى النظام ، فلأنه قد نص فيه على أن نظر المجلس منحصر فيما تراه الحكومة من اختصاصه ، وما يعن لها أن ترسله اليه للمداولة فيه ..

وأما فى العمل ، فلأن الخديو كان يرسل عند المداولة من يخبر الأعضاء بارادة جنابه السامى ، فيقررون ما يريد بعد مداولة صورية .. فكان المصريون فى ذلك الحين يشعرون بأن الارادة المطلقة هى التى كانت ولا تزال تصرفهم فى آرائهم !..

وهل كان فى استطاعة أحد أن يعمل على خلاف ما يأمر به ؟..

هل كان يجوز لشخص أن يميل بفكره عن الطريق التى رسمت له ، أو عن الوجهة التى يتوجه اليها الحاكم ، لو أن الفكر السليم حدثه بأن هناك وجهة خيرا من تلك الوجهة ؟ !

هل كان يمكنه أن ينطق بما حدثه به فكره ؟

كلا .. انه كان بجانب كل لفظ نفى عن الوطن .. أو ازهاق للروح .. أو تجريد من المال !..

وبينما الناس على هذه الحال .. لا كاتب ينبههم ، ولا خاطب يوقظهم ، اذ عرض أمر قلما يلتفت اليه ، أو تحوم الأفكار حواليه ، وان كان مما يعرض فى كل مكان ، وجرت به السنة الالهية فى كل زمان

نهضة جمال الدين

جرت سنة الله فى خلقه ان عظائم الأمور تتولد من صغارها ، كما ان ضخام الأشجار تنبسق من بذورها ..

جاء الى هذه الديار فى سنة ١٢٨٨ هـ [1] رجل بصير فى الدين ، عارف بأحوال الأمم ، واسع الاطلاع ، جم المعارف ، جرىء القلب واللسان . وهو المعروف بالسيد جمال الدين الافغانى ، اختار الاقامة فى مصر ، فتعرف اليه فى بادىء الأمر طائفة من طلبة العلم ، ثم اختلف اليه كثير من الموظفين والأعيان . ثم انتشر عنه ما تخالفت آراء الناس فيه من أفكار وعقائد ، فكان ذلك داعيا الى رغبة الناس فى الاجتماع به لتعرف ماعنده

وكانت مدرسته بيته .. فاشتغل بتدريس بعض العلوم العقلية ، وكان يحضر دروسه كثير من طلبة العلم ، ويتردد على مجالسه كثير من العلماء وغيرهم . وهو فى جميع أوقات اجتماعه بالناس ، لايسأم من الحديث فيما ينير العقل ، ويطهر العقيدة ، أو يذهب بالنفس الى معانى الأمور ، أو يلفت الفكر الى النظر فى الشئون العامة مما يمس مصلحة البلاد وسكانها. وكان طلبة العلم ينتقلون بما يكتبونه من تلك المعارف الى بلادهم أيام الاجازة ، وكان الزائرون يذهبون بما ينالونه الى أحيائهم ينشرونه فى الناس .. فاستيقظت مشاعر ، وانتبهت عقول ، وخف حجاب الغفلة فى أطراف متعددة من البلاد خصوصا القاهرة

كل ذلك والحاكم القوى فى علو مكانه ، أرفع من أن يناله هذا الشعاع فى ضعف شأنه .. ولا زال هذا الشعاع يقوى بالتدريج البطىء ، وينتشر فى الانحاء على غير نظـام ، الى أن نشبت الحرب بين الدولة العثمانية

---

(١) نزل جمال الدين الافغانى مصر فى أول المحرم سنة ١٢٨٨ هـ الموافق ٢٢ مارس سنة ١٨٧١ م وقد ولد فى كابل سنة ١٢٥٤هـ الموافق سنة ١٨٣٨ م وهو أكبر بأربع سـنوات من الشيخ محمد عبده الذى ولد فى سنة ١٢٥٨ هـ الموافق ١٨٤٢ م

ودولة الروسيا فى سنة ١٢٩٣ هـ (١)

وجد الناس من أنفسهم لذة فى الاطلاع على ما يكون من شأن الدولة العثمانية صاحبة السيادة عليهم من دولة الروسيا ، فتطلعوا الى ما يرد من أخبار الحرب

وكثرة الاجانب فى هـذه البلاد سهلت ورود الجرائد الاوربية الى طلابها من الأوربيين ، ومخالطتهم للعـامة والخاصـة مهـدت الطريق الى العلم بما فيها ، فزاد تشوق الناس الى الوقوف علىحوادث تلك الحرب ، وسرى هذا الشعور الى بعض الجرائد العربيـة التى كانت لا تزال الى هذا العهد مقصورة على ما لايهم ، فانطلقت فى ايراد الحوادث ونشرها ، وظهر فيها الميل الى اطراء ما كانت تأتى به العساكر الروسية ، وازدراء ما كان ينسب الى الجنود العثمانية .. فوجد فى النـاس الناقم على تلك الجرائد والناصر لها ، وحدث بين العامة نوع من الجدال لم يكن معروفا من قبل .. ثم استحدثت جرائد كثيرة لمباراة ما سبقها فى نشر الأخبار ، ومناوأتها فى المشرب ، واندفعت الرغبات الى الاشتراك فيهـا الى حد لا يمكن منعه ، وقضى سلطان الوقت على سلطان الارادة القاهرة ..!

لم يكن ما ينشر فى الجـرائد محصـورا فى حوادث الحرب ، بل اجترأ الكثير منها على نشر ما عليه سائر الأمم فى سيرتهم السياسية والاجتماعية وزادوا على ذلك نشر ما كان قد بدأ فى الحكومة المصرية من سـوء الأحوال المالية ، وكثر المتحدثون بما يكثر فى تلك الجرائد

وأخذ الشيخ جمال الدين فى حمل من يحضر مجلسـه من أهل العلم وأرباب الأقلام على التحرير ، وانشـاء الفصول الأدبية والعلميـة فى موضوعات مختلفة ، لا تخرج جامعتها عن اصـلاح الافكار ، وتهذيب الاخلاق .. فتسابق الى ذلك الكتاب ، وتبارت الأقلام ، وأخذت الحرية الفكرية تظهر فى الجرائد الى درجة يظن الناظر فيها انه فى عالم خيال ، أو

---

(١) هذه السنة الهجرية الموافقة لسـنة١٨٧٦ الميلادية وهى التى اشار اليها الشيخ محمد عبده فيما سبق

أرض غير هذه الارض . ومن يطلع على اعداد جريدة مصر ، وجريدة التجارة ، وجريدة مرآة الشرق ، والأهرام ، وصداها يرى حقيقة ماذكرنا

حيرة اسماعيل

وقد انطلقت الألسنة بانتقاد الارتباك الشديد فى المالية المصرية الذى أفضى الى تأليف اللجنة المالية المختلطة ، وتعيين ناظر «وزير» (١) انجليزى للمالية وناظر « وزير » فرنسى للأشغال العمومية . والذى أفضى كذلك الى صدور أحكام المحكمة المختلطة ضد الخديو اسماعيل وحكومته . وكانت الآراء السياسية التى يبثها جمال الدين الافغانى فى تلامذته ومريديه ، وما يبينه لهم وللناس من أنواع الحكومات الدستورية والاستبدادية ، تؤثر فيهم وفى غيرهم من الطبقات ولكن الشعور بحقوق الأمة فى أمر حكم نفسها ، ومراقبة أعمال حكامها لم يسر فى هذه النابتة من المصريين الا وقد صحبه رؤية التصرف الاجنبى فى حكومتهم ، والتحكم الاوربى فى شئون البلاد .. فتعلقت آمال البصراء من المواطنين باصلاح عظيم ، غير أن سوء حال الحكومة الوطنية وفساد رجالها والخوف من السلطة الاجنبية ، كل ذلك كان عقبة فى طريق الاصلاح

وقد ضاق الخديو اسماعيل بالوزيرين الأوربيين ، وأخذ يسعى للخلاص منهما وكثرت الاشاعات عن فساد تصرفهما ، وسوء مقاصدهما بايعاز من الخديو — كما كان يقال — وفى أثناء ذلك دعا مجلس شورى النواب الى الاجتماع ، فوفد أعضاؤه الى القاهرة .. وفى أنفسهم ذلك الشعور الشديد بسوء الأحوال . فالتأم المجلس فى ٩ المحرم سنة ١٢٩٦هـ (٢ يناير سنة ١٨٧٨ م) فى موج من التشويش ، وشدة الاضطراب . واتفق ان الحكومة لم تقدم اليه من المسائل التى نظرت فيها الا مالا قيمة له عندها .. فكثر فى المجلس انتقاد الحكومة . ولما أمرت باقفال أبواب

---

(١) هما السير ريفرس ولسون للمالية والمسيو بلنيير للاشغال

المجلس ، هاج النواب ، وسلك بعضهم مسلك الشدة فى الجواب عن ذلك الأمر ، وحاولوا التوقف عن الانصراف ، حتى يعلموا من أحوال الحكومة ما يخبرون به منتخبيهم . وكانت هذه أول مرة ظهر فيها لبعض النواب رأى يخالف رأى الحكومة ، ولكن الخديو فى ذلك الحين كان يشد عضد أعضاء المجلس فى المعارضة ..!

وقد قلق ضباط العسكرية فى ذلك الوقت من تأخير رواتبهم ، وأحسوا بانحراف الخديو عن رئيس حكومته نوبار باشا وزملائه النظار (الوزراء) فثاروا عليه (١) ، وهاجموه هو ووزير المالية فى الطريق ، وقبض أحدهم عليه من شاربيه وأهانوا بعض الوزراء ، لولا أن جاء الخديو بنفسه ، وهدأ ثورتهم وصرفهم . وانما كانت ثورتهم بتحريك منه (٢) توسلا منه الى اسقاط وزارة نوبار باشا ، فتم له ذلك . ولكن لم يتم اسقاط الوزيرين الأوربيين ، فأدخلا فى الوزارة الجديدة التى تألفت برياسة محمد توفيق باشا ولى العهد . وقد ازداد تضييقهما على الخديو فى

---

(١) خلاصة هذه الثورة من كتاب « عصر اسماعيل » للاستاذ عبد الرحمن الرافعى ، ان وزارة نوبار باشا أهملت رواتب الضباط ولم تعاملهم كموظفى السلك المدنى . وترجع هذه التفرقة الى ان الوزارة النوبارية ولجنة التحقيق كانتا لا تشعران بأى عطف نحو الجيش ، وترهبان جانبه ، وتريان فى القوة العسكرية أول عقبة دون التدخل الاجنبى فى شئون البلاد ، ويدخل فى ذلك ان الوزارة عمدت الى انقاص عدد الجيش بحجة التوفير لأداء اقساط الديون فقررت الوزارة احالة ٢٥٠٠ ضابط الى الاستيداع ، وكان الضباط جميعا قد تأخرت رواتبهم عشرين شهرا ، فاجتمعوا فى يوم الثلاثاء ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩ ، وكانوا ستمائة ضابط برئاسة البكباشى لطيف سليم (لطيف باشا) أحد كبار اساتذة المدرسة الحربية وتشد ، فغادروا ثكناتهم وخرجوا بجمعهم الحاشد ، يتبعهم لفيف من طلبة الحربية ، ونحو الفى جندى قاصدين وزارة المالية ، واشترك معهم بعض نواب مجلس الشورى ، فلما اقتربوا من وزارة الخارجية ، لمحوا نوبار باشا خارجا منها راكبا عربته ، فأحاطوا به من كل مكان ، فامتعض نوبار باشا وأمر سائقه بالمسير فما كاد يفعل حتى هجم الضباط على نوبار باشا ، وطرحوه ارضا واعتدوا عليه بالضرب . وفى ذلك الحين اقبل وزير المالية السير ريفرس ولسون قادما من عند الخديو ، فشاهد المظاهرة ، وتبين نوبار باشا وهو فى ايدى الثوار ، فاقبل لنجدته وضرب بعضهم بعصاه ، فهجموا عليه ايضا ، وشدوه من لحيته وضربوه وادخلوه هو ونوبار باشا الى سراى الوزارة ، واحتلوا غرفها وقاعاتها وكان بها رياض باشا فحبسوه مع زميليه فى احدى الغرف . وعلم اسماعيل باشا بذلك ، فبادر بركوب عربته يصحبه قنصل انجلترا المستر فيفيان ، وذهب الى الثوار ، فطيب خاطرهم ، وطلب منهم الاعتماد عليه فى اداء رواتبهم . فأخلوا سبيل الوزراء المحبوسين . وانتهت المظاهرة

(٢) يرى الاستاذ عبد الرحمن الرافعى ان الخديو اسماعيل ليس له يد فى ثورة الضباط ، وانها كانت ثورة طبيعية باعتراف اللورد كرومر أحد شهود الميان فى كتابه « مصر الحديثة »

التصرف ، فتوسل الى عزلهما بوسيلة أخرى ، وهى طلب أعيان البلاد تنحيتهما عن الحكم

لذلك اجتمع الأعيان فى دار السيد البكرى (١) ، ووضعوا اللائحة الوطنية المشهور أمرها التى تعهدوا فيها بوفاء ديون أوربا ، وضماناتهم لها . وقد أحدث ما فعله اسماعيل من الالتجاء الى أعيان الأمة شعورا بقوة لم يعرفوها من قبل ، فقد أيقنوا انه الحاكم القوى السلطان ، قد صار فى حاجة اليهم ، ولا قوام لأمره الا بالاعتماد عليهم .. فزاد ذلك فيهم ولوعا بما كانوا يميلون اليه من وجوب اشتراكهم فى أعمال الحكومة تفاديا للمضار التى نشأت عن استقلال الحاكم بالرأى وانفراده بالسلطة..

عزل اسماعيل

« كان السيد محمد رشيد رضا قد لخص كتاب الثورة العرابية للشيخ محمد عبده الذى جمعناه الى هذه المذكرات لأنها تكمله ويكملها ، كما أشرنا الى ذلك فى المقدمة . ولما كان نشر ما كتبه الشيخ محمد عبده فى سيرة الخديو اسماعيل يطيل من صفحات هذه المذكرات ، وخاصة انها لا تخرج عما رواه المؤرخون من الاضطراب والمساوىء والفساد ، فقد آثرت أن أنقل ما لخصه السيد رشيد .. قال :

« ثم بين — أى الشيخ محمد عبده — سيرة اسماعيل بعد ذلك فى العودة الى التصرف بأموال الحكومة ، وتبذيره ، وسوء الحالة العامة ، وذهاب رياض باشا ، ونوبار باشا الى أوربا بقصد الاقامة فيها . وسعى الثانى الى اقناع فرنسا وانجلترا بالسعى الى خلع الخديو اسماعيل ، ثم ارسال فرنسا مسيو تريكو مندوبا خاصا (فوق العادة) ليتحد مع وكيل

---

(١) هو السيد على البكرى نقيب الاشراف، وقد اجتمع الاعيان والاحرار الوطنيون فى داره ، واتفقوا على تأسيس جمعية وطنية ، ثم اجتمعوا بدار اسماعيل راغب باشا رئيس مجلس شورى القوانين ، وعقدوا هذه الجمعية ، ووضعوا وثيقة وطنية ، تتضمن تسوية للديون يعارضون بها مشروع ريفرس ويلسون ، ويجعل البلاد قادرة بضماناتهم على وفاء ديونها، وطالبوا فى هذه الوثيقة أو اللائحة — كما كانت تدعى — تأليف وزارة وطنية ، مستقلة واقصاء الوزيرين الاوربيين عنها ، وتقرير نظام دستورى للبلاد ، قوامه جعل الوزارة مسئولة أمام مجلس النواب

انجلترا فى مصر ، ويتعاونا فى مطالبة الخديو بالتنازل عن الخديوية لولى عهده ، واستشارة الخديو لحاشيته فى الأمر ، واشارة أعلمهم بالسياسة عليه ألا يتنازل والجيش حاضر يؤيده ــ كما بين اشــارة من كان يقال انه أعلمهم بالسياسة بألا يتنازل .. » قال الأستاذ الامام :

وكان جمهور العقلاء يرون أن رأى ذلك العالم بالسياسة من حاشية الخديو الذى أشار اليه بعدم التنازل كان عين الصواب ، ولو أن الخديو ظهر لمندوبى الدول بجلد الأسد الذى كان يلبسه للمصريين ، وعلموا (أى مندوبى الدول) أن دون التنازل حمل السلاح لأمكنه أن يرضيهما بوسيلة أخرى مع بقائه على العرش

وكان السيد جمال الدين قد أسس حزبا فى مصر (١) باسم « الحزب الوطنى الحر » وكان من أغراضه السعى لتنازل الخديو اسماعيل ، وكان محمد توفيق على صلة بهذا الحزب .. وكان الناس كافة فى شوق الى رؤية اسماعيل بعيدا عن كرسى الخديوية ، وكان طلاب الحرية من الأهالى يترددون على رئيس الوزارة المصرية (شريف باشا) يظهرون له الميل الى ولى العهد توفيق باشا . وكانت بينه وبين السيد جمال الدين محادثات فى هذا الأمر ، فسعى هو والكثيرون من الأعيان عند محمد شريف باشا حتى يقنع الخديو الأسبق بوجوب التنازل عن الخديوية ..

وقد وافق شريف باشا ، فأشار على الخديو بالتنازل ، وبأن رفض التنازل لا يفيد وخاصة ان الدولتين (فرنسا وانجلترا) سوف تنالان ما تريدان ان عاجلا أو آجلا . والفكر فى الحرب رأى طائش ، فان النــاس جميعا فى انحراف عنه ، فاذا حدثت حرب خذله الجيش فى أول موقعة ، وكانت عاقبة ذلك أشنع ، وان الصواب أن يحال الأمر الى السلطــان (عبد الحميد) . ثم ذهب وفد من المصريين ، ومعهم السيد جمال الدين

---

(١) من الخطب السياسية التى كان يخطبها السيد جمال الدين الافغانى قبيل خلع الخديو اسماعيل قوله فى خطبة بالاسكندرية جاء فيها: « أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الارض لتستنبت منها ما تسد به الرمق بأود العيال، فلماذا لا تشق قلب ظالمك ؟. لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة أتعابك » . وكان لمثل هذه الاقوال يقظة وصدى فى النفوس

الافغانى الى وكيل دولة فرنسا (١) وأبانوا له أن فى مصر حزبا وطنيا ، يطلب تنازل الخديو ، وان الاصلاح لايتم الا على يد ولى العهد توفيق باشا (٢) ؟ !

وقد انتشر ذلك فى القاهرة ، وغيرها .. وتناقلته الجرائد ، وهى أول مرة عرف فيها اسم الحزب الوطنى الحر » (٣)

---

(١) يقصد مسيو تريكو ، ولم يذهب السيدجمال الدين ومن معه الى وكيل انجلترا ، لانه كان على عداء شديد مع انجلترا .. وهى تعرف شدة كراهيته لها ، وهى التى حاربته الى ان توفى

(٢) خلع الخديو اسماعيل باشا بارادةسلطانية ارسلها اليه بالتلغراف الصدر الاعظم فى ٢٦ يونية سنة ١٨٧٩ ، وتولى محمد شريف باشا رئيس الوزراء تقديمها اليه بسراى عابدين ، وجلس فى نفس اليوم توفيق باشا على كرسى الخديوية، وسافر اسماعيل الى المنفى بعد ثلاثة ايام أى فى ٣٠ يونية سنة ١٨٧٩

(٣) كان جمال الدين شديد الميل الى السياسة ، والى الحرية ومحاربة الاستعمار ، قوى الرغبة فى انقاذ البلاد الاسلامية من المستعمرين . وقد انتهز الفرصة لجمع الكلمة، فدخل الماسونية حتى صار من الرؤساء . ثم انشأ محفلا وطنيا ماسونيا للشرق بلغ اعضاؤه ثلثمائة ، وعظم امره حتى ان ولى العهد توفيق وقتئذ طلب الدخول فيه . ثم انشأ الحزب الوطنى الحر ، فسعت انجلترا الى الدس له عند الخديو توفيق حتى نفاه من مصر بعدما تولى الحكم كما سيأتى فى حادث نفيه

الفصل الثانى

عهد جديد

دخلت مصر فى عهد الخديو محمد توفيق فى طور جديد من الحياة فقد كان لها من ارشاد السيد جمال الدين الافغانى وتعاليمه وسعى الحزب الوطنى الذى ألفه فيها ما فتح اقفال القلوب والعقول لتدرك حالة حكومتها وما يجب أن تكون عليه ، وسيرة الأجانب فيها وما تخشى أن تنتهى اليه ، فقد تولى هذا الأمير ولاية أمة غير الأمة التى كان يتصرف والده فيها تصرف الراعى المالك بالمواشى ، ولكن هذا الأمير لم يكن شرها ولامسرفا ، بلكان فى أول عهده عفيفا رحيما فكان لطلاب الاصلاح فيه آمال كبيرة ، حال دون تحقيقها نوع آخر من الضعف فيه وسوء سيرة حاشيته فيما بعد

وقد كان أول عمله أن كتب الى محمد شريف باشا (١) فى اليوم الثانى من ولايته ، أمرا بتأليف الوزارة بعد قبول استعفائها .. صرح فيه برغبته فى تحقيق آمال الأمة فيه واخراجها من الحال السيئة التى هى فيه ، بالاقتصاد القانونى فى نفقات الحكومة ، والاستقامة فى الوظائف العامة ، واصلاح القضاء والادارة .. ثم كتب فى اليوم الخامس أمرا آخر الى مجلس النظار ، فصل فيه ما يحقق الآمال بجعل الحكومة شورى ونظارها

---

(١) هو الوزير الخطير الجامع بين العلم والسياسة الوطنية . ولد بالقاهرة سنة ١٨٢٣ الميلادية من عائلة عريقة الحسب والنسب . وكان والده قاضى قضاة مصر فى عهد محمد على، ثم صار قاضى قضاة الحجاز ، وقد دخل شريف وهو صغير المدرسة الحربية بالخانكاه ثم ارسل فى بعثة الى باريس ، كان من أعضائها الاميران محمد سعيد باشا واسماعيل (الخديو) وعلى باشا مبارك . وقد تخرج فى العلوم العسكرية وعاد برتبة يوزباشى أركان حرب . وبعد خدمته فى الجيش المصرى مدة عين ناظرا للخارجية ، ثم ناظرا للداخلية، ثم ناظرا للمعارف والحقانية ثم رئيسا للنظار فى عهد اسماعيل وتوفيق ، وتوفى سنة ١٨٨٧ م عن ٦٤ سنة

مسئولين ، وتوسيع نظام شورى القوانين ، واصلاح المحاكم والمجالس ، والسعى لتعميم التربية والتعليم وتوسيع دائرة الزراعة والتجارة ، ومنح الحريه للعاملين فى أعمالهم ، وصدر ذلك الأمر فى رجب سنة ١٢٩٦ الهجرية الموافقة شهر يونية سنة ١٨٧٩ الميلادية

وقد انعكس كل ذلك على فكر توفيق باشا من الحال الجديدة التى كانت عليها خاصة رعيته

وقد ذكر الامام هنا مشروع شريف باشا الخاص بوضع قانون أساسى لمجلس النواب ، يضمن لهم حرية القول والفكر وحق النظر فيما يحق لنواب الأمة درسه ومناقشته ، على حسب ما قرأه ورآه فى بلاد أوربا.. فأعجب بذلك أرباب الافكار الحرة وقالوا ان التصديق عليه يعد فاتحة عصر جديد لمصر والمصريين

ثم قال الامام :

وتظاهر الأجانب بالرضا عن الاصلاح المشروع فيه ، وأنشئت جمعية فى الاسكندرية باسم « مصر الفتاة » ولم يكن فيها مصرى حقيقى ، بل كان أكثر أعضائها من الشبان اليهود المنتمين الى الأجانب ، وقد رفعت هذه الجمعية لائحة الى الخديو فيها من مطالب الحرية ما يستحق الاعتبار ، وأنشأت بعد ذلك جريدة (مصر الفتاة) فكانت تنشر فصولا حادة الانتقاد وشديدة الموعظة . على حين كان أولئك الأجانب فى ظل الاستبداد يقرضون الفلاح المائة بمائتين فى بضعة أشهر وكانوا يتصرفون فى المصريين كتصرف حكومتهم بهم

لكن ما حظ الأجانب فى مصر من اطلاق الحرية للمصريين وتخويلهم الاصلاح المرغوب ؟.. لو صح شأن المصريين واستنارت عقولهم ، وكان لهم رأى فى ادارة بلادهم ، هل تزيد الضرائب ويضيق على الفلاح فى أدائها حتى يأخذ المائة بمائة فى بضعة أشهر وهو انما يأخذها من الأجنبى؟ ولو وضع نظام ثابت للحكومة المصرية يكفل للأهالى سعادتهم ، هل يمكن للأجانب أن يتمتعوا بالسلطة والنفوذ الذى يتمتعون به تحت

••

السلطة الاستبدادية ، وأن يكونوا حكاما فى اقتضاء ديونهم واستخدام المصريين فى مصالحهم ؟.. ماذا أصاب الأجانب فى عهد الاستبداد مما لايحبون ، حتى يطلبوا الخلاص منه ؟.. نعم .. قد يصح هذا اذا أمكن أن يكونوا ملائكة قديسين ، يؤثرون سعادة المصريين على سعادتهم ، ويزهدون فى المنافع الخاصة بهم اذا جلبها ضرر عام يصيب غيرهم ، وأن يكون ذلك الطلب مبدأ توبة عما أتوه من قبل

وسواء صحت هذه الأقوال أو لم تصح ، فالمحقق الذى لاريب فيه أن وكيل دولة فرنسا مسيو « تريكو » عندما أحس بمقاصد الخديو وميله الى مشايعة الاحساس العام، أخذ يسعى فى اقامة الموانع دون ذلك ، ودعا وكيل دولة انجلترا مستر « ريفرس ولسون » للاتفاق معه على اقناع الخديو بضرر هذه الأوضاع الجديدة فى الوقت الحاضر ـ وقت الارتباك فى المسائل المالية ـ وأن دخول النواب فى تصحيح الموازين ونحوها مما يعوق حل المشاكل الموقوفة ، لتشتت الآراء وافناء الوقت فى المداولات.. لو تم ذلك ، وبقاء هذه العقد فى الحكومة بدون حل سريع قد يؤدى الى الضرر بمسند الخديوية كما حصل من أيام

وقد ساعدهما فى ذلك بعض الوطنيين من حاشية الجناب الخديوى ، ولقرب حادثة الخديو السابق من الأذهان ، وظهور السبب فيها ، تأثر الخديو الجديد بهذه الأدلة ، ومال الى غير ما أظهر للعامة فى أول الأمر .. وصمم على رفض مشروع الاصلاح الجديد لو عرضه شريف باشا

وعندما عرض عليه رئيس النظار ما وضعوه فى مشروعهم عرضا غير رسمى ، ظهرت عليه علامات النفور منه .. غير انه لم يقطع بعدم قبوله الى أن جاء الفرمان (١) وتلى فى احتفال عظيم ، وذهب المندوب السلطانى الى الاسكندرية ليتوجه منها الى الاستانة يوم الأحد ١٩ شعبان سنة

---

(١) يقصد الفرمان السلطانى الذى أرسله السلطان عبد الحميد الى توفيق مع مندوبه على بك فؤاد باشكاتب المابين الهمايونى والذى تلى على الخديو بالقلعة فى ٤ أغسطس سنة ١٨٧٩ ، وكان يتضمن قيودا لحكم الخديو الجديد

١٢٩٦ هـ (الموافق ٧ آغسطس سنة ١٨٧٩ م) فبعد غروب ذلك اليوم دعا الخديو حضرات النظار فوفدوا عليه . وبعد قليل قدموا استعفاءهم ، فقبل وانصرفوا

والسبب الصحيح لاستعفائهم أن شريف باشا صمم على تنفيذ لائحة الاصلاح ، ورأى الخديو توفيق ان الاصلاح على هــذه الصورة سابق لوقته .. فلم يقبــل ما عرض عليه . فاستعفت النظارة وشكل الخــديو نظارة جديدة تحت رئاسته (١)

نفى جمال الدين

بذلت مساع كثيرة فى اخفاء حقيقة سبب الاستعفاء حتى لا تشعر به الأنفس الطامحة الى الاصلاح الجــديد .. لكن الحقيقة سطعت رغما من هذه المساعى ، وكثر القيل والقال فى ذلك . وكان وكلاء الدول أرباب النفوذ فى مصر ، يظنون أن محرك هذه الافكار وباعث الأنفس على طلب الحرية ووضع أصول للنظام ، انما هو السيد جمال الدين الافغانى .. فتقدموا الى الخديو باقامة الأدلة على خطر الرجل وأخافوه منه ، كما أخافوه من النظــام نفسه الذى اقترحه شريف باشا وكان التخلص من النظام باستعفاء الوزارة . أما التخلص من السيد جمال الدين . فكان بنفيه فى رمضان سنة ١٢٩٦ ، فأخذ فى الطريق آخر الليل ــ وهو ذاهب الى بيته هو وخادمه ــ وحجز فى الضبطية ، ولم يمكن من أخذ ثيابه

وبعد أن انتشر ضــياء النهار ، حمل فى عربة مقفلة الى محطة السكة الحديدية ، ومنها ذهب تحت المراقبة الشديدة الى السويس ، ومنها أنزل فى البحر ليسافر الى بمباى .. فقطع المسافة بقميص واحد على بدنه ، والوقت صيف والحرارة شديدة حتى تقرح جسده . ولم يكن معه من النقود أكثر من ثلاثة جنيهات عثمانية وبعض قروش من الفضة . وهــذا المبلغ أخذ منه فى السويس ، فنزل البحر ولم يكن معه شىء

(١) هذه الوزارة الغت فى ٢٤ اغســـطس سنة ١٨٧٩

ولما علم ذلك أحمد بك النقاوى ، وكان قنصل دولة ايران فى السويس، ذهب لتوديعه وعرض عليه مبلغا وافرا من المال ، فأبى أن يأخذ منها شيئا هذا ما رواه أحمد بك النقاوى ووافقه عليه السيد جمال الدين عندما سئل عن ذلك ، بعد عودته من الهند الى أوربا ..

وفى اليوم الثانى من سفر السيد جمال الدين ، ذهب بعض تلامذته الى بيته ، فوجدوا بعض أعوان الضبطية يعبثون فى كتبه ، فدهشوا ورجعوا. وكان عنده كتب كثيرة فى فنون شتى ، فاختـار منها أعوان الاصـلاح وحفظة الأمن ما اختاروا لأنفسهم ، وحشوا بالباقى بطون الصنـاديق ، وأرسلوه الى بندر « أبوشهر » من بلاد ايران .. ظنا منهم أن صـاحب الكتب ذهب الى ذلك الثغر ، وبقيت الكتب فى مخزن الجمـرك هـناك الى أن أكلها العث هنيئا مريئا ..!

أذكر هذه الحادثة لما كان لها من الأثر السيىء فى أفكار العامة ، فقد ذكرتهم بالأيام السالفة .. وأحيت ما كان قد مات من ذكرى حوادث المفتش وغيره ، وفجعت آمالهم بشدة هائلة وقسوة شـديدة نزلت بمن كان يقول له الخديو توفيق قبل الحادثة بأيام على مسمع من الحاضرين : « انك أنت موضع أملى فى مصر أيها السيد » . فأين موضع هذا العمل من الاصلاح الذى ينادى به الخديو توفيق فى أوامره العالية ، وينعش بذكره أرواح الخاصة من الماثلين فى حضرته ، ويجتهد فى ابلاغ البشرى به الى الكافة ؟.. أليس من أول مبادىء الاصلاح تقرير الأمن على الأنفس وكفالة الحقوق بالعـدالة ، ومتى يكون الأمن اذا لم تحقق التهم ، ولم يسأل المتهم ، ولم تتضح الجناية بأدلتها الصحيحة ، ولم تقدر العقـوبة بقدرها ؟ !

لاريب أن الانزعاج بنفى السيد جمال الدين كان عاما ، والكدر كان تاما .. ولكن الخديو أظهر سروره مما فعل ، وتحدث به فى محضر جماعة من المشايخ على مائدة الافطار فى رمضان .. فأظهر الطرب بذلك من كان لا يعرف لنفسه قيمة فى العلم والفضل فى محضر السيد جمال الدين ،

وألزمت الجرائد بنشر الأمر الصادر بالنفى ، وفيه من التقريع الشديد ما لم يكن يستحقه الرجل .. كما انه كان فيه تشنيع جارح بمن كانوا يجتمعون عليه ، فنشره البعض وأبت احدى الجرائد نشره لآن محررها كان من تلامذته فعطلت .. على ان هذه الشدة ، لم تزد الأفكار الا حدة ، ولا الألسن الا جرأة ، ولا الاحساس بضرورة الاصلاح الا نموا وظهورا

فى هذه الأثناء ، وقبل استعفاء وزارة محمد شريف باشا ، صرف عدد عظيم من الجند الى بلادهم . وتقرر جعل الجيش العامل اثنى عشر ألفا فقط ، وقد قدم جماعة من الضباط — بعد ذلك — عريضة الى جناب الخديو يلتمسون فيها عزل ناظر الجهادية ، وبنوا ذلك على أسباب منها : رداءة المأكل وضررها بصحة العساكر .. ومنها سوء حال المستودعين وعدم النظر فى اصلاح معاشهم ، فوعدوا باصلاح الحالة . وبعد أيام استعفت الوزارة ، ولم ينظر فى حال الضباط ولا العساكر بعد ذلك . ولم يتوجه الفكر الى هذه الحركة بالبحث فى أسبابها ، وعلاجها قبل أن تأخذ قوتها ، ويظهر أثرها بمثل ما ظهر به فيما بعد

نفوذ الاجانب

قضى باستعفاء الوزارة ونفى السيد جمال الدين غرض أرباب النفوذ من الاجانب وبعض الوطنيين فى منع الاصلاح وارهاب النفوس الطامحة اليه على ما ظنوا . وبعد ذلك أخذ القناصل فى اقناع الخديو بأن هذه الوزارة الجديدة تحت رئاسته ، لا قدرة لها على تذليل المصاعب الحاضرة .. ومن الضرورى أن يوجد مساعدون من الوطنيين والاجانب فى الوزارة حتى تقوى بذلك على التخلص من الضيق الذى تعانيه الحكومة ، وأشاروا الى عودة مستر « ولسن » ومسيو « دوبلنيار » فأظهر لهم ان ذلك غير ملائم للمصلحة ، وانه لايرضى البتة بأن يكون فى النظارة أعضاء أوربيون ، لأنه يشوش أفكار المصريين ويؤدى الى

الخبط فى الأعمال

قال الخديو : « ومع ذلك فلو صممت الدولتان على ارجاعهما وزيرين ، فانى مستعد للاشتراك معهما فى العمل وقبول ما يشيران به ، وأحسبهما صديقين ولكنى أتبرأ من تبعة ذلك »

ثم قال : « اننى لا أنكر حاجتنا الى معونة الاجانب ، ولكنى أريد رجالا مثل بارنج (١) يشتغلون باصلاح المالية ، ولا يخلطون الادارة بالسياسة ، ويكونون فى وظائف سامية غير أنهم لايكونون وزراء »

فأشاروا الى نوبار باشا ، فأظهر غاية التمنع من قبوله .. بل أبى أن يسمح بعودته من أوربا ابعادا لدسائسه ، كما عرف ذلك كله وشاع بين العامة والخاصة ، وتناقلته الجرائد فى حينه ، فأشير الى مصطفى رياض باشا فأبان شدة ميله اليه ، وقال : « انه الصديق الحميم والصادق الأمين»

وانتهى الأمر باستدعائه ، فحضر فى النصف الأخير من رمضان ، ثم عهد اليه برئاسة النظار فى ٥ شوال سنة ١٢٩٦ الهجرية ــ ٣ سبتمبر سنة ١٨٧٩

كان الخطاب الصادر من الخديو توفيق الى رياض باشا المؤذن بتعيينه رئيسا للنظار ، يشف عن كمال المودة وتأكد الثقة وخلوص السريرة فى الاعتماد على أمانته ، وفيه التصريح بأنه لم يقصد بترؤسه مجلس النظار مدة الشهر الذى مضى أن يعيد السلطة الشخصية بل كان ذلك لمقتضى الأحوال (٢)

من المعلوم أن أهم المسائل لدى الحاكم والحكومة فى ذلك الوقت هى المسألة المالية التى لأجلها أجبر خديو واسع السلطة مدرب على الملك المطلق سبع عشرة سنة ، أن يتنازل عن مقامه ويهبط من عرشه ويترك ملكه ويبعد عن بلاده مشيعا بالعويل والنحيب ، ولأجلها ولى خديو

---

(١) هو الذى صار لقبه بعد ذلك لوردكرومر

(٢) يقصد رفضه لقانون الاصلاح الذى عرضه شريف باشا ورفضه له واستقالته ، وكذلك حادث نفى السيد جمال الدين الافغانى

جديد ناشيء فى العمل لا يأنف لذة الملك ولا أبهة السلطان ، وله الحق الكامل فى المحافظة على ما وصل اليه بأى الوسائل الممكنة ؛ وآماله فى المستقبل تستدعيه فى كل آن لحل ما وجده من العقد ووضع حد لتلك المصاعب التى جرت الى مثل تلك الحادثة العظيمة والانقلاب الذى لم يكن فى حسبانه

وهذه المسألة المالية ، كان يريد الجناب الخديو أن يأتى على حلها قبل كل المسائل ، وينتهى من مشكلتها قبل جميع المشاكل .. على أنه لم يكن هناك مشكلة سواها لولا ما أعقبها مما تولد منه

لم تكن عقدة المشاكل فيما يمس حالة المصريين وعلاقاتهم مع الحكومة فى الأمور المالية ، اذ لم تكن لهم حاجة الى أمور جسام وأعمال عظام ، فيما يتعلق بشأنهم مع الحكومة من هذه الوجهة .. فقد كان يكفى أن تنظم أوقات التحصيل على وجه ما نظمت عليه أخيرا ؛ ويزاح عنهم من الضرائب ما يثقل عليهم ولا يفيد الحكومة كبير فائدة كما حصل فيما بعد

وما كان أسهل هذا الأمر فى ذاته .. على انه لو بلغ من الصعوبة أقصاها ؛ وكان فيه من المشاكل ما يصل بين الأرض والسماء ؛ لما أخذ من اهتمام الحكومة جزءا من المائة بل من الألف ، مما أخذت المسألة المالية فى ذلك الوقت ؛ ولما كان خوف العاقبة يتعهد قلوب أولى الأمر من وقت الى آخر ويحملهم على أعمال لم يكونوا يقصدونها على علم منهم بأنها تبعد عنهم قلوب الرعية وتصرف عنهم ميلها

كان معظم الاهتمام منصرفا الى ارضاء الاجانب ، ووضع أساس مكين يضمن لهم وفاء ما كانوا ينالون من فوائد الدين الباهظ . ظهر عجز الحكومة عن تأدية بعض أقساط من دينها فى أوقاتها المحددة فى سنة ١٨٧٦ م ؛ ولكن الخديو اسماعيل كان يريد أن يكون ذلك العجز معروفا عند الدول ذات النفوذ ، ويجب أن يتدخل أيضا فى تحديد وجوه الوفاء وطرق التسديد .. ظنا منه بأنه متى ثبت عجز المالية المصرية عن أداء

الدين ، ولم يبق من وجوه الوفاء ما يكفى له ، أعلنت الدول قطع مرتب الاستانة ونادت به ملكا مستقلا على مصر لايؤدى خراجا الى سلطان آخر . وكان يسره أن يكون ملكا ، ولو على بلاد خربة ورعية ضئيلة ، وبين خليط من الاجانب يصرفونه فى داخلية بلاده حسب ما يريدون !.. ثم لم يكف الخديو اسماعيل عن تصرفه الخفى فى المالية المصرية بما يزيد ارتباكها

وكلما تقدم الزمن ، ظهر الاختلال فيها .. فيدعو وكلاء الدول السياسية للتدخل فى اصلاحها ، ثم هم يجيبونه الى ما يدعوهم اليه ، تمكينا لحق التدخل فى الشئون المصرية ، الى أن جر الأمر الى تعيين لجنة التفتيش العليا ، ولم يكن فيها الا مصرى واحد وسائر أعضائها من الأجانب .. وأخذت تتناول البحث فى الشئون المالية ، وتصل بها الى ما شاءت من الأمور الادارية . وكانت أحكام المحاكم المختلطة لأرباب الديون السائرة على الحكومة من أشد الضربات عليها ، ووقع الحجز على كثير من أملاك الخديو ، وطلبت الحكومة سبيلا للتخلص من بعض ورطاتها .. فعقدت سلفة روشيلد تحت شروط شديدة ، ورهنت بعض أملاكها وضمنت ما تعجز الأملاك المرهونة عن وفائها .. وكانت هذه السلفة ضغثا على ابالة ، ومشكلا فوق المشاكل ، فقد أبى بيت روشيلد أن يؤدى بقية السلفة بعد ما دفع شيئا منها ، وطلب شروطا أخرى وكفالة أشد ضررا بمن يقبلها من الاستغناء عن تلك السلفة .. وبذلك وقع الخديو اسماعيل فى شباك من حبائل السياسة التى ألقى بنفسه فيها اختيارا لايشوبه شيء من الاضطرار ، وصدق فيه قول القائل : « انه صرف مائة مليون من الجنيهات ، أخذها بأفحش الفائدة وأنفق معها مائتين وخمسين مليونا تناولها من الرعية بأشد أنواع العذاب ، وقضى مع ذلك مدة سبع عشرة سنة فى سلطنة تامة وكلمة نافذة »

كل ذلك لكى يعد بلاده ويهيئها لنفوذ أجنبى يسوسها ، ولأن يسجل عليها استكانة وذلا يتعذر الخلاص منهما .. بل كان يهيىء نفسه بالمال

والســلطان للسقوط تحت سيطرة مسيطر لايرحم ، ورقيب يعجز عقله الذكى عن اخفاء شيء دون علمه ، بل قاهر شديد يضعف سلطانه القوى عن مناوأته.. وهكذا كان يبذل جهد المستطيع فى اضاعة نفسه ، وهو يظن انه ساع الى الاستبداد بالملك والوصول الى الاستقلال به .

ولهذا سمح بأن يأتى وكلاء عن أرباب الديون ، ليبحثوا فى شــئون المالية ، وأظهر لهم قبول ما طلبوه بعد بحثهم ، وعين مراقبة من الاجانب على عموم حسابات المالية . ولم يكتف بأن يكون شأنه مع دائنيه ، كما هى القاعدة المعروفة فى كل ممالك العالم ، بل حول المسألة من مالية الى سياسية .. وأدخل فيها القناصل والوكلاء السياسيين ليصل بهم الى ذلك الغرض السامى الذى كان يتخيله ، وهى فرصة لايضيعها أهل البصائر النافذة من وكلاء الدول ذات المصالح السياسية والتجارية فى مصر

ومن المقرر عنـد الاوربيين ، ان العادة قانون ، وان العادة تتأصـل بمرة .. فما بالك بالمرات الكثيرة ؛ فلهذا انقلبت المسألة المالية آخر الأمر الى سياسة محضـة ، وما أخذه الأوربيون من حق التدخل فى شئونها أصبح أمرا مقررا وقانونا واجب الرعاية .. ولم يعد لأحد من حكامنا أن يفكر فى الغائه أو تعديله ، خصوصا وقد وجـد الأجانب من الأدلة ما يحاجون به المنازع .. اذ كانوا يقولون : « لا ثقة بوعد ولا اعتماد على عهد ، فقد وعد الحاكم السابق وأخلف ، وعقد ونقض .. ولم نره يوما أتى بعمل تكون النية فيه خالصـة لنفع بلاده ، ولم نر له أثرا فى البلاد تساوى قيمته ما صرف فيه .. والحاكم الجديد حديث العهد ، لا نعلم ما يكون منه ، ولا نريد أن نقع فى التجربة مرة أخرى ، فلا بد من أخـذ الاحتياط الشديد من بداية الأمر.. ولما كان توفير المال، الذى يقوم لوفاء الدين وضبط حسابه ، موقوفا على ضبط جميع الادارات والمصالح ، فلا بد أن يكون لنا نوع من المراقبة عليها ، حتى نكون على ثقة من أن حالتها لا تنقص الايراد ولا تزيد فى النفقة

« ولما كان الفلاح هو العـامل الفرد فى سـوق الأموال الى الخزينة

ومنها الى الدائنين ، فشأنه مرتبط بشئون الدائنين ولا يثمر عمل الفلاح الا اذا كان آمنا على نفسه وماله .. فلنا حق المراقبة على كل ما يتعلق بالفلاح من هذه الجهة . والنتيجة التى لا شبهة فيها بعد تسليم هــذه المقدمات ، أن لنا حق السيطرة على الحكومة المصرية بجميع فروعها .. لكن تحت اسم المراقبة المالية »

وزاد نفوذهم شدة تدخلهم فى خلع اسماعيل باشا ، فهاهنا كان موضع الاشكال ، ومن هذا كان ينبوع المخافة والاضطراب على المسند الجديد

المراقبان العموميان

قبلت الدولتان ما طلبه الخديو توفيق من عدم تعيين وزيرين أوربيين، ولكنهما صممتا على تعيين مراقبين عموميين يقيمان فى نظارة المــالية ، ونفوذهما يشمل جميع الادارات المصرية ، وراتبهما الذى يتقاضيانه من الحكومة أوفر بكثير من راتب وزيرين . وصــدر الأمر بتعيينهما قبل توجيه رئاسة النظار الى رياض باشا بأيام

ولمــا تعين رياض باشــا رئيسا للنظار ، وجد مسيو بارنج دوبلنيار محاسبا عموميا لقلم المحاسبة وادارة الدين العمومى ، ولم يبق الكلام الا فى تحديد وظائفهما .. كأن عنوان الوظيفة لم يكن كافيا فى فهم معناها ، وبعد قليل قدم قنصلا دولتى فرنســا وانجلترا لائحة تحدد وظــائف المراقبين .. وبعد مداولة طويلة فى مجلس النظار ونزاع شــديد بينهم ، قبلت اللائحة كما قدمت تقريبا ، وصدر الأمر بتحديد وظائفهما على وجه أن لهما فى الأمور المالية حق المراقبة غير المحدودة على جميــع المصالح العمومية

وعلى الوزراء والمأمورين من أية رتبة كانوا أن يقدموا الى المراقبين كل ما يطلبانه من الافادات ، وعلى ناظر المالية أن يقدم اليهما كل أسبوع كشفا مفصلا عن دخل نظــارته ونفقتها وعلى كل ادارة أن تقدم كشفا مفصلا كذلك فى كل شهر .. ويتقاسم المراقبان النظر فى المصالح العمومية

التى يكون من شأنهما مراقبتها والاشراف عليها بمقتضى الحقوق المثبتة لهما فى ذلك الأمر الخديوى

وتقرر لهما مقام فى مجلس النظار برأى شورى ، وتقرر ألا يعزلا الا بموافقة حكومتيهما ، ولهما أن يعزلا وأن ينصبا جميع الموظفين فى ادارة التفتيش ، وأن يعينا لهم الرواتب ، وهما اللذان يضعان برنامج (ميزانية) التفتيش على حسب ما يريدان ، وعلى الحكومة أن تصرف لهما ما يطلبان صرفه بلا معارضة . ومن هذا ترى أن تحديد الوظائف كان عبارة عن رفع كل حد يوهن عنوان وظيفتهما واطلاق حق المراقبة من كل قيد

وقد ذكر فى ذلك الأمر ما نصه : « ان حكومتى فرنسا وانجلترا قد رضيتا بأن المراقبين العموميين لايتدخلان فى الوقت الحاضر فى ادارة المصالح الادارية والمالية ، فالمراقبان يقتصران الآن على أن يقدما الينا « الخديو » والى وزرائنا ما تهديهما اليه مراقبتهما من الملاحظات » فهذا التقييد « بالوقت الحاضر » يدل على ما كان بين الدولتين والحكومة من المخابرات ، واعتذار القنصلين باسم دولتيهما بعد صدور الأمر الخديوى ، وتأويلهما على وجه لم يزد القصد الا ظهورا يشير الى أن الأمر سطر برأى القنصلية ، وان الحكومة تضجرت من هذا الوعيد بعد صدور الأمر .. كما تضجرت منه قبله ، ولكن لم يتعطف القنصلان لارضائهما الا بعد امضائه وكانت الترضية عبارة عن ابقاء الألفاظ وتأويلها بما لا يفهم منه ليجرى حكمها كما وضعت

خيبة امل وحزن

لم يمر ذلك على الأنفس والعقول بلا أثر خادش ، وهزة أسف عامة ، لكل من كان يلوح فى قلبه شعاع الفكر ، ويدور فى خلده خيال الميل الى استقلال البلاد ، ووضع الاصلاح فيها على قواعد سليمة ، واحاطته بما ينقى أعمال السلطة العليا من كل قصد الى غير مصلحة الرجل ، ويصونها عن كل غرض يسوق الى تأييد السلطة الاجنبية .. بعد ما

عرفت آثارها وتمكنت من النفوس النفرة منها

وقد تحدث الناس بذلك بمجرد تعيين المراقبين ، وأكثروا من الانتقاد عليه قبل مجيء رياض باشا ، وقبل أن تبين حدود المراقبة على هذا الوجه . وبعد أن نشر هذا الأمر ، وعرفه العام والخاص .. ولم يدع انسانا حتى أنطقه ، ولا قلما حتى أطلقه ، وجرائد هذا التاريخ شاهدة به

وهنا أترك تسلسل الحوادث وتوارد الأسباب التى جرت الى الثورة ، حتى أفرغ من ذكر ما تم من الاصلاح مدة وزارة رياض باشا ، وما تحولت اليه أحوال المصريين ، وما عرض على أفكارهم مما يحسب تقدما وتأخرا .. آتى على ذلك باجمال يغنى عن تفصيل ان شاء الله ، ثم ترى بعد ذلك سلسلة الحوادث قد اتصلت حلقاتها بما ذكرناه سابقا .. بدون حاجة للتنبيه الى العودة اليه



وزارة رياض باشا

لما ألف مصطفى رياض باشا الوزارة (1) ، احتفظ لنفسه بوزارة الداخلية لاصلاح الحال العامة ، ونظارة المالية (مؤقتا) لحل مشاكلها مع الأجانب . وقد سار فى الاصلاح سيرة حميدة ، لا شىء فيها الا محاولته تعميم العدل ، والمساواة فيها بسرعة ، ونلخص ذلك بما يأتى :

الغاء رياض باشا للسخرة

كان أول اصلاح قام به الغاء (السخرة الشخصية) وكان التسخير فى البلاد المصرية نوعين : عاما وخاصا .. أما العام فهو اكراه الحكومة الأهالى على العمل ، بغير أجر فى المصالح العامة ، كاقامة الجسور « الحواجز » على الأنهار العظيمة ، وحفر الجداول الكبيرة ، وتشييد كل بناء يقام باسم الحكومة . وأما الخاص فهو أن يلزم الأعيان من دونهم من الأهالى بالعمل فى منافعهم الخاصة بغير أجر ، كالعمل فى المبانى والأراضى بجميع أنواعه .. فكان جميع الوجهاء وجميع موظفى الحكومة يرهقون الأهالى بهذه السخرة ، ويقرنونها بالضرب والاهانة .. حتى ان بعضهم كان يضرب الفلاحين لمجرد اللذة

وقد كان كل ذات من الذوات الفخام له بلاد تتعلق به (أى هى منطقة نفوذه) يستخدم سكانها فى أراضيه بأشخاصهم وماشيتهم فى جميع مواسم الزراعة ، على شرط أن يحمل العاملون أقواتهم وأدوات العمل ، وغذاء ماشيتهم من ديارهم اذا كانت البلاد قريبة .. فان كانت بعيدة ، سمح لهم بغذاء الماشية دون غذاء الآدميين ، ولكنه لا يسمح لهم بأماكن تقى من

---

(1) مصطفى رياض بن اسماعيل الوزان بن احمد بن حسن الوزان احد كتبة الحكومة المصرية . ولد سنة ١٨٣٤ وتوفى سنة ١٩١١ م عن سبع وسبعين سنة ، كان كاتبا فى ديوان المالية فى يناير سنة ١٨٤٨ م واخذ يرتقى المناصب حتى صار وزيرا

المطر والبرد فى أيام الشتاء ، ولا بمستظل يقيهم الحر فى أيام الصيف . فكان البرد يقتلهم شتاء ، والحر يذيبهم صيفا

وقد شدد الوزير فى الغاء السخرة بنوعيها ، وبالغ فى ذلك حتى انه آخذ مدير القليوبية مرة لأنه أرسل بعض أشخاص من أهاليها لحفر الترعة التوفيقية التى تصل الى أراضى القبة لأنها خاصة بالخديو .. ووبخ المدير توبيخا شديدا ، وعرض الأمر على الخديو .. فأظهر استحسانه ، ولكن لم يذهب بلا أثر فى نفسه . فان مبالغته فى العدالة الى هذا الحد مما لا يرضى السلطة المستبـدة العليا فى مصر ، مهما كانت منزلة الحاكم من الكمال .. فانظر ماذا يكون فى نفوس أكابر رجال الحكومة السابقين ــ بين الحاليين ــ من رياض باشا ، بعد حرمانهم من منافع أبدان الرعية بغتة بلا تدريج !..

ثم ان رياض باشـا شرع فى وضع نظام لتوزيع الاعانة على الأعمال العمومية ، يحل محل السخرة .. كما أشارت لجنة التفتيش العليا من الأجانب ، وكان أساس هذا النظام التخيير بين العمل البدنى ودفع نقدى للحكومة ، فخف الويل عن كثير من الفلاحين ، وشعروا بأن أوقاتهم ملك لهم لا للحكومة

وكان من عدل رياض باشا فى ذلك ، أن عنف فريد باشا مدير الشرقية لارساله مائتى رجل لاصلاح ما جرفه السيل من سكة حديد السويس .. اذ طلبت مصلحة سكة الحديد العمومية منه ذلك حسب العادة ، مع ان فريد باشا كان من رجال رياض باشا الذين يحبهم ويحبونه وبينهما شبه قرابة . ولم يكتف بذلك ، بل كتب منشورا عاما لجميع المديرين يحذرهم من مثل ذلك العمل ، وقد كتب صورة هـذا المنشور كتاب الداخلية مرارا ، وكلما عرضـوا عليه صـورة مزقها ، لأنها لم تف بغرضـه من التسوية بشأن الأهالى

وقد دعانى فى آخر الأمر الى تحرير (١) ذلك المنشور ، فكتبته وذكرت فيه الحادثة ، وأتذكر منه هـذه الفقرة : « وليعلم المديرون والأهالى

جميعا أن الأهالى ليسوا عبيدا لأحد ، ولا لأحد عليهم سلطان ، الا فيما يتعلق بمنافعهم عامة أو خاصة » وهذا تصريح من رئيس الحكومة النائب عن الجناب الخديو باعتــاق الأهالى من عبودية التسخير .. بل العبودية للحاكم الأعلى على وجه الاطلاق : وهذا مما لم يكن له مثيل من قبل

توزيع مياه النيل

واهتم رياض باشا بأن توزع ميــاه النيل بالقسط ، وقد كان الفقراء لا ينالون من النيل أيام هبوطه الا فضلات ما يزيد عن حاجة الأغنياء ، وشدد رياض باشا على نظارة الأشغال العمومية فى تنفيذ ذلك على الكبير والصغير . وذكر الأستاذ من الشواهد على ذلك تنفيذ عمل يحول دون ما كان بولينو باشــا يستفيده من آلة بخارية له ببيع المـــاء الذى ترفعه للفلاحين ، حتى فى أيام الفيضان التى يجدون فيها الماء بغير ثمن . ولما جاء بولينو باشــا برجال مسلحين ليمنعوا فتح الترعة التى يسقى منهـــا الأهالى ، أمر رياض باشا بفتح الترعة ولو بقوة السلاح .. ففتحت تحت حماية العساكر المصرية !

الغاء الضرائب

لم تمض على وزارة رياض باشا بضعة أشهر حتى ألغى ثلاثين ضريبة ونيف من الضرائب الصــغيرة التى كانت أضرت بالمصنوعات والأعمال التجارية والصنــاعية الخاصــة بالوطنيين وبحال المزارعين ، وزاد مائة وخمسين ألف جنيه على ضريبة الاطيان العشورية تعويضا لما فات بالغاء تلك الضرائب ، فخفف بذلك عن الفقراء ما ثقل على الأغنياء .. وهو مما لا يمحى أثره من أنفس الفريقين ، وذهب الأفواج من التجار والصناع

---

(١) كان رياض باشا يعرف الشيخ محمدعبده منذ كان شابا بالازهر ، وهو الذىاختاره محررا ثالثا بالوقائع المصرية فى اواسط سنة١٢٩٧ هـ الموافقة سنة ١٨٧٩ م ثم طلب منه اصلاحها ورقاه الى المحرر الاول بها ، فضم الشيخ محمد عبده اليها سعد زغلول ، وابراهيم الهلباوى ، وعبد الكريم سلمان ،والسيد وفا

ليعلنوا شكرهم للجناب الخديو على الغاء تلك الرسوم ، ولكن الكبراء لم يحفلوا بذلك ، ولا شاركوا الشاكرين ، ثم عفت الحكومة عما عجزت عن تحصيلة من الرسوم والضرائب المتأخرة الى سنة ١٨٧٦ م

وضع ميزانية الحكومة والتحصيل

ثم نظم برنامج الايراد والمصروف من مال الحكومة « الميزانيـة » وألفت لجنـة لسماع شكايات المطالبين بالضرائب وانصافهم ، ووضع نظاما للتحصيل فى الأوقات المعينة على حسب مواسم الزراعة ، وعرف الفلاح ماله وما عليه . وضع هذا طبقا لما أشارت به لجنة التفتيش العليا

وقد ظهر عقب ذلك مبـدأ المسـاواة بين الأغنياء والفقراء والوطنيين والأجانب فى التحصيل ، وكان الأغنياء والأجانب يماطلون عدة سنين.. وكثيرا ما يعفى عنهم بعـد ذلك . وظهر عنـد التنفيذ ، ان بعض أغنياء الأجانب كان فى ذمته ضرائب سبع سنين .. فحصلت منه بقوة الحكومة ، وهذا مما لم يكن يسمع به من قبل ..!

ابطال الكرباج والحبس

وقد صدر الأمر بابطال الضرب بالكرباج فى تحصيل الاموال الاميرية فعجب كثير من الناس لذلك ، وقالوا : كيف يمكن أن يحصل مال من الفلاح بدون ضرب ، وانكره كثير من المديرين ، وظنوا انه قد هدم ركنا عظيما من سلطان الحكومة

ثم صدرت الأوامر مشددة بمنع الحبس لتحصيل الحقوق سواء أكانت أميرية أم شخصية ، ولقى تنفيذها مصاعب ومقاومات شديدة لتمكن الميل الى الظلم من أنفس أكثر الحكام .. ولكن لم تأت آخر مدة رياض باشا حتى كان الحبس قد محى الا ماندر ..

ومن غرائب آثار تعود الظلم ورؤيته ملازما للسلطة بمصر ، ان الذين حفظت أبدانهم من الضرب والجلد وأرواحهم وأجسامهم من الحبس فى سبيل اقتضاء الحقوق ــ سـواء أكانت للحكومة أم للافراد ــ كانوا

يعدون تلك الأوامر مخالفة لما يجب أن يعاملوا به ؛ وانه لا يفيد الا السكرباج .. كما لايزال قوم منهم يقولون ذلك الى اليوم ، وكانوا يهزأون بتلك الرحمة ؛ اللهم الا الذين لمع فى عقولهم روح الفهم ، ووصل الى أبصارهم شعاع الاحساس بما للانسان من حق الكرامة التى خصه الله بها ..

قانون التصفية

بعد مخابرات طالت مدتها بين الحكومة المصرية والدول العادلة الفخيمة ، قبلت الدول تأليف لجنة لتصفية الديون المصرية التى استدانها شخص اسماعيل باشا ، ولا يعرف فى البلاد من آثارها فى المنافع العامة الا القليل .. قبلت الدول « العادلة » أن تؤلف لجنة من رجالها ليقضوا للدائنين من رعاياها على الحكومة المصرية ، ولم يكن فى اللجنة من المصريين الا عضو واحد . قضت « عدالة » الدول المتمدنة أن تصادف المخابرات فى ذلك صعوبات ، حتى يكون القبول مقرونا بالتفويض التام ، وخضوع الحكومة المصرية لكل ما يطلبه وكلاء الدائنين ، وصدر الأمر بتأليفها تحت رياسة السير ريفرس ولسون فى ٢١ مارس سنة ١٨٨٠ م (١) وبعد مدة أصدرت اللجنة قانون التصفية الذى اشتهر أمره

وأهم مسائل هذا القانون هوكيفية توزيع دخل الحكومة ، ودخل بعض الأملاك على الديون ، ومنها انه قدر لنفقات الحكومة أربعة ملايين و ٨٩٠ر٨٩٧ جنيها وفيها جزية الدولة العثمانية على مصر ، وفوائد قنال السويس ، وتكميل النقص الذى يحصل فى الايرادات المخصصة ، وسنوية المقابل ، وما بقى من مالية القطر المصرى فهو للدين وفوائده ..

وقد كان يوم أمضى هذا القانون من الأيام المعروفة فى تاريخ مصر ،

---

(١) جاء فى الوقائع المصرية بتاريخ ٧ ابريل سنة ١٨٨٠ م ان هذه اللجنة الفت فى ابريل من تلك السنة لا فى مارس . وهى مؤلفة من رئيس وثمانية اعضاء : اثنان من انجلترا احدهما رئيسها ، واثنان عن فرنسا ، وواحد عن النمسا ، وواحد عن المانيا ، وواحد عن ايطاليا ، وواحد عن مصر هو بطرس بك «باشا» غالى — وقانون التصفية يعنى تصفية ديوان الحكومة وتحديد نفقاتها وتنظيم شئونها المالية وهو اساس نظام مصر المالى حتى سنة ١٩٠٤

وقد احتفل له فى الاسكندرية جماهير من أهالى القطر المصرى ، وعد الناس ذلك اليوم من الأعياد الوطنية فى ذلك الوقت ، وقالوا انه فاتحة الطمأنينة وضمان من الاضطراب الذى كان يخشى منه . وفى الحقيقة كان هذا القانون فاصلا بين ماض قلق مشوش كان يتعسر السير فيه وبين مستقبل واضح معروف ، كما تمنى الخديو توفيق ، وقد صرح مرارا انه يريد فاصلا بين الماضى والمستقبل .. وأهم ما غنمته الحكومة منه رضاء أوربا عن الحالة التى قررها ، واطمئنان الأهالى والخديو على كرسى الخديوية ، وانقطاع المخاوف التى كانت المشاكل المالية تثيرها فى الأوهام عندما يخطر بالبال حادثة خلع اسماعيل باشا .. وبتلك الطمأنينة كان الفرح لها كالاحتفال

اصلاح الوقائع المصرية

وقد كانت الجريدة الرسمية توزع على المأمورين وعلى البلاد توزيع الضرائب .. ترسل الى من ترسل اليه بغير طلبه ، ويجبر على دفع قيمتها بالوسائل التى كان يجبر بها الممولون على الدفع . فأراد رياض باشا أن يجعل للجريدة الرسمية ، قيمة فى ذاتها تحمل الناس على طلبها رغبة فيها ليقفوا على ما تضمنته من الأوامر واللوائح « القوانين » فيكونوا على بصيرة مما تريده الحكومة ، من غير اكراه من الحكومة لهم على ذلك . وكان قد أحس بتوجه الافكار الى طلب شىء من طلاوة العبارة ، ووفرة المعنى وحسن الانتقاد . أما أوامر الحكومة وحدها ، فلم تكن مما تحرك النفوس للاطلاع عليها فى الجريدة الرسمية ، لأن المأمورين يعرفونها من طريق أخرى

أما الأهالى فلم يكونوا قدتعودوا معاملة الحكومة بما تنشره ، ولا أن تكون طاعتهم لها منحصرة فيما يكتب وينشر بوجه رسمى ، ولم يعرفوا بأن الحكومة تقف عندما تحدده فى أوامرها .. لهذا لم يهتموا فى الاغلب الا بأشخاص الحاكمين دون ما يكتبونه ، ولم يكن فى الجريدة

الرسمية وراء أوامر الحكومة الا مدائح الخديو وبعض كبار الحكام ، على الطريقة القديمة ..

وهذا مما كان ينفر من رؤيتها ، فطلب رياض باشا وسيلة لتغيير طريقة التحرير وتحريرها على وجه يستميل الناس للاطلاع عليها ، ورغب مع ذلك أن تكون يومية .. فهداه بحثه الى تعيين الكاتب « يعنى الامام نفسه » فى تحرير تلك الجريدة ، وكان الخديو فى انحراف عنه لأسباب غير معروفة ، وانما قيل ان السبب فى هذا الانحراف انه كان موضع ثقة الشيخ جمال الدين الافغانى .. فاجتهد رياض باشا فى استرضاء الخديو، فرضى بتعيينه بالجريدة فعين محررا ثالثا ، وبعد تعيينه طلب أن يضع خطة يمكن بها اصلاح الجريدة .. فعرض له ما رآه فى تقرير واف ، فأمر رياض باشا بأن ينظر التقرير لجنة تؤلف من وكيل الداخلية ، ومدير المطبوعات ، وكاتب التقرير ، ثم توضع لائحة لقلم المطبوعات وتحرير الجريدة الرسمية ، فوضعت اللائحة فى قليل من الزمن ، وأمضاها رياض باشا ، وعين صاحب التقرير رئيسا لقلم تحرير الجريدة الرسمية العربية .. فانتخب محررين مجيدين تستميل الناس أقلامهم ، وتنبعث الرغبات الى النظر فيما يقولون ، فتحولت حال الجريدة الرسمية الى ما حمده العامة والخاصة ..

صلة الجريدة بحياة الامة

وقد يقول غير العارف بسير الحوادث : وما مكان الجريدة الرسمية من تاريخ مصر ــ سعادتها أو شقاؤها ، طمأنينتها أو قلقها ، تقدمها أو تأخيرها ؟.. فنجيبه بأن تاريخ مصر ان كان مجموع حوادث أمة لها حياة سياسية وأدبية وعقلية .. فلتغيير سير الجريدة الرسمية وتحرير ادارتها ، مكان رفيع من تلك الحوادث ، ومقام سام من ذلك التاريخ كما سنبينه ، وان كان تاريخ مصر تاريخ مادة جسمية حيوية تنمو وتغتذى وتموت ، فالبحث فيه من خصائص علم التاريخ الطبيعى ، ولا

علاقة لنا به الآن ..

وربما تبسم استخفافا بالأمر بعض الغفل الذين لم يتعودوا النظر فى طبيعة ترقى الأمم ، ولا يحرك احساسهم الا الصدمات الصادعة ، والقواصف القارعة ، وهم من موضوع التاريخ الطبيعى كما قلنا ..

ان واضع لائحة ادارة الجريدة الرسمية ، لم يكن من أرباب المنازل السامية فى مصر .. ولكنه نبت فى تربتها واتصلت حياته بحياتها ، وأشربت مداركه الاحساس بحاجتها .. ولما تناولت عملا مما له علاقة بشئونها العامة ، فتح له هذا الاحساس بابا من المعرفة بطريق ايصال منفعة من المنافع اليها . فلما دعى لوضع اللائحة أودعها أحكاما غريبة فى بابها ، يعجب لها الناظر فيها ، خصوصا اذا كان من أبناء الشعوب المتمدنة أو من المقلدين للمتمدنين ، ولكن لكل بلد طبيعة خاصة بها ، ولكل قوم حاجات تختلف باختلاف البقاع والازمان

نواحى اصلاح الجريدة

تضمنت اللائحة ان جميع ادارات الحكومة ومصالحها الكبرى « والمجالس الملغاة » ملزمة بأن تكتب الى ادارة المطبوعات بجميع ما لديها من الاعمال المهمة التى تمت أو شرع فيها على أن تتم ، وعلى المحاكم أن ترسل جميع نتائج أحكامها ، وان لادارة الجريدة الرسمية حق الانتقاد على أى عمل من الاعمال عندما ترى له وجها ، حتى أعمال نظارة الداخلية نفسها التى كانت الادارة جزءا منها ، واذا رأت فى الجرائد التى تنشر فى مصر ــ عربية أو أجنبية ــ ذكرا لخلل فى عمل أو سوء تصرف فى أمر ما ، فلها الحق أن تكتب بواسطة نظارة الداخلية الى النظارة أو الادارة التى يختص بها ذلك العمل تسألها عن الحقيقة ، فان كان حقا ما نشرته الجريدة أخذ المخطىء بواسطة رؤسائه ، وأشعرت ادارة المطبوعات بذلك ، ونشر فى الجريدة الرسمية ، وان كان باطلا كلف صاحب الجريدة اثبات ما ذكره والا أنذر مرة بعد أخرى . وبعد الثالثة يعطل لأجل أو

دائماً على حسب الاحوال ، وان من حق رئيس تحرير الجريدة أن يكتب فيها تحت عنوان قسم غير رسمي ما يعن له أو ما يرد اليه من الفصول الأدبية مما له مساس بالاحوال العامة ..

وقد منح رياض باشا هذه السلطة لادارة الجريدة ، اما ثقة منه بالعامل فيها وهو واضع اللائحة ، واما علما منه بأن ذلك من مصلحة البلاد وحاجاتها الحاضرة ..

اصلاح التحرير

وأول ما بدأت الجريدة بانتقاده طريقة التحرير التى كانت متبعة فى النظارات والادارات، فأخذت تبين وجه الخلل فيها واضرارها بفهم المعانى المطلوبة فيها واقتضائها لطول المخابرات فى الاستفهامات التى لا طائل تحتها ، ثم ترسم الطريقة الفضلى التى يجب السير عليها .. فلم تمض أشهر قليلة حتى ظهر فضل ذوى الالمام باللغة العربية من موظفى الحكومة ، وخصهم رؤساؤهم بمكاتبة الجريدة الرسمية سترا لعيوب الادارات ، واضطر الجاهلون باللغة والتحرير الى استدعاء المعلمين أو المبادرة الى المدارس الليلية ليتعلموا كيفية التحرير ، وعم ذلك المديريات ، كما عم النظارات ..

وذلك هو تاريخ اصلاح التحرير فى مصالح الحكومة ، ولا زال يتقدم الى اليوم . وهكذا كان شأن الجرائد .. كانت تتسابق الى اظهار مزاياها فى التحرير حتى ترضى ادارة المطبوعات ، وصلح بذلك كثير من أساليب الجرائد التى لم تكن لها عناية بتهذيب العبارات ، وتسابقت الأقلام فى تنقيح الألفاظ وضبط المطالب .. فتمت بذلك نهضة التحرير التى كانت بدأت من سنين مضت ، وكان الضعف يقعدها والخوف يرعدها ، فقضى لها أن تظفر على يد من كان له دخل فى نشأتها

سهلت بذلك المواصلات بين الانفس فى الافكار ، وخف عليها التعبير عما فى الضمائر ، وكثر الكاتبون ، وغزرت مادة المتكلمين ، وتيسير

التعارف بين المتباعدين ، ونشأ فى الناس نوع من الألفة ، أحدثه الشعور بجامعة اللغة .. وبعد أن كان نظر الواحد منهم لا يجاوز شخصه ، أصبح وهو يشرف على فضاء يسع بنى أمته ، وأخذ يشعر بأن له حركة عامة الى المقصد العام ، كما ان له حركة خاصة الى الغرض الخاص . وفى هذا من تواصل الافهام ما لايخفى على عاقل ، وله من الأثر فى انهاض النفوس الى طلب ما يصلحها ما لايخفى الا على غبى جاهل

كانت تبحث ادارة المطبوعات أو دائرة التحرير فى جميع منشـــورات الحكومة ولوائحها وأعمال المديريات وأحكام المحاكم وتبدى رأيها فى جميـــع ذلك ، وتنشره فى الجريدة الرسمية .. وكان ما ينشر من الآراء يأخذ مكانا من الاهتمام عند رجال الحكومة ، ويوضع موضع البحث ، ويبنى عليه التعديل أو التغيير ، ويبادر الى نشر ما تم من ذلك فى الجريدة الرسمية ..

***

كانت دائرة التحرير تبحث فى الجرائد عامة ، وما كان فيهـــا متعلقـــا بانتقاد بعض عمال المصالح يكتب عنه من ادارة المطبوعات الى المصلحة التى كانت موضوع النقد ، ويسأل العامل عما نسب اليه .. فاما أوخذ ان صحت النسبة ، أو أنذر صاحب الجريدة اذا لم تصح ، عملا بنصوص لائحة ادارة الجريدة الرسمية ــ كما سبق ــ فارتفع شأن الجريدة فى نظر الحكام والناس عموما من جهة ، واشتد حرصها على تحرى الصدق من جهة أخرى ..

أما القدح الشخصى ، فكان ممنوعا على وجه الاطلاق ــ سواء اشتكى من ذلك المطعون فيه أو لم يشتك ــ لاخـــلاله بالآداب العامة ، فكان ذلك من أسبـــاب تأديب الحكام وحثهم على الســـير فى طريق الكمال ، والمنافسة فى محاسن الأعمال ..

ومن وسائل تهذيب الجرائد والزامها الوقوف عند حدود الوقار فيما تكتب ، مع اطـــلاق الحرية لها فى تبيين الحقائق وكشف وجوه الخطـــأ

والصواب بدون خوف ، انه لم يبق عامل ولا رئيس مصلحة ، بل ولا ناظر الا أحب أن تظهر محاسن أعمـــاله فى صفحات الجريدة الرسمية ، ويخشى أن تكون له سوأة فتبدو بنفثة من نفثاتها ..

انتقاد .. وفكاهة .. !

ومن فكاهات ذلك التاريخ ان مدير بنى سويف « ا . بك » بعد أن ضاق صدره من شدة انتقاد الجريدة الرسمية ، ومؤاخذة نظارة الداخلية له على بعض أخطـائه ، أصـــدر أمره بمنع دخول الجريدة الرسمية فى مديريته .. وكتب بذلك محررا غير رسمى الى صديقه مدير المطبوعات ، فوقع المحرر فى يد رئيس التحرير لأنه كان العامل وحـــده فى الادارة ، فنشرت تلك الفعلة فى منشور عام له ولجميع المديرين أو أدرج المنشور فى الجريدة الرسمية .. فانظر الى أثر ذلك فى أنفس العامة والخاصة .. وهذا مما علم الناس طرق انتقاد أعمال الحكومة ، وأفهمهم أنها قد أقامت من نفسها مراقبا عليهـــا يبين مواضع الضعف فيها ، ويرشـــد الى طرق الصواب وتدارك ما يقع من الخلل .. وذلك مما يرفع الهمم الى أعمال الفكر فى معرفة الحق ، ويسوق العزائم الى طلبه ..

لم يضع رئيس التحرير فرصة فى انتقاد نظارة المعارف ، وسير التعليم واظهار معايب التربيـــة وما يجب أن يؤخذ به من وسائل الاصـــلاح .. فغضب لذلك ناظرها (١) «ع.ا. باشا» وكان بطىء الحركة خامد الفكر ، بعيدا عن الاحساس بحاجة الوقت ، فاشتكى الى رياض باشا من اختفاء الجريدة الرسمية له ، وتنقيبها عن مواضع الخلل فى أعمال نظارته .. فلم يســـمع منه بل أجاب الى أن الحق أولى بالتأييـــد ، فان كان ما ذكرته الجريدة الرسمية غير صحيح فما على الناظر الا اقامة الدليل على ذلك ، وهى مستعدة لنشره ، فسكت لأن ضوء الحقيقة كان هو المرشد للمنتقد فى سبيل انتقاده ..

(١) هو على باشا ابراهيم ناظر المعارف فى تلك الوزارة ، وكان على مبـــارك باشا وقتئـــذ ناظرا للاشغال

مجلس أعلى للمعارف

وبعد أن تكرر النقد ، ووجد رياض باشا ان السكوت عن الخلل ضرب من الاهمال الذى لا يغفر .. ذاكر يوما رئيس التحرير فى ذلك وفى الوسيلة الى اصلاح نظارة المعارف ، وقال اما تغيير الناظر فغير ممكن لأنه له مكانة فى نفس الجانب الخديو ، ومن جهة أخرى فنحن كحزمة ضمت أعوادها برباط واحد .. فلا يحسن البدء من الآن بحل ما عقد بيننا ولا بد من النظر فى طريقة أخرى ، فعرض عليه أن يشكل مجلسا أعلى يكون هو القاضى فى ادارة المعارف العمومية وما على الناظر الا التنفيذ .. فلم يمض على ابداء هذا الرأى بضعة أيام حتى صدر الأمر بتأليف مجلس المعارف الأعلى يضم عددا كبيرا من الاعضاء الوطنيين والاجانب ..

وكان رئيس تحرير الجريدة الرسمية عضوا فيه ، ولم يخل تأليف هذا المجلس من الانتقاد لكثرة عدد الاجانب من أعضائه ، غير أن رياض باشا كان يريد بذلك أن تكون قراراته معروفة حتى عند رجال الدول الاجنبية ذات النفوذ فى مصر ، فيسهل تنفيذها بدون معارضة من المراقبين ولا غيرهم فيها خصوصا اذا قضت بصرف النقود وتوسيع النفقات ..

وقد كان لهذا المجلس أعمال مشكورة لاينكر أثرها فى حالة المعارف العمومية ، ولم تضر به كثرة الأجانب فيه .. فان حمية بعض الوطنيين من اعضائه كانت تحبس بعض الاغراض السياسية فى نفوس أربابها ، فان بدت وجدت من المقاومة ما يبددها ، وكانت القرارات تصدر جميعا فى مصلحة البلاد ، وما يجب أن يتبع فى سير التعليم فيها ..

وقلما كان يخلو عدد من أعداد الجريدة الرسمية العربية من فصل فى انتقاد عمل من الأعمال العمومية ، أو طلب اصلاح عادة من العادات الرديئة ، أو الأخذ بفضيلة من الفضائل التى بنى عليها العمران ، وكانت تخاطب العامة بلسان الحكومة وتخاطب الحكومة بلسان العامة .. لهذا كان لرأيها من الأثر فى الانفس ما لم يكن لرأى غيرها من الجرائد ..

ومن يطلع على آداب تلك الجريدة يجد من نفسه هذا الأثر حتى اليوم، وما كان المقال لاظهار براعة أو الافتخار بمعرفة ، بل كان يكتب ما يكتب انتظارا لأثره فى الانفس لاغير ، وما كان الأثر يتخلف عنه ..

بهذا ، وبما سبقه ، تنبهت الافكار .. وبدأت الحياة الاجتماعية تدب فى جسم أمة مزقهـا الظلم وأماتها الجور ، وانبعثت النفوس تطلب ما شعرت به من حاجاتها ، فتـألفت بعض الجمعيات الخيرية ، اسـلامية وقبطية ، لمساعدة الفقراء بالمعونة المادية وأولادهم بالتربية ، ولم يكن يسمع بمثل ذلك فى مصر من قبل ..

دار الكتب العربية ودار العلوم

وقد اتجه عزم وزارة الأوقاف الى الأخذ بوسيلة من أجل وسـائل الاصلاح ، وهى تقريب الكتبخانة العربية ومدرسة دار العلوم من الجامع الأزهر ، وتوسيع نطاق المدرسة الى أن يمكن احتواؤها على خمسمائة تلميذ ، وأن يرتب التدريس على طريقة تؤدى الى تكثير الاساتذة المهذبين لكل نوع من أنواع المعارف اللازم تعميمها فى الأمة ، ولكل طبقة من طبقات المدارس ، بل الى اعداد عدد كبير من أهل الذكاء لادارة كثير من الأعمال الادارية والقضائية فى البلاد . وقد قدرت فوائد هذا المشروع فى سنين بما يعظم مقداره ويتجاوز حد ما يتصوره المهاترون فى هـذه الأوقاف ..

وبهذا كان يتسنى لنظارة الأوقاف أن تقدم للأمة المصرية خدمة لاحقة بذاتها بدلا من صرف نقودها بين الماء والطين ، وبناء معابد قلما يوجـد فيهـا من المصلين أحـد ، بل بهذا كانت تقيم الهياكل الالهية فى قلوب المؤمنين وتزيد فىعدد المصلين الحقيقيين ، فان ضاقت بهم المساجد وجدوا بأنفسهم الوسائل لتوسيعها ، واقامة ما تدعو اليه الحاجة منها ، وكانت توجه نظارة الأوقاف الى هذا المشروع بناء على ما عرضه رئيس تحرير الجريدة الرسمية أيضا ..

اصلاح نظام العسكرية

وقد وجهت الحكومة عزيمتها لاصلاح نظام العسكرية ، فبعد أن قررت مدة الاقامة فى الخدمة العسكرية بخمس سنين ورجوع العسكرى الى أهله بعد ذلك تحت الاحتياط مدة ست سنين ، ثم محو اسمه بعدها من دفاتر العسكرية .. رأت أن الضباط الكبار منهم لايمكن أن يكونوا من العساكر المقترع عليهم ، لأن المدة المقررة للخدمة لا تكفى فى أن يصل العسكرى الساذج الخالى من المعارف العسكرية الى درجة تؤهله لأن يكون ضابطا ، فلا بد أن يحصر تعيين الضباط فيمن ينال المعارف العسكرية بالتحصيل فى المدارس الحربية لا غير وهو رأى معقول ، لايخطىء مصلحة البلاد ..



الفصل الثالث

حكومة توفيق

كانت حكومة الخديو توفيق موجهة فى أوائل عهدها الى ما فيه الخير لمصر وأهلها ، ولم تكن قائمة على الاثرة أو الاستبداد بالسلطة ، وقضاء شهوة الحاكمين وأعوانهم ، وكان توفيق عفيفا لين الجانب يميل للتحبب الى الرعية ، وتعرف أحوالها بالسيـاحة فى المدن والعواصم المصرية .. وكان بعيدا عن الاسراف ، وقد اكتفى بزوجة واحدة ، وترفع عن ارتكاب ما كان يرتكبه غيره (١) من الأمور الفاضحة ، فاجتمع له فى نفوس الرعية المهابة والمحبة ، وهما أقوى سند للحاكم ، وأشد ركن يعتمد عليه ، وهما الصفتان اللتان يبنى عليهما الملك والسلطان .. والسعيد كل السعادة من الحاكمين من هيأ له القدر أن يكون فى حكمه مهيبا محبوبا ..

وكان فى ذلك الحين متفقا مع أعضاء حكومته ، وسائر كبار الموظفين على ما يخفف عن الرعية أثقالها ويرقى عقولها ، ويحسن أحوالها ، ويهذب آدابها ، ويفتح أبواب السعادة لها فى المستقبـل . وكان حريصا على تمسكه بولايته ، وتقوية سلطانه ، وقـد رفع ذلك قدره أيضا فى نظر الاجانب ..

وقد تناسى الناس فى ذلك الوقت ما آتاه بعد توليه العرش من النفى بغيرمحاكمة ولا تحقيق، ومسارعته فى تعيين المراقبين الاجانب ، واعطائهم الحقوق الواسعة ، حتى كادت تندمل تلك الجراح بالقاء تبعة تلك الاخطاء على غيره ..

وقد وفق الى وزارة كان رئيسها ومعظم وزرائها من خيرة الرجال ومن

(١) يريد والده الخديو اسـماعيل ، وماكان يأتيه فى عهده من الاسراف والمآثم

أحسنهم أخلاقا . ولم يكن لأكثرهم غرض سيىء أو شهوة فى الاستبداد بالأمر ، ووضع من دونه تحت قهره وسلطانه ، واستعباد الرغائب والارادات لرغبته وارادته ، وجمع ما تيسر له جمعه مدة استعلائه على كرسى الوزارة (١)

وقد كان لهذه السيرة تأثير حسن وقتئذ فى نشاط العقول ، وحفز الهمم ، والاحساس بالأمل فى أن يكون بمصر من قوة الارادة ونفاذ البصيرة ما يمكن المصريين من حفظ ما بقى لهم ، واسترداد ما ذهب منهم على مدى الزمان ..

وقد قنع العقلاء من طلاب الحرية العارفين بحاجات البلاد الناهضين بقدر استطاعتهم الى بلوغها أقصى أمانيها ، مع نفوذ البصيرة فى شئونها ــ رضى هؤلاء بما شهدوا من أعمال الحكومة وانضموا فى العمل اليها وقبلوا ما كان فى جسم الحكومة من العلل ، اختيارا لأخف الضررين ، وخضوعا لحكم الضرورة مع قوة الأمل فى الشفاء . وقد سطع ضياء الآمال على وجه كل أحد حتى الساخطين على الوزارة ، اذ أحس هؤلاء الساخطون بشىء جديد من القوة ، وأن مطالبهم ــ على ما فيها من الطيش ــ سهلة التحقيق

وكان أهل الاصابة فى الرأى يتمنون لو استمرت سيرة الحكومة فى ذلك عشر سنين على الأقل ، فيأخذ الشعور بمنافع البلاد مكانه ، ويستوى سلطان الارادة السليمة على عرشه ، وترسخ الملكات الحسنة فى نفوس المستبدين .. وكانت زعازع الاستبداد تحيد بهم عما أعده لهم الكرم الالهى . وتعود الى النفوس سكينتها بعد ذلك الاضطراب الشديد، وعند ذلك كان يتهيأ لأهالى البلاد أن ينزعوا الى نظام آكمل مما أعطى لهم ، وأن يطلبوا سبيلا الى تخفيف شىء مما كان لايزال يثقل عليهم ..

ولكن .. وا أسفاه .. حال بلوغ تلك الأمانى أمور ــ منها : ما كان منشؤه رياض باشا نفسه وبعض النظار ــ ومنها : ما له علاقة بالخديو

(١) كان اسم الوزارة والنظارة اسمين مترادفين فى ذلك العهد

توفيق ، ومنها : ما سببه امتداد السلطة الاجنبية الجديدة — ومنها : نهوض الساخطين لاستعمال ما وجدوا فى ذلك من الوسائل لاثارة الفتنة لقلب وزارة رياض باشا ..

صفات رياض باشا

رياض باشا خير رئيس من طبقته [1] من المصريين بلا نزاع ، والمنازع فى ذلك مكابر ، وفيه من محامد الصفات ما لاينكره العدو المنصف ، ولكن يصحب هذه المزايا ما قد يؤاخذ عليه ..

رياض باشا ذكى بالفطرة ، وقد اكتسب بالتجربة فى الاعمال الادارية ما لم يكتسبه سواه ، ولكن معارفه جزئيات متفرقة يعوزها كلى يرجع اليه ، ولم يكن لديه علوم كلية ترد اليه الجزئيات ، فقد كان يقيس الجزئى على مثله وربما لا يكون بينهما جامع الشبه تماما ، فيقع فى الخطأ

فى رياض باشا همة وقوة وعزم لا تنكر ، ولكن قلما يحوط ذلك بالحزم وبعد النظر فى العواقب ليتجنب ما يكره منها ..

صادق النية ، مخلص السريرة فى خدمة البلاد .. ولكن لا يبالى فى تأدية ما يراه واجبا عليه ، بما يجرح القلوب ويؤلم النفوس ، ويظن أن من الواجب على كل أحد أن يعلم حسن نيته وان لم يبينها هو ، وأن يرضى بعمله ، وان لم تظهر الغاية الصالحة منه ..

له نشاط فى العمل ، لا يصحبه كلال ولا ملل ، ولكن تأخذ الجزئيات من زمنه بعض نصيب الكليات ..

فى رياض باشا مزية التفويض للعامل فى عمله ، ومنحه كمال الحرية فيه اذا وثق به ، ولكن ليس عنده قاعدة يبنى عليها ثقته .. فتارة يثق بالأذكياء العارفين وبالصادقين ، وتارة بأضدادهم ..

اذا غضب على أحد مزج فى غضبه بين احساسه الخاص ، وما يتعلق بالعمل العام .. فيسقط المغضوب عليه من نظره ، وان كان فيه من

(١) كان الشيخ محمد عبده صديقا لرياض باشا . وكان يقدره لاعماله الوطنية فى اوائل وزارته

الفضيلة ما يعترف به العالم أجمع ، ويفوته الانتفاع منه ، ولهذا يحترم أحيانا من لايستحق الاحترام ، ويحتقر من يستحق الاكرام ، ويذم المتعصبين للأوهام ويجل الكثير من أفرادهم ..

***

يحب المصريين جملة ، وليس فى طبقته من يحبهم مثله .. ولكنه يحب أن يراهم فى أعلى درجات الكمال المنتظر ، فينادى عليهم بالويل ويرميهم بالنقيصة لأنهم لم يستطيعوا أن يتجردوا مما ألصقته بهم الأيام الظالمة ، وقد أعجزه هو نفسه التجرد من ذلك والخروج عنه ـ وهو يشبه الأب الشديد الحرص على اعلاء منزلة أبنائه الذى لم يسلك مسلك اللين فى تربيتهم وهو أهدى المسالك وأقربها ..

نظيف القلب بعيد عن المكر والحيلة .. اذا مال الى شىء أو نفر منه ظهر ذلك فى قوله وأسرة وجهه وحركات أطرافه ، فتراه يميل الى اخفاء سره ، وطهارة نفسه لتكون الغالبة فى اظهاره ..

يهاب ذوى النفوذ ، ولكنه كان يجد السبيل لمقاومة بعضهم اذا وجد من يسانده فى ذلك ، وهو أمثل طبقته فى ذلك ..

جرىء مقدام فى الأعمال .. كأن لا شىء يخيفه ، فاذا عرض له ما لم يستطع تذليله رجع الى أقصى ما يمكنه أن يبلغه من الاحتراس فينقطع العمل ..

لم يكن يخالج فكره ريبة فى خلود المصريين الى الطاعة فى كل ما يؤمرون به حملا لهم على سالف عهدهم ، فكان فى غاية الطمأنينة من ناحيتهم ، فلم ير أنه يجب أن ينظر فيما عساه أن يثيرهم من جهة المقابلة فى تنفيذ السلطة ، أو من ناحية الساخطين عليه من الوطنيين والاجانب ..

عثمان رفقى باشا

كان ناظرا للجهادية ، وكان رجلا ساذجا محدود الادراك (١) ، بعيدا

(١) مدح الامام رياض باشا واعضاء وزارته واستثنى عثمان رفقى باشا الذى كانت صفاته واعماله من أهم اسباب الثورة العرابية

عن التبصر فى العواقب ، لم يكن يهمه بعد قبض راتبه الشهرى سوى أن يرضى ميله ، ويروى ظمأه الى حصر السلطة العسكرية فى بنى جلدته من الجراكسة ، وتجريد من ساء حظهم بالولادة فى مصر منها ، مع معاملتهم بالاحتقار ، وكان يطيع فى ذلك تلك العصبية الممقوتة التى كان عليها بعض الغفل من الجراكسة المقيمين فى مصر ، كأن مصر وأهلها جنوا عليهم جناية مست آباءهم أو تعقبت أدبارهم ، أو كان أهل مصر سلبوهم شيئا مما كانوا يملكونه ، أو منعوهم حقا كانوا أهلا لأن ينالوه ..

مآخذ رياض باشا

بعد ما تبين من سيرة رياض باشا وصفاته ، وهذا البعض من نظاره ، يمكن أن نحدثك عن نتائجها ، وما يؤخذ على رياض باشا فى أعماله :

١ ــ لا شك ان ابطال رياض باشا للسخرية كان عدالة لا تنكر ، ولكنه أحنق عليه جميع الوجهاء الذين كانوا يستغلون أبدان الرعية وأموالهم ، ولم يكن ذلك ضارا لولا ما صحبه من استعلائه على هؤلاء الوجهاء وتعريضه بسوء ماضيهم ، حتى رأوا أنه ينبغى لهم التخلص مما يمس كرامتهم ، فألفوا لمقاومته جمعية تسمى « جمعية حلوان » (١) كان فيها « م . ش . باشا » و « ح . ش . باشا » و « ع . ل . باشا » وغيرهم ..

فلما خاب سعيهم ، تربصوا به الدوائر ، وكان قد اشتد على بعض الجرائد .. فألغاها لأسباب لم تكن قوية ، فمنح بذلك خصومه آلة تهيج الآراء لمقاومته ، فذهب «أديب اسحق» أحد محررى تلك الجرائد الملغاة الى أوربا ، وأنشأ جريدة سماها « القــاهرة » ، لم يكن لها موضوع سوى رمى رياض باشا بالاستبداد والظلم والرغبة فى بيع البــلاد الى

(١) عرفت هذه الجمعية بالحــزب الوطنى فيما بعد، وقد نشرت فى٤ نوفمبر سنة ١٨٧٩ م بيانا سياسيا انتقدت فيه سياسة رياض باشاومن بين اعضائها محمد شريف باشا ، وحسن شريعى باشا ، وعمر لطفى باشا ، واسماعيــل راغب باشا ...

الاجانب حتى كانت تسميه (رياضستون) وكان ينفق على تلك الجريدة الخديو الاسبق (اسماعيل) وأعضاء هـذه الجمعية . وكان الكثير من الساخطين يتلذذون بتلاوتها كما يتلذذ المريض بحكاية علتـه ووسائل شفائه

٢ ـ زاد حنق أكثر الاغنياء عليه بزيادة مائة وخمسين ألف جنيه فى أموال الأطيان العشورية ، وهو لم يبين الضرورة الداعية اليها ليتضح عذره ، فانتهز الفرصـة نوبار باشـا وألب كثيرا من الاعيان للمظاهرة بالشكوى من الظلم والاستبداد الذى يحل بهم ، وقد كثرت الاجتماعات لذلك ونفى « حسن موسى العقاد » بتهمة انه كان سببا فى اثارة المتظلمين وبارح نوبار باشا مصر بتنبيه يقال انه صدر اليه ، ولكن جرح الاغنياء لم يبرأ ألمه بذلك

٣ ـ وثق بمن لم يكن أهلا للثقة من المديرين ، فأساءوا الى وجهاء البلاد .. ولم يكن يسمع الشكوى فيهم لاعتقاده أن أولئك الوجهاء هم أصل شقاء البلاد . وهـذا صحيح فى الاغلب ، ولكن ليس من الحزم جعله عاما . ولهذا وقر فى نفوس الاعيان ان رياض باشا عدوهم الاكبر الذى يريد اسقاطهم واقامة من دونهم مقامهم ..

٤ ـ اهتم بتقرير الأمن كعادته فى كل وزاراته كأن البـلاد فى حرب دائمة ، وأعطى المديرين فى ذلك سلطـة أساءوا فى استعمالها فأخـذوا بالظن ، ونالوا من كثير بالشبه ، فأزعج بذلك نفوس الباقين فخافوا أن يصيبهم ما أصاب غيرهم بغير حق ولا عدل

واذا صوبنا النظر الى ما دون المرتبة العليا من مراتب الانسانية ، وهى المرتبة التى يصل فيها الى منازل الملائكة فى كمال الصـفات وأخـذنا الانسان من وجهة البشرية ، رأينا أن المنافع العامة مهما عظم مقدارها ، وعم أثرها ، لا تصرف الشخص عن نفسه ، ولا تنسيه منافعه ومضـاره الخاصة به .. فما الظن بقوم تنقصهم التربية وتعوزهم البصيرة ، وقـد شعروا بشىء من القوة لايدرون كيف يستعملونه . فمن مسـه ظلـم

المأمورين ولم تسمع شكواه — ومن يترقب أن يؤخذ بما آخذ به غيره بغير محاكمة عادلة ، ومن نكبته شبهة مخيلة لا حقيقة لها — ومن يخاف أن يتمثل فى خيال حاكم جاهل بصورة لا تعجبه فيناله ما نال صاحبه ..

كل أولئك وان كانوا لاينكرون فضل الحكومة فيما أتته من الاصلاح، كانوا يطلبون تغيير هذه الحال بما هو أدعى للسكينة والاطمئنان وتوفير المنافع . وأنزه الناس غرضا ، كان يؤمل أن رياض باشا ينتبه الى ذلك من نفسه بما تكشفه التجربة فى زمن قصير أو طويل .. أما الضجرون ومن لا تبلغ المصالح العامة من نفوسهم مبلغ أدنى مصالح الخاصة فضلا عن أقصاها ، فقد كانوا يتمنون سقوط وزارة رياض باشا من ساعة الى أخرى ، ولا يكفون عن الطعن فيها والتنديد بها بكل ما استطاعوا تلك الرغبة كأنها قد وجدت من حسن نية الحاكم عوضا عن اشتراك اسماعيل باشا والايام الاولى من حكومة الخديو توفيق — تلك النزعة الى تأسيس الحكومة على قاعدة الشورى ومنح بعض منتخبين من الاهلين حق المشاركة فى كليات أعمال الحكومة فى القضايا العامة ، وفترت تلك الرغبة كأنها قد وجدت من حسن نية الحاكم عوضا عن اشتراك الرعية فى الحكم .. لكن تلك النزعة انبعثت مرة أخرى بعد مدة من الزمان لهذه الاسباب التى سبق ذكرها ولأسباب سنذكرها ، فرجع التحدث بين الناس الى ما كان عليه ، وأخذ الناس يقولون لا صلاح فى الاستبداد بالرأى وان خلصت النيات ، فرأى واحد عرضة للخطأ وان تحققت نزاهته من الغرض

رياض باشا لم يكن يعرف ان فى البلاد من يطلب هذا الأمر طلبا صحيحا ، لأنه لم يختبر الناس ولم يصغ حق الاصغاء الى ما كان يدور بينهم . وكان يعتقد أن فى مجلس الشورى تعويقا عن الاصلاح المطلوب ، لأن أعضاءه تعوزهم الخبرة بالأحوال السياسية والادارية .. فلا ينتظر منهم الا المعارضات واطالة البحث فى أمور تجب فيها السرعة . وكان يوافقه فى هذا الرأى كثير من العقلاء ، ويتمنون مع ذلك أن يبدأ بشفاء

هذا الغليل بعد حل المشاكل المالية ووضع قانون التصفية وتأليف لجنة المراقبة الثنائية .. وحل أهم المسائل السياسية ، اذ لم يبق بعد ذلك الا الشئون الداخلية والقضائية ، وكان يمكن تخويل المجلس بعض الحقوق التى منحها الأمر العالى من قبل والتوسع فيها بعد ذلك بالتدريج ، وقد خاطبه بعض الوجهاء بذلك فرفض رفضا باتا . فكان ذلك مما زاد الحالة سوءا . ولو انه أجاب بالرفق ، ووضع المسألة موضع البحث ، وطاول فى بتّها سنين ــ لكان قد أرسل الآمال تسرح فى فسحة من النظرة ، ولم يكن قد دعاها بالشدة الى الانضمام الى من يؤلب عليه ، ويثير الأحقاد حواليه

توفيق باشا والثورة

بعد امضاء قانون التصفية ، واطمئنان الحكومة من ناحية الاوربيين ومشاكلهم ، وجد الخديو فراغا من الزمن يمكن أن يسمع فيه أو يلاحظ ماله مساس بسلطته التى كان يمكن أن يحافظ عليها ، من جهة انه خديو وحاكم أعلى فى مصر . ولكن أضعفتها أمور منها :

١ ــ لين عريكة الخديو توفيق ، ورعايته لجانب والده ، بعثاه على ابقاء الكثير ممن كانوا فى خدمته فى معيته السنية . وأغلبهم كانوا ممن لا يقيمون لمصالح الرعية وزنا ، ولم تألف قلوبهم الرحمة والشفقة على الأهالى ، ولهم مطامع لا تهدأ بعد ما ذاقوا من لذائذها الماضية ما ذاقوا

هؤلاء يعز عليهم أن يروا السخرة الشخصية قد أبطلت ، والسلطة الادارية قد قيدت ، وتحول مجراها عن رجال المعية الى ناحية النظارات .. ولم يبق لهم التصرف المطلق فى الاعمال والمصالح كما كان لهم من قبل ، بل أحسوا بأن من الأحكام العمومية ما يجرى عليهم كما يجرى على أفراد الاهالى ، وهذه غضاضة فى نفوسهم لا يسهل عليهم الصبر عليها .. فوجدوا من ذلك على رياض باشا ظنا منهم انه هو السالب لتلك الحقوق المكتسبة

٢ ــ ميل الخديو توفيق الى أن يكون محبوبا من رعيته ، كان يبعثه على افاضة الاحسان بالرتب والنياشين على من يراهم أهلا لولائه أو على الوعد باجـابة بعض المطالب المعروضة عليه من ذوى وجـاهة أو من متوشحين بوشاح ضرورة ، وقد كان عهده بالسلطة الخديوية أن لا تعارض فى مجراها خصوصا اذا كانت متجهة الى ما لاضرر فيه بالرعية حسب اعتقاده ولا يمس مصالح الأجانب .. لكن رياض باشا كان يجد فى كثير من ذلك موضعا للمعارضـة ، وهو مع خلوص نيته فى خـدمة الخديويين لايستطيع اخفاء ما فى نفسـه من غيظ أو ضجر مما لا يراه حسنا ، فكان يظهر فى أقواله ما ربما يخدش نفس الخديو ، وقد كان يأتى فى بعض مقاله ما يشير الى التهديد بالاجانب ووكلائهم ، كما أخبرنى به الصادق فى روايته

ورأى الرابضون حول الأريكة الخديوية علامات الانفعال تظهر مرة بعد أخرى على وجه الخديو ، ففتح لهم بذلك بابا يلجونه لشفاء ما فى نفوسهم ، فأخذوا يستنزلون الخديو الى بث ما فى نفسه فيفيض بما كان يجده وهم يفيضـون فى شرح الأقوال وتوسيـع دائرة المقصـود منها وتحميلها ما لا تحتمله ، كأنهم مشايخ معممون ، يلقون دروسا على طلبة فى الأزهر ، والخديو يسمع منهم ويستريح الى ما يقولون ، وقد انتهى به نفسه ويمضى بها وقته ، وكان غيظه يزداد على رياض باشا كلما بدت أثناء خطابه وهيأة جلوسه وما يرى فى مشيته من دلائل الخيلاء فى زعمهم وما شابه ذلك

كان توفيق باشا يجد فى ذلك نزهة لخاطره ، ونوعا من التسلية تسر به الأمر الى انه كان يسمح لبعضهم بتقليد رياض باشا فى كلامه وحركاته منه معارضة فى أمر صغير أو كبير بما كان يصوره أولئك المتملقون .. وكلما رأى رياض باشا علائم الانفعال ، اشتـد ضجره ، وكلما اشتد ضجره وظهر فى قوله أو فعله .. التهب غضب الخديو عليه ، وان لم يكن يظهره له حتى انتهى الأمر فى أقل من سنة بعد امضاء قانون التصفية الى

أن الخديو توفيق لم تكن له أمنية الا عزل رياض باشا .. لكنه كان يظن أن قناصل الدول ، خصوصا قنصلى فرنسا وانجلترا يعارضان فى عزله لو أراده ، فأخذ يلتمس الوسائل لفصله من وجه يحمل الدولعلى الرضا به بدون معارضـــة ، فاستلفت بعض من حوله نظر جنـــابه الى الحادثة القريبة العهد التى كانت سببا فى عزل نوبار باشا من رئاسة الوزارة أيام الخديو اسماعيل فرآها أنجح الوسائل

اثارة الخديو للضباط

أخذ الخديو توفيق من ذلك العهد يقرب منه أمير الالاى الاول الذى كان يحرس السراى وهو « على بك فهمى » ويستـــدعيه الى مجالسه الخاصة ويمازحه ويزج به فى الحديث على اختلاف شئونه ، ويظهر له أمانيه فى الاحســان عليه ، وعدم وجود السبيل الى ذلك ، حتى قال له مرة : « انى أردت الانعام عليك بألف جنيه ، ولم يمكن ذلك لمعارضة رياض باشا » ومرة قال : « انى أردت الاحسان عليك برتبة اللواء فلم يقبل رياض باشا » وأمثال ذلك ، حتى اعتقد على بك فهمى ان الخديو توفيق ساخط على رئيس نظاره ، وان رئيس نظاره عدو منفعته ومنفعة اخوانه .. وعلى المألوف عندنا لم يخف شىء من ذلك عن بقية الضباط الكبار ، بل ولا على كثير من الخاصة ومن يحبون الوقوف على حقائق ما كان يجرى حولهم

وزير الجهادية « الحربية »

كل هذا وعثمان رفقى باشا يشتد فى معاملة الضباط الذين جنى عليهم آباؤهم بولادتهم فى مصر ، ويهيىء المشروعات لاراحة القوة العسكرية منهم .. فماذا كان يدور من الحديث بين على فهمى واخوانه الضبـــاط الفلاحين ؟.. وماذا يتصورونه فى منزلة رياض باشا من الخديو ، وماذا يتخيلونه فى ميل جنابه الى فصله ، وماذا جسمته أوهامهم من معـــاداة رياض باشا للضباط ، حتى اقتنعوا بأن كل ما يقع من عثمان رفقى فانما هو من رئيس النظار ؟.. ولينظر ماذا يهجسون به من وســائل التخلص

من رياض باشا ورفقى باشا معا ، على ظن أنهم لو فعلوا شيئا من ذلك .. فانما يفعلون ما يرضى خـديويهم ، ثم تأمل فى الاعاليل التى يمكن أن يتخذوها حجة على أن ما يعملونه فى هذا السبيل موافق للصواب آت على وفاق الشرع

نفوذ الاجانب

كان نفوذ الأجانب سببا من أسباب الثورة العرابية ، فان ضبـاط الجيش المصريين وغيرهم لمـا اسـتراحوا من بعض المظالم .. انفسحت آمالهم فى استكمال الشفـاء مما بقى من علل والتنبه لها وزيادة التألم منها ، كالمريض يشعر بالألم بقدر الأمل فى الشفاء ، وبهذا التنبـه ظهر لهم : أن قانون التصفية وضعه الأجانب لمصلحة الأجانب ، وانه حرم البلاد حريتها ، وان الاجانب يتقاضون رواتب باهظة من الخزينة فى ادارة المراقبة العموميـة وصندوق الدين والدومين والدوائر السنية وسـائر المصالح التى وظفوا فيها مع ادعاء فقر الخزينة والبلاد ، وانهم هم أصحاب الكلمة النافـذة فى الادارة والمـالية ، وهم يعملون لمصالحهم لا لمصالح البلاد

فالحكومة الخديوية أصبحت تابعة لحكومات أخرى لا تهتم بسعادتها ولا شـقائها الا من وجه ما تبقى قادرة على تأدية ديون رعاياها وتقديم الرواتب الوافرة الى المنـدوبين من قبلهـا .. فقسوة الأجانب المرابين وسيرة المحكمين منهم مما أوقع فى خواطر الملمين بذلك ان حقيقة الظلم واحدة ، وانما طورها الجديد أرسخ أساسا وأضبـط نظـاما ، وأظهر استعدادا للخلود فلا محيص عنه ، فلو استطال سلطانه وامتد من دائرة الى أخرى آل الأمر الى وقوع البـلاد فى شـدة منظمة وضيق محكم الحلقات

وقال الامام :

ــ ان ماكان يقوله الساخطون على رياض باشا وماينشرونه فى الجرائد

التى تطبع فى أوربا ، وما ظهر من المنشورات والرسائل الدالة على أن الحزب الوطنى يرى ما قررته لجنة التصفية وما أشـار به المراقبون لا ينطبق على رغبته وأمانيه للبلاد .. كل ذلك كان يهيىء الفرص للناقمين على رياض ، حتى ان الاجانب لم يكونوا راضين عنه لأن ربحهم فى البلاد قل بحسن سيرته . وقد حصل نزاع بينه وبين البارون درنج قنصل فرنسا الجنرال بشأن قانون المحاكم المختلطـة ، اذ كان الباشـا يريد تخفيف امتيازات الاجانب فيه ، والبارون يأبى ذلك .. فأخـذ يسعى فى ايجاد الطرق لعزل رياض باشا

تالب الضباط

رفع بعض الضباط عريضة الى وزارة محمد شريف باشا التى سبقت وزارة رياض باشا ، يلتمسون بها عزل ناظر الجهادية تعللا برداءة الطعام وعدم النظر فى أحوال المستودعين وأرباب المعاشـات .. فلم يهتم ناظر الجهادية بالبحث فى ذلك ولا فى أسبـابه ، ولم يسع لتفريق من جمعتهم تلك النزعة ، ولم يسلك مسلك رئيس النظار فى المصالح التى تولاها بأن يحمل العسكر على الأخـذ بالأعمال العسكرية وتعاليمهـا ، ولم يلزم الضباط احياء الآداب العسكرية واعادة النظام السليم اليها ، بل اشتغل بتقريب زيد والتحامل على عمرو وزيادة التفرقة بين المصرى والجركسى ، وترك كبار الضباط هملا بغير عمل

ولما جاء وقت وضع الميزانية ، وعزمت الحكومة على تنقيص الجيش فى أواخر سنة ١٨٨٠ الميلادية وحصر ترقى الضباط فى المتعلمين بالمدارس الحربية .. اضطربت أنفس الضـباط المصريين ، واعتقدوا لسـوء ظنهم بالوزارة أن هذا النظام انما وجد لقضاء شهوة ناظر الجهادية فاجتمعوا للتشاور فى أمرهم

عبد العال وعلى فهمى

وبينما هم كذلك ، أحال عثمان رفقى باشا عبد العال (١) على الاستيداع ، وأقام أحمد عرابى مقامه . واتفق أن انحرف الخديو عن على بك فهمى أمير الالاى الاول ، وأبدى رغبته فى نزع سلطته عن « بلك » الموسيقى الخديوية وفرقة المراسلة .. وهو يعلم من سخطه على رياض باشا ما يعلم ، ويعتقد أن سلطته لا تنهض بالتخلص منه .. فخاف أن يحل به ما حل بعبد العال وأن يبدل بجركسى ، فانضم الى من أصابهم الظلم وكشف لهم حال الحاكم والحكومة كما سمع وعلم من الخديو نفسه

احمد عرابى بيك (٢)

وقد كان أحمد عرابى بك (وقتئذ) ينظر الى رؤسائه من الجراكسة نظر العدو الى عدوه ، وكان يحتقرهم فى نفسه لاعتقاده أنهم دونه فى المعرفة ، ويرى انه أحق منهم بالرتب العالية التى كانوا يتمتعون برواتبها وبنفاذ الكلمة فيها ، وربما لم يكن مخطئا فى الكثير منهم ، وكان أجرأ

---

(١) عبد العال بك هو الميرالاى على بك حلمى حشيش قائد الاى طره . وعلى فهمى هو الميرالاى على بك فهمى الديب قائد الالاى الاول « الاى الحرس الخديوى »

(٢) ولد احمد عرابى فى ٣١ مارس سنة ١٨٤١ م فى قرية « رزنة » من مديرية الشرقية بالقرب من الزقازيق وكان ابوه شيخ البلد . وهو من عائلة بدوية استوطنت تلك القرية من عهد جده وقد تعلم فى قريته خمس سنوات ، ثم دخل الازهر فمكث به اربع سنوات ، ثم انتظم فى الجيش المصرى فى سنة ١٨٥٤ م . ولذكائه وتعليمه ترقى فى الجيش الى ان صار وزيرا وقائدا للثورة وقد زاد من بغضه للجراكسة بالجيش اضطهادهم للضباط المصريين . وقد حدث فى عهد الخديو اسماعيل ان وقعت بينه وبين اللواء خسرو باشا الجركسى مشادة أدت الى تقديمه الى مجلس عسكرى والحكم عليه بالسجن ٢١ يوما فاستأنف الحكم امام المجلس الاعلى للجيش ، فقضى بالغاء الحكم الابتدائى فحدث خلاف بين وزير الجهادية الشركسى واسماعيل سليم باشا ورئيس المجلس الاعلى على باشا سرى لان الوزير كان يرغب فى تأييد الحكم الابتدائى فسعى لدى الخديو اسماعيل فى فصله من الجيش ، فتم له ما اراد . وقد اورثته هذه الحادثة بغضا شديدا للشراكسة . وقد ظل مفصولا بلا مرتبه مدة ثلاث سنين ، ثم سعى له بعض المقربين للخديو اسماعيل فأعاده برتبته العسكرية ، فتأصلت فى نفسه روح الكراهية لرؤساء الجيش من الجراكسة والترك الذين كانوا سببا فى تأخير ترقية الضباط المصريين ومنهم عرابى فقد ظل برتبة قائمقام تسعة عشر عاما . وهذا الاضطهاد كان من اسباب الثورة

اخوانه على القول وأقـدرهم على اقامة الحجة ، فلمـا شرعت نظـارة الجهادية فى عملها الجديد ، وبدأت باستيداع عبد العال .. غلب على ظنه أن ما يصل الى عبد العال اليوم يصل اليه غدا ، فيحرم مما يرى نفسـه أحق بالتمتع به ، ووجد هو واخوانه فيما كشفه على فهمى من النفرة بين الخديو ورياض باشا سبيلا للجرأة على مقاومة تلك المشروعات ، ففزع الى رئيس النظار وشكا اليه ما أصاب عبد العال .. فقبلت شكواه بعد تردد استمر مدة أيام وأبقى كل فى وظيفته

احمد بك عبد الغفار

كان قائمقام سوارى (فرسان) وكان بينه وبين ناظر الجهادية منافرة لأمور أهمها ، تقاربهما فى درجة الفهم وتزاحمهما على هنة واحدة ، فكان كل يطلب الخلاص من الآخر ولا يجده . وعرف الخديو ما بينهما ، وشكا اليه عثمان رفقى تصرف أحمد عبد الغفار معه ، فكان من ثمرات ذلك أن الخديو كان يستدعى أحمـد عبد الغفـار فى طريق منتزه الجزيرة ، ويستوقفه ويحادثه الزمن الطويل مظهرا ميله اليه ، ويسـمع شكواه من عثمان رفقى ويعده بقبول شكايته ورفع الظلم عنه .. وهـذا مما كان يشجعه على مناوأة رئيسه ويزيد فى حقد رئيسه عليه

وبعد أيام ، كان عرابى وبعض شركائه فى النقمة من نظارة الجهادية فى وليمة ببيت نجم الدين باشا.. دعاهم اليها اثر قدومه من الحج . وبينما هم على المائدة ، قال اسماعيل كامل باشا :

« ان ناظر الجهادية أتى اليوم عملا لا يحمد عليه .. عزل أحمد عبد الغفار من قائمقامية السوارى وعين بدله « محمد شاكر بك » (١) فلم يتم أحمد عرابى عشاءه ، بل انصرف هو ومن كان معه من الضباط الى بيته .. وكان فيهم على فهمى وعبد العـال ودعوا أحمـد عبد الغفار ،

(١) محمد شاكر ضابط شركسى يدعى محمد شاكر طمازه . وقد قال عرابى حين علم بذلك الحادث : ان هذه لقمة كبيرة لا يقوى عثمان رفقى على هضمها . وعاد الى داره ساخطا ، فوجد كثيرا من الضباط ينتظرونه

وكتبوا تقريرا ضمنوه الشكوى من عزل أحمد عبد الغفار بلا محاكمة على خلاف القانون ، وذكروا أشخاصا آخرين عزلوا واستبدل بهم شيوخ قانون أوجهلة دونهم فى المعارف العسكرية ، وعددوا من سيق من الضباط الوطنيين الى السودان ونحو ذلك . وطلبوا احالة القضية على مجلس عسكرى ينظر فى جميع أطرافها ، فان كل لهم حق منحوه ، وان استحقوا عقوبة قبلوها . وطلبوا عزل ناظر الجهادية لاختلال أعماله وميله عن النظام طاعة لميل خاص

رياض باشا والضباط

رفعوا نسخة من هذا التقرير الى الخديو ، وأخرى الى رياض باشا ، بامضاء أحمد عرابى وعلى فهمي وعبد العال حلمى بالنيابة عن جميع الضباط المصريين .. فبقى التقرير ١٧ يوما تحت المداولة بين الخديو ورئيس نظاره ، وكان من رأى رياض باشا أن يجاب طلبهم فى تأليف المجلس العسكرى ، ولكن الخديو لم يقبل ذلك

شاع هذا الخبر بين الناس على حسب العوائد فى مصر .. علم الكثير من الأعيان والعلماء والموظفين باصرار الضباط على طلب هام فى الوزارة ، وأحسوا بخلاف بين الخديو ورئيس نظاره .. فهب عند ذلك جميع الراغبين فى تغيير الحال من علماء وأعيان وذوات كرام ومقربين من الخديو ، واتحدت وجهتهم فى الغاية وان اختلفت فى الدواعى والبواعث.. فطلاب مجلس النواب يؤملون فى التغيير أن ينالوا تأليفه ، والمتضجرون من استبداد بعض المأمورين والخائفون من أن يؤخذوا بالشبه .. يرجون بالتبديل كشفا لكربتهم وأمنا على أنفسهم ، والواجدون من السلطة الاجنبية يرجون شفاء شىء من وجدهم ، والذوات الكرام الطامعون فى رجوع سلطتهم على أبدان الرعية وأموالها يطمعون فى ارضاء شرههم والأجانب المرابين يتطلعون الى انقلاب تزيد به الشدة المالية حتى تتسع لهم طرق الكسب الماضية ، وقنصل فرنسا البارون درنج يسعى فى

الانتقام من رياض باشا ويجب أن يأتى خلف له يمكنه مجاراته فى مطالبه ، والجناب الخديو لايكره أن يتخلى رياض باشا عن رياسة النظار ، بل تلك أمنية من أمانيه ..

فأخذت هذه العوامل جميعها تشتغل لتقوية جانب الضباط وتشجيعهم على الالحاح فى الطلب ، وكل من وصل اليهم من أولئك بنفسه أو أمكنه أن يبعث اليهم من يعبر عن أفـكاره يؤيد لهم عدالة الطلب ، وموافاته للرغائب الوطنية ، وان ما يأتيه ناظر الحربيـة لايمكن الصبر عليه ، ثم كانت تأتيهم الأخبار بأن الخديو توفيق لا يأبى اجابة طلبهم بل يجب أن يمكن لهم أمنيتهم ، وانما رياض باشا هو الذى لايريد ذلك ، والله أعلم من أين كانت تأتيهم هذه الأخبار مع ان رياض باشـا كان يريد تحقيق الأمر حسب ما طلبوا فى تقريرهم كما قدمنا

زاد هذا كله فى جرأة الضبـاط .. وكلما طالت مدة التردد فى حسـم المسألة ، كثرت الاشـاعات وقويت عزائم المحركين وغلب الظن بضعف الحكومة ، وقد حصلت عدة مقـابلات بين رئيس النظـار وبينهم ، قال رياض باشـا فى احـداها لعرابى ومن كان معه : « ان ما أودعتموه فى تقريركم من طلب عزل الناظر ، يعد خروجا عما حدده لكم القـانون .. وتلك مهلكة سياسيـة فقد يخشى أن يعد الاجانب ذلك سبيـلا لزيادة تدخلهم فى الحكومة واشتداد وطأتهم عليها »

وأحس بذلك البارون درنج ، فأرسل الى أحمد عرابى واخوانه ، يقول لهم انه يسره ما يراه من صلابتهم فى عزيمتهم واشتدادهم فى المطالبة فى العدل فيهم ، فعليهم أن يثبتوا فى مطالبهم بما يهددون به ، فهو بصوت حكومة فرنسا يسند المطالب العادلة وليس فى الامكان أن حكومة متمدنة تقيم الموانع فى سبيل الناهضـين بطلب حقوقهم ، الساعين فى الانتصاف لأنفسهم ولأبناء بلادهم

الثورة العرابيـــــة

كان الضباط يتوهمون أن رياض باشا مؤيد فى منصبه بقناصل الدول ذات النفوذ بمصر ، وقد كان الخديو نفسه يظن ذلك ، فرأوا أن مقاومة وزارته مقاومة للدول ذات النفوذ فى مصر ، فلا يتعرض لها الا بوسائل الرفق واللين.. فلما قال قنصل فرنسا (١) الجنرال لعرابى ما قال ، انكشف ذلك الوهم ، وتحول الاتجاه من سؤال الخاضع ، الى الحاح المطالب ، فأخذ أحمد عرابى ، وعبد العال ، وعلى فهمى ، يدعون سائر الضبـــاط للاتفاق معهم على مقاومة كل ما تسنه نظارة الجهادية من نظام ضار بهم ، وطلبوا (٢) عزل ناظرها « عثمان رفقى » مثار تلك المخاوف

علا نداء الضباط بذلك وكثر الاضطراب ، فانعقـــد مجلس النظـــار برياسة الخديو للاسراع بحل هذا المشكل وحضره بعض رجال المعيـــة ، فكان من رأى رياض باشـــا أن يحال تحقيق ما فى التقرير على مجلس عسكرى . وكان من رأى ناظر الجهـــادية « عثمان رفقى » القبض على الضـــباط الثـــلاثة زعماء هـــذه الحركة ، والحكم عليهم بالعقوبة التى استحقوها بجرأتهم هذه ، ووافقه بعض النظار وجميع من حضر من رجال المعية ، وكان الخديو توفيق يؤيد هذا الرأى

وقد اســـتمر الجدال ذلك اليوم الى أن جاء وقت الظهـــر ولم يتقرر شىء ، فقاموا الى المائدة .. وبعد الفراغ من الطعام وقبـــل الرجوع الى

---

(١) هو البارون درنج السابق ذكره . وقد قال لعرابى : « انه يسره ما يراه من صلابتهم .. » الخ

(٢) طلبوا ذلك فى عريضة قدموها عن الضباط المصريين الاميرالاى الثلاثة عرابى ، وعبـــد العال وعلى فهمى الى رياض باشا فى ١٧ يناير سنة ١٨٨١ م

المداولة ، جاء أحد رجال المعية « طلعت » باشا ، الى رياض باشا وأسر اليه أن بعض الناس يتهم دولته بمجاراة الضباط والأخذ بناصرهم طمعا فى أن يملك قلوبهم ، ثم يستخدمهم فى الاستيلاء على الخديوية المصرية ! فلما عادوا الى الجلسة لبث رياض باشا صامتا ، وصارت الأغلبيـــة على رأى الخديو . وعندئذ سأل رياض باشا ناظر الجهادية : « هل تتحمل تبعة هذا الأمر » ؟ قال « نعم » وصدر الأمر بالقبض عليهم ، وسجنهم فى ٣١ يناير سنة ١٨٨١ . هذا ما حدثنى به أحد النظار فى ذلك الوقت ، ولا أظنه الا صادقا

ولم ينفذ الأمر الخديوى بقوة الحكومة وسطوتها كما جرت به العادة، ولكن سلك فى تنفيذه طريق الحيلة والغدر

اول فبراير سنة ١٨٨١

فقد كتب ناظر الجهـادية الى الضبـاط الثلاثة يدعوهم الى ديوان الجهـادية للمذاكرة فى ترتيب حفلة زفاف الأميرة جميلة شقيقة الجناب الخديوى ، أول يوم من شهر ربيع الأول سنة ١٢٩٨ هـ « الموافق أول فبراير سنة ١٨٨١ م » وهو اليوم التالى ليوم صدور الأمر بحبسهم — فلما وصلت اليهم الدعوة دهشوا لأن موضـوعها لا يحتاج الى مداولة ثلاثة من أمراء الالايات ، ولم يكن مثله بمعتاد ، ففطنوا للحيلة فى تلك الدعوة فى ذلك التاريخ .. فدعوا من يثقون بهم من الضباط وأطلعوهم على ورقة الدعوة ، فاقتنع الجميع بأن خطرا سيحل بالثلاثة ، ثم بكل من يشايعهم ، أو بكل ضابط مصرى على ما رجح عندهم ، فحملهم الحرص على حياتهم ووظائفهم وأقدم بهم علمهم بضعف الحكومة عن الانتقـام منهم ، لاضطراب أحوالها ، وما كان بها من اختـلاف عناصرها ، وما كانوا يتخيلونه من رضاء الكافة عما يفعلون .. أقدم بهم ذلك على أن يقاوموا الشر المنتظر بالقوة اذا اقتضت الحال ، غير مبالين بعاقبة ، وكان

فى الضباط الحاضرين كل من محمد عبيد (١) بكباشى فى الآلاى الاول ـ آلاى الحرس ـ وخضر خضر بكباشى فى آلاى السودان ، فأخذا على عهدتهما انقاذ الضباط الثلاثة اذا سقطوا

حادثة قصر النيل

وذهب الضباط الثلاثة « ظهر أول فبراير سنة ١٨٨١ » الى قصرالنيل ، يتبعهم عن بعد بعض العيون من جند الآلاى الأول .. فاذا الديوان غاص بالضباط وأمراء العسكرية ، فلما وصلوا الى حيث الناظر « عثمان رفقى باشا » تلا عليهم الأمر الصادر بسجنهم ، فجردوا من سيوفهم وألقوا فى السجن بعد أن قذفهم الحاضرون بالشتائم ، وكان أكثرها وأبلغهـا فى التحقير كلمة « فلاح » فعاد المقتفون لأثرهم ، وأبلغوا ضـباط الآلاى الاول ما رأوا ، فنهض البكباشى محمد عبيد بالعسكر الذى تحت قيادته لانقاذهم ، فاعترضه القائمقام الجركسى خورشيد بك بسمى ، فلم يسمع له قولا (٢) ، وشاهد الخديو حركتهم ، فأمر بروجى الحرس بأن يدعو ضباط الحرس الى السراى فدعاهم ، فلم يستجب له أحد ..

وانطلق بهم محمد عبيد الى قصر النيل ، فهجموا على الديوان فيه ، فأطار الرعب قلوب الحكام والضباط الموجودين ومعهم الناظر والوكيل « افلاطون باشا » ووثب كل منهم من نافذة يطلب الخلاص لنفسه .. فمنهم من كسر ومن جرح ، وفتح الجند معتقل الضباط الثلاثة عنوة ، فخرجوا ظافرين . وأرسلوا الى ضبـاط آلاى السودان وكان فى طره فحضر حالا ، والى آلاى العباسية وهو آلاى عرابى ، وكانوا قد قبلوا أميرهم (٣) الجديد الذى خلفه بعد حبسه ، والتمسوا العفو عنهم « من

(١) محمد عبيد هو الذى صار الاميرالاى بطل واقعة التل الكبير التى دافع فيها دفاعا مجيدا حتى استشهد ،كما انه كان بطل حادثة قصر النيل ،وهو اول من عمل لخلاص الزعماء الثلاثة من السجن . وهو من بلدة كفر الزيات بمصر ، ولم يفكر أحد فى تخليد ذكراه . اما البكباشى خضر خضر ،فقد لحق بجنده الزعماء عند عابدين ، واشترك فى وقائع الحرب

(٢) لما اعترض خورشيد محمـــد عبيد أمر الجنود باعتقاله ، فاعتقلوه بالقشلاق ...

(٣) كان الاى العباسية ، وهو الاى احمد عرابى غير مؤازر له فى اول الحركة ،ولما سجن عرابى وزميلاه فى قصر النيل ، وتعين خلفـاء لهم فى الاياتهم كان الضابط الجركسى محمودبك طاهر قد تعين خلفا لعرابى فى هذا الالاى ، فلماذهب الى العباسية لاستلام منصبه استقبله

الخديو» ثم بلغهم ماحصل فوقعوا فى «حيص بيص» . وقد خطب عرابى فى العسكر والضباط المجتمعين بعابدين ، وأثنى على اخلاصهم فى حب أمرائهم ، ثم أمرهم بوضع السلاح وأخذ يكتب الى القناصل ويستعد لمخابرة سراى عابدين

كان رياض باشا قد بلغه الخبر وهو فى نظارة الداخلية ، فجاء الى سراى عابدين وعرابى يرسل شكواه الى البارون درنج قنصل فرنسا الجنرال ويلتمس منه أن يبلغ جميع القناصل أن الضباط لم يأتوا عملا الا ما يقى أرواحهم ، ويضمن لهم اقامة العدل فيهم ، وأرسل اليه ورقة الدعوة الى ترتيب الزفاف ، وبسط الحيلة التى دبرها ناظر الجهادية للايقاع بهم ، وشرح له ما حصل لهم من سلب السيوف ، والحبس ، على انهم لم يأتوا جريمة سوى أنهم طلبوا عزل ناظر الجهادية ، وهو طلب عادل لسوء تصرفه .. فورد له الجواب من البارون درنج بالثناء (١) على عزيمته وثباته فى مطالبه العادلة ، وبشره بأنه لا خوف عليه ما دام الحق فى جانبه . فسر عرابى بذلك .. أما باقى القناصل فلم يجيبوه بشىء ..

ثم ذكر أن الخديو أرسل الى عرابى يسأله عن سبب هذه الفتنة ، فأجابه بأنه لايريد الا عزل ناظر الجهادية .. فقبل منه وعرض عليه عدة أشخاص على أن يكون أحدهم خلفا للناظر فلم يقبل أحد الى أن عرض عليه محمود سامى باشا (٢) ناظر الأوقاف فقبله .. فعين فى الحال ناظرا

ضباطه بالقبول والاحترام . ولما بلغهم اجتماع الاى الحرس والاى طره بعابدين مع الزعماء الثلاثة ، وعزل عثمان رفقى ، وقعوا فى حيص بيص ، ثم ذهبوا لعرابى ليلا ، واعتذروا فقبل عذرهم

(١) يقول الاستاذ عبد الرحمن الرافعى ان البارون درنج لم يرسل ردا لخطاب عرابى باشا يثنى فيه على عزيمته . ولكنه تدخل لدى الخديو لانصاف الضباط الوطنيين. وكانت نتيجة هذا التدخل طلب الخديو من رئيس جمهورية فرنسا عزله . واستشهد فى ذلك برسالة تضمنت ذلك أرسلها الباون الى وزير خارجية فرنسا (الثورة العرابية ص ٩٩)

(٢) ولد محمود سامى البارودى فى سنة ١٨٤٠ م وتوفى سنة ١٩٠٤ . وقد كان رجل حرب وسياسة وأدب . وكان عمره حين اشترك فى الثورة العرابية احدى وأربعين سنة . وهو ابن حسنى بك حسنى من ضباط المدفعية فى الجيش المصرى . وسمى البارودى نسبة الى ايتاى البارود بمصر التى كانت لاحد أجداده فى عهد الالتزام ويدعى مراد البارودى . وقد تخرج من المدرسة الحربية فى عهد سعيد سنة ١٨٥٥ م وسافر الى الاستانة ودرس اللغة التركية والفارسية وادابهما وعاد الى مصر فى اوائل عهد اسماعيل . وقد اشترك فى الحرب التركية الروسية سنة ١٨٧٧ م . وكان طموحا وقد تولى رياسة الوزارة فى عهد الثورة العرابية وقال عرابى فى مذكراته انه كان يطمع فى العرش

للجهـادية . فأرسـل عرابى يشكر الخديو على ذلك ، وطلب العفو عن العساكر والضباط فيما فعلوا ، فعفا عنهم . وصدر اليه الأمر بأن يصرف العساكر فى الحال ، فلم يمتثل بل أجاب بأنها تنصرف فى صباح الغد .. وبذلك انتهت الحادثة التى كانت تعرف بحادثة قصر النيل ..

نتائج الحادثة

كان فى استطاعة عرابى أن يطلب عزل رياض باشا ، بل يطلب اكثر من ذلك ، لما وصلت اليه الحكومة من ضعف كبير فى ذلك الوقت ، ولانحصار القوة بيد عرابى ، ولكنه كان غير مدبر .. فان طلاب التغيير لم تكن لهم ثقة بعرابى ومن معه ، حتى كانوا يفضـون اليه بما يريدون ، بل كانوا يظنون أن مجرد المقاومة والنزوع الى نيل مطلب ما بالعنف والوصول اليه بالقوة يكفى فى أن يقدم استعفاءه ، ولا حاجة الى التصريح به لعرابى ومن معه خوف الاخفـاق ، فيزداد عناؤهم اذا انكشف أمرهم ، فكانت الوساوس منحصرة فى تزيين ما همّ به الضباط من طلب حقوقهم ..

أما عرابى فلم يكن بباله ، ولا يهتف به فى منامه ، أن يطلب اصـلاح حكومة أو تغيير رئيسهـا .. فذلك مما كان يكبر على وهمه آن يتعالى اليه ؛ وانما الذى أحاط بفكره وملك جميع مقاصده هو الخوف على مركزه مع شدة البغضاء لمن كان معه من أمراء الجراكسة ، والمنافرة من عثمان باشا .. فلم يكن لهم سوى الامن والمحافظة على مقامه ، والانتقام من ذلك العدو ، والتغلب على ما كان بيـد الجراكسة من الوظـائف العسكرية .. قصد التمتع بما كانوا يتمتعون به من رواتب أو نفوذ ، لأنه هو واخوانه أبناء البلاد أحق من غيرهم بمزاياها الخاصة بأمثالهم ..

وجميـع المحركين له انما يأتونه من هذا الباب ، ولم يلفتوه الى أمر آخر ، فظن أن مقال الأعيـان والذوات الفخام ، وما يأتيه من الجانب الأعلى وما يسمعه من العـامة ممن بلغهم خبر طلبه من استحسانهم له وتصويبهم للثبات عليه ، انما هو لعدالة الطلب واعتدال الرغبة ، فحمل

له أنه بعمله هذا يرضى الجناب الخديوى والكافة وقنصل فرنسا أيضا ، بتطهير الحربية من ظلم ناظر الجهادية والجراكسة فانحصر طلبه فى عزل عثمان باشا ، أما ما بقى من سلطة الجراكسة فيسهل ازالته بعد ذلك ، وقد تحقق هدف عرابى ، ولم يستعف رياض باشا ..

أجال رياض باشـا فكره فى أسباب هـذه الجرأة التى أقدمت بهؤلاء الضباط على تمزيق حجاب الهيبة المضروب بينهم وبين الحكومة ، مع انهم ليسوا الا مصريين قد عرفوا بالاستكانة للسلطة ، وتنزيه الحاكم عن أن تتطاول اليه الأوهام بالمقاومة ، فضلا عن الألسن والأيدى ، فانحصرت كل الاسباب عنده فى البارون درنج قنصل فرنسا الجنرال ، وان صفته هذه وجهره بمساعدتهم هو الذى نفخ فيهم هذا الروح ، ولولاه لم ينبض فيهم عرق ، ولم ينطق لهم لسان .. لهذا سعى لدى الجانب الخديوى فى أن يطلب من رئيس الجمهورية استدعاءه من مصر فورد الجواب بقبول الطلب وعين خلفا له مسيو سينكفكس Scienkiewicy

لم يدر فى خلد رياض باشـا ان البارون درنج كان العلة المتممة وان هناك أسبابا أخرى سبقت سعيه وهو ظهور الانحراف عنه من كل جانب وان الفتنـة لا تسـكن ما دام فى الوزارة غير مرضى عنه عنـد الجناب الخديوى ، مضايقا لمن يحفون بسموه ، رافضا البحث فى تأليف مجلس النواب الذى تطلبه الأمة ، واثقا بضعفاء العقول من الحكام ، مناصبا للذوات الفخام بلا مجاملة ، غير آخذ برأى الا ما يراه حسنا ، وما يعده خيرا للبلاد بلا التفات الى ما يخفف مرارة الحق ان كان محضا ، ويجلو جمال النية ان كانت صالحة ..

ولهذا اكتفى ــ بعد ابعاد البارون درنج ــ بالتفويض لناظر الجهادية الجديد سامى باشا فى ازالة أسباب الشقاق المخيم فى المراكز العسكرية ، والأخذ بزمام هؤلاء الضباط ، وردهم الى النظام وتسكين نفوسهم الى الطاعة ، وأما ما بقى من الاسباب الحقيقية للفتنـة .. وهو ما فى نفوس أهالى البلاد من الميل الى تغيير السيرة الحاضرة وما تمكن فى قلب الجناب

الخديوى من النفرة منه ، فانه لم يلتفت اليه رياض باشا لسقوط ذلك كله عن منزلة الاهتمام من نفسه ..

دسائس الخديوى توفيق

لم يكن يخطر ببال الخديو توفيق فى ذلك الوقت أن الأمر يصل الى هذا الحد ، وانما كان الخديو يتظاهر أمام بعض الضباط بانحرافه عن رياض باشا ، ويلمح لهم أن رئيس النظار هو عدوهم .. وهو الساعى فى تقنيل القوة العسكرية ، وفى ايجاد النظامات التى تحرم كثيرا من أبناء البلاد ثمرة أعمالهم فى الجندية ونحو ذلك ، ثم هو يميل فى مجلس النظار الى أخذ الضباط الثلاثة غيلة وتجريدهم من سيوفهم قبل محاكمتهم ..

كل ذلك كى يحدث أزمة تضطر رياض باشا الى أن يستعفى من الوزارة

عرابى بعد الحادثة

كان الجناب العالى ينتظر أن يستعفى رياض باشا بمجرد الاصرار على صدور الأمر بحبس الثلاثة على خلاف رأيه فلم يستعف ، وكان يظن بعد ذلك ان غاية ما يؤدى اليه حبس الضباط الثلاثة أن يجتمع جماعة من الضباط ويتجمهروا حول رئاسة النظار .. يطالبون بالافراج عن اخوانهم ويصرون على ذلك ، فيستعفى رياض باشا .. كما استعفى نوبار باشا فى حادثة الخديو اسماعيل ثم تنتهى بذلك الحادثة ، ويستقر النظام ..

وقد غاب عن الأفكار أن آثار الحركة على وزارة نوبار باشا ، كانت لم تزل تشاهد فى الجندية .. تخفى وتظهر على حسب اقتضاء الأحوال كما يعرف من العريضة التى قدمت فى وزارة شريف باشا السابقة على وزارة رياض باشا ..

ولو أن الخديو توفيق أظهر رغبته فى عزل رياض باشا لهؤلاء الضباط ، ودبر الأمر معهم ، وقال لهم ان هذا الرئيس يرتكن على الاجانب وهم يسندونه ، فلا بد من ايجاد سبب يقنع الاجانب ظاهره ولكان ما أتاه الضباط صادرا عن أمره ، ولبقيت هيبة الخديو فى نفوسهم مع اطمئنانهم

على أرواحهم ومراكزهم من ناحية جنابه ، ولما وجدت نفوسهم فى الظفر بمطالبهم شيئا جديدا سوى الامتثال لأوامر الحاكم ، وان كانت سرية ؛ ولما استشعروا بتلك القوة التى اندفعت بهم الى خرق ذلك السياج المنيع الذى يحول بينهم وبين الخديو ..

وفى اليوم الثانى من الحركة ، استشعر الخديو توفيق أن فى الحادثة ما يمس سلطته ، وان الضباط قد جنوا على مقامه ، فأصبح فى همين عظيمين بعد أن كان فى هم واحد : هم رياض باشا ، وهم الضباط — فبادر الى أخذ الاحتياط لأهمهما خطرا وأشدهما وهو الثانى ، فاستدعى على فهمى أمير الآلاى الاول ، وذكره بما كان له من الزلفى عنده ، وأظهر له غاية الرضا عنه ، وأمره باستدعاء جميع ضباط الآلاى الى سراى عابدين ليقبسموا للجناب الخديوى يمين الطاعة والفداء ويقسم لهم جنابه يمين التأمين من كل عقوبة على ما مضى ..

أراد بذلك الخديو توفيق أن يتخذ هذه الفرقة من الجيش قوة يخيف بها ما بقى منه ، فاذا أراد أن يريح نفسه من عبد العال مثلا ، لم يستطع آلايه أن يفعل مثل ما فعل الآلاى الاول مع الضباط الثلاثة ، لوجود من يقاومه .. وهكذا لو أراد أن يبعد عرابى . ثم اذا استراح من كليهما رجع على على فهمى وضباطه ، وبذلك ينتهى القلق .. لكن عرابى فطن الى الأمر ، فالتمس من الحضرة الخديوية أن يدخل فيما دخل فيه على فهمى من يمين الأمان ، فدخل برضاء الجناب الخديو ، أوعلى غير رضاه ، فى رابع يوم الحادثة وتقاسما الايمان (١)

والى ما قبل الحادثة بيوم ،كان عرابى يخاف على مركزه فى العسكرية ، ويخشى شماتة أعدائه من الجراكسة مضطهديه .. فكان كل همه كما قدمنا ، أن يأمن على وظيفته ويتقى عدوه ، ومع هذا فقد دفعه طلاب تغيير الحال الى اثارة الضباط لفعل ما فعلوا يوم قصر النيل . أما وقد

---

(١) بعد اسبوع من ذلك اراد الخديو ان يجتذب قلوب سائر الضباط فدعاهم يوم ١٢ فبراير سنة ١٨٨١ م من رتبة بكباشى الى ما فوق وحضر البارودى وزير الحربية وكبار رؤساء الجيش ، وخطب فيهم بسراى عابدين خطبة ضمنها العفو عما حدث يوم أول فبراير والامتثال لولى الامر

هتك حرمة القانون وقلب قوة الحكومة ، وحولها عن وجهتها ، وجعل الآلة فاعلا ، والفاعل آلة ، وذلك مما يعد جرما فى نظر كل واحد ، حتى أن سريرته مهما عميت لايمكن أن تغفل عنه ، ثم رأى من الجناب الخديوى تخصيصا لعلى فهمى بتقاسم اليمين معه ــ فقد ولت عنه السكرة ، وآبت اليه الفكرة ، وشعر بأن حاكمه لايسمح له بقوة تعلو قوته ، والنظام يقضى باهلاك هادمه ، وخيل له أن المخاطر تهدد روحه بعد وظيفته ، ولاريب أن الروح عليه أعز ، وأن الشماتة بعدها أدهى وأمر ، وأن دخوله فى يمين الخديو لايكفى فى وقايته ، لأنه لم يكن يجهل الايمان ..

ركب به الجبن وقتئذ طريقا عمياء ، يخبط فيها خبط عشواء .. يسوقه الرعب ، ويقوده الوهم ، وضعف الحكومة يمده ، والرغائب الخرقاء تساعده ، الى أن أودت به وبالبلاد خطيئته !!

وأول ما أخذ به من الاحتياط ، أن أقام الحرس على بيته وبيوت مشاركيه ليلا ليحموهم من الغيلة المبتذلة فى أرض مصر .. وقد علمته حادثة قصر النيل كيف يلاقى ماقد يوجه اليه من سلطان الحكومة ، فلجأ الى ضم القوة العسكرية اليه ، واخلاء الوظائف الجندية من كل من حدثته نفسه بالريب فيه ، وسلك فى ذلك مسالك علمت صغار الضباط بل العساكر أنفسهم كيف يخرجون عن النظام الضابط لهم ، وكيف يتداخلون فيما ليس من شأنهم أن يتداخلوا فيه كما ستراه فيما بعد

وقد سعى عرابى باشا لاستمالة الضباط والعسكر اليه ، فطلب من الخديو زيادة رواتبهم زيادة كبيرة وصدور أمر عال بتأليف لجنة من عشرين أميرا من كبار الضباط ــ هو أحدهم ــ للبحث فى أنظمة العسكرية والمدارس الحربية وترقية الضباط وتسوية أحوال المستودعين ، ولكنه لم يسلك فى ذلك طريق النظام بجعل ناظر الحربية هو الذى يعرض ذلك على الحكومة ، بل كانت العرائض تكتب فى بيته أو بيت أحد شركائه ، ثم ترسل الى الالايات ليختم عليها الضباط صغارا وكبارا وبعض الصف ضباط ، ثم تقدم من قبل ضابط الاى الى نظارة الجهادية أو الى رياسة

مجلس النظار — فلينظر بم كان يشتغل الضباط والعساكر وفيم يصرفون أوقاتهم ؟ وكيف بذلك تموت رغبتهم فى الأعمال العسكرية ويتولد فيهم حب التطاول الى ماهو خارج عن الحق المخول لهم بمقتضى القانون وعوائد النظام

وقد أراد محمود سامى باشا (وزير الجهادية الجديد) أن يتخذ من سرور الضباط باعلاء مرتباتهم وسائر مامنحوه وسيلة لازالة ما وقر فى أنفسهم من معاداة الحكومة لهم ، ومايكون فى صدر الحكومة من الريب فى مسلكهم ، فاحتفل لتلك المنح (١) احتفالا باهرا فى نظارة الحربية بقصر النيل ، دعا اليه النظار والمراقبين وأمراء العسكرية ، وخطب على المائدة خطبة فيما نالته البلاد من الاصلاح ، ونسب ذلك الى همة الخديو واخلاصه ، وصدق عزيمة رياض باشا وحده ، وسائر النظار ورجال الحكومة ، وبين أن هذه النعمة لاتحفظ الا بالشكر وهو الطاعة والخضوع للأوامر. ثم خطب رياض باشا ، فبين الفرق بين الحالة الحاضرة وما قبلها ، وخاطب الضباط فذكر لهم مانالوه ، وذكرهم بوظيفتهم من حيث قوة الحاكم وآلته فى تنفيذ أوامره .. وقام بعدهما عرابى ، فصدق ماقالا بلسان الجند والضباط أنهم مقيمون على طاعة الحاكم الذى هو مصدر هذا التقدم ، وأنهم آلته المنفذة فى قبضة يده يديرها كيف شاء

وان كل مطلع على ماقيل فى ذلك الاحتفال ، يجد منه أن الحكومة كانت تريد أن تقنع الضباط بوجوب الطاعة ، وكان عرابى يعدها بذلك بنفسه وبالنيابة عنهم ، وهو دليل على أن القلق كان لم يزل مستمرا الى ذلك الوقت ، أى مابعد حادثة قصر النيل بنحو ثلاثة أشهر ، وقد كان يؤخذ من حالة عرابى عندما كان يجيب رياض باشا ومحمود سامى باشا أنه كان ينطق بخلاف مايضمر ، وان حجاب الطمأنينة كان يشف عن كامن القلق والاضطراب فى النفوس

---

(١) كان هذا الاحتفال فى ابريل سنة ١٨٨١م ، وكل ما القى فيه من خطب كانت خلاصتها الشكر للخديو على هذه المنح، ووجوب الامتثال لاوامره ، والعمل بطاعته

دسائس حاشية الخديو

قلنا أن الجناب الخديو أصبح بعد حادثة قصر النيـــل ، يطلب الخلاص من أولئك الضباط وسطوتهم النافذة فى جيشه ، فشـــغله ذلك وأخذ يدبر الوسائل ، ولكن لا مع وزرائه والمسئولين عن الامن فى حكومته ، بل مع حاشيته وبعض رجال معيته ومن كان يختصهم من خدمه

ذلك مهب البلاء على كل حاكم ، ومنبع الشقاء لكل أمير : أن يتخذ له عمالا فى الخفية غير الذين أقامهم على الأعمال فى الجهر

نعم للحاكم بل عليه ، أن يستشير كل من يراه أهلا لأن يشير متى وثق من عقله ، واتضح حسن السابقة فى أعماله ، ولكن من الواجب عليه أن يكاشف بذلك رجال حكومته الذين ألقى عليهم مقاليـــد أموره ، وفوض اليهم تدبير شئونه فى رعاياه .. فاذا أقروه على العمل بما أشير به عليه ، ورآه حسنا مضوا فيه بالاتفاق معه والا نبذوه أو ادخروه لوقت آخر ، أو عزل من لم ير رأيه وأقام مقامه من هو أقدر منه على تنفيذ أوامره المطابقة لمصـلحة البلاد ، بعـد التروى فى جميع ذلك ، والثقة بسلامة العاقبة .. فان اختلس لنفسه شيئا من التدبير بانفراده مع بعض خاصته على غير علم ممن ملكهم زمام الأمر من الحكومة تباينت المسالك ، واختلفت الغاية ، وفسد بذلك نظام الأعمال ، وسقطت البلاد فى الفوضى ، وهجرتها الطمأنينة ، وتولاها القلق وظهر ضعف الحاكم ، وباد سلطانه

هذه عواقب قضت بها السنة الالهية على كل أمة تضاربت فيها القوى ، وتخالفت النيات ، واســتبد كل من الوازعين فيها برأيه ، ومضى على ماتزينه له نفسه

لم يأخــذ الخــديو توفيق بذلك الأصل الذى وضعه الله نظاما لكل حكومة ، بل أخذ يعمل مع بعض خاصـــته للوصــول الى ما أهمه من التخلص من سلطة الضباط فى الجنود الذين تحت امرتهم ، فبدأ بعبدالعال فلنا منه أنه كان أجرأهم وأشدهم نفوذا فى عساكره ، وأفضى بسره فى ذلك الوقت الى يوسف باشا كمال ، وكان ناظر دائرته الخاصة .. فأخذ

يوسف باشا على عهدته تحقيق ارادة مولاه

استخلص يوسف باشا من صف ضباط ألاى السودان باشجاويشا شركسيا ، ودعاه الى بيته فى أوائل شهر مارس سنة ١٨٨١ ، وأكرمه وكلفه أن يحول دون طاعة العساكر والصف ضباط لضباطهم فيما يأمرونهم به اذا سيروهم الى حادثة مثل حادثة قصر النيل ، وأن يقنعهم بأن ضباطهم لايريدون بهم خيرا .. فاذا صدر الأمر بنقل أمير آلايهم أو غيره من كبار الضباط الى آلاى آخر فعليهم ألا يعارضوا فى ذلك ، وأن يقبلوا كل ضابط يعين لهم

ذهب الأحمق وكتب عريضة ضمنها أن العساكر والصف ضباط لايحبون ضباطهم ولا يريدون أن يكونوا تحت قيادتهم واذا نقل أى واحد منهم الى أية جهة فلا يعارضون أمرا من الأوامر التى تصدر بذلك ، وطلب من أفراد الجند أن يختموا عليها ، قائلا انها عريضة طلب فيها زيادة المرتبات لهم ، فختم الكثير منهم عليها لأنه لا علم لهم بالقراءة والكتابة ، وقد ألفوا تلك القاعدة التى عودهم عليها رؤساؤهم من أن المطالب التى يطلبها الجند من الحكومة تكتب عرائض ، ويطلب من الضباط أو العساكر توقيع الاختام عليها .. غير أن أمين أحد البلوكات (وكان يعرف القراءة) اطلع على العريضة ، فأخبر بها اليوزباشى سليم أفندى الزيدى ، وسلمها اليه وهو سلمها الى عبدالعال ، فقدمها عبدالعال الى نظارة الجهادية ، فأوصلها الناظر الى الجناب الخديو فأمر بالتحقيق لاظهار منشأ هذا الفساد ، فصرح الباشجاويش بأن يوسف باشا كمال هو الذى أمره .. فصدر أمر الجناب العالى بفصله من نظارة الدائرة الخاصة ظنا منه أن ذلك ينفى الشبهة فى أن لجنابه يدا فى الحادثة ، ولكن الضباط كانوا على يقين تام من أن ناظر الدائرة الخاصة لم يعمل عملا الا بارادة مولاه ، ويقال ان عزل يوسف باشا كان بناء على طلب عبدالعال ومساعدة عرابى له

قال بعض كتاب الحوادث فى تلك الاوقات أن العريضة كانت تحتوى

على التماس العساكر والصف ضباط أن يعفو الجناب العالى عنهم فيما أتوه من السير الى ميدان عابدين يوم واقعة قصر النيل ، وأن مافعلوا من ذلك انما كان باغراء ضباطهم لهم ، ولكن ذلك تأويل للحادثة بما لاينطبق على الحقيقة .. على أنه ظاهر السخافة ، فان الجناب الخديوى قد أصدر أمر عفوه عما وقع فى تلك الحادثة عن جميع العساكر والضباط وانتهى الأمر فيها ، ولم يكن يخطر بالبال أن أحدا سيؤاخذ على فعل ، ولم يحدث من جانب الحكومة مايوجب الريب فى ذلك حتى يلتمس العفو ، بل كانت الظواهر جميعها متضافرة عن أن الرضاء من جانب الحكومة على الجند ورؤسائه تام وعام

وفى أوائل شهر ابريل سنة ١٨٨١ م ، حدثت حادثة أخرى .. وذلك أن ضابطا سودانيا يسمى فرج بك الزينى من أمراء الآلايات المستودعين ، كان يسكن فى طره بجوار مركز التوتنجى ، وكان من رأى ابراهيم أغا (١) أن يلقى الخلاف بين العساكر وبين أمير الآلاى عبد العال بواسطة فرج بك الزينى ، فاتفق معه على الأمر ، وكان لفرج بك صهر يساكنه فى بيت واحد فاتخذه آلة لتنفيذ مايريد ، فتعرف الى شاويش يسمى عبد الخير ، فدعاه الى فرج بك فأكرمه ، وطلب منه أن يكثر من التردد عليه هو واخوانه .. فذهب عبد الخير وأخبر البكباشى خضر بما وقع له ، فسمح له بالتردد وأمره أن يخبره بما يكون ففعل ، واجتمع عند فرج بك اثنا عشر من صغار ضباط السودان فى ليلة من ليالى شهر ابريل سنة ١٨٨١ م ، فأبلغهم فرج بك سلام جناب الخديو ، وان جنابه يريد أن يؤمر عليهم أميرا سودانيا منهم وهو (فرج بك) وأنه متى صار الأمير منهم رقى الباشجاويش الى بكباشى ، والجاويش الى قول أغاسى ، والاونباشى الى ملازم .. ولايتم ذلك الا أن تعملوا على ما أشير عليكم به ، وموعدنا للكلام فى ذلك الليلة الآتية بعد العشاء على شاطىء

---

(١) ابراهيم اغا هو تولنجى الخديو ، ورئيس خدمه ، وقد دبر عدة دسائس ضد الضباط الوطنيين غير هذه الحادثة

البحر ، فتلقوا ذلك منه بالقبول ، وانصرف عبدالخير وأفضى بالأمر الى خضر خضر فأذن له بموافاة الموعد ، ومتى ظهــر لهم من كلامه مايشير الى الفتنة ، فعليهم أن يحضروه اليه ، ثم اجتمعوا فى الموعد فى مزرعة قمح على مقربة من البحر ، فطلب منهم فرج بك أن يرفعوا على ضــباطهم شكاية من تصرفهم الى الحضرة الخــديوية ليبنى عليهــا ذلك التغيير .. فعندما سمعوا ذلك قام واحد منهم ، وقال هذا لايريد بنا خيرا وعلينا أن نكرهه على الوقوف بين يدى ضباطنا فى الحال ، فاتفقت كلمتهم على ذلك وطلبوا منه أن يسير معهم فأبى ، فحمله عبد الخير وساعده اخوانه حتى أحضروه عند خضر خضر فكتب الواقعة بالتفصيل الى أمير الالاى فحضر وطلب محاكمة فرج الزينى ، فحوكم وظهرت معه رسائل من ابراهيم أغا تدل على أنه مصدر هذا الشغب ، وحكم على فرج بك بانزاله عن رتبة القائمقام الى رتبة البكباشى وبنفيه الى السودان ، فعفا عنه الجناب الخديوى وأرسله الى السودان موظفا فى وظيفة تليق به (١)

تاثير الدسائس فى عرابى

قدمنا أن سلطان الخوف ملك قلب عرابى بعد حادثة قصر النيل ، ولم يخفف دخوله فى يمين الامان مع على فهمى شيئا من قلقه .. وقد زاد فى اضطرابه تكرر هــذه الحوادث (حوادث الدســائس) والوقوف على مصادرها ، وان خاصة الجناب العالى هم العاملون فيها ، وهم لايصدرون الا عن رأيه السامى ، فأيقن أن العفو الصادر واليمين السابق لم يكونا الا ألفاظا قصد بها الهاؤه والهاء اخوانه عما يراد بهم وان الانتقام على ماصدر منهم ضربة لازب ، وأن جميع ما اتخذه من وسائل جلب الجند اليه ، وجمع كلمتهم عليه ، لايحميه من الغيلة ، ولايؤمنه من السقوط فى فخاخ الحيلة .

(١) ارسله الخديو الى رءوف باشا حكمدار السودان وقتئذ ، فالحقه بخدمة الحــكومة فى السودان ، وانعم عليه الخديو برتبة لواء فصار يعرف بفرج باشا الزينى . وقد قتله الثوار فى الثورة المهدية سنة ١٨٨٥ م

لذلك أخذ ينقى الجيش من كبار الضباط الذين لايثق بهم ، ويخشى أن يكونوا عونا على تدبير كيد يكاد به .. فأوحى الى ضباط ألآى العباسية « ألآى عرابى » أن يخالفوا أوامر البكباشى « ألفى أفندى يوسف » وأن يهينوه اذا عرضت الفرصة ، متجاوزا الحد فى سوء المعاملة معه الى أن كلفوه يوما بتقديم استعفائه فأبى ودافع عنه يوزباشى يسمى خليل أفندى على ، وانتهى الأمر الى عرابى فألزم البكباشى بأن يستعفى ، وحوكم اليوزباشى فحكم عليه بالسجن مكبلا بالحديد ، ثم استودع مع القضاء عليه بألا يعود الى الخدمة العسكرية أبدا ، وكذلك أشار الى ضباط ألآى القلعة فطلبوا الى النظارة عزل أميرهم حمدى بك صدقى فعزل ، وعين بدله ابراهيم بك حيدر ، وكذلك فعل ألآى الطوبجية فعزل حاكم الالاى حسين بك وعين بدله اسماعيل بك صبرى ، وحصل كثير مما يماثل ذلك ، ولا فائدة فى الاطالة بذكره ..

***

أفراد الجند كثير ، وعدد الضباط عديد ، وقوة الجناب الخديوى أعلى من قوة عرابى ، وليس فى الامكان لضباط مثله أو لأعظم منه أن يملك مفاتيح القلوب ومغاليقها فى جند مثل هذا مهما قل عدده ، خصوصا بعد أن ألف أفراده وضباطه مناوأة أرباب الأمر فيهم ، وعرفوا فى أنفسهم القدرة على رفع التقارير بالشكوى منهم بحق وبغير حق ، وبعد أن ذاقوا لذة النجاح فيما يسعون اليه من ذلك ، فمن الممكن القريب أن الخديو توفيق أو الحكومة نفسها توحى الى بعض أرباب الكلمة النافذة من الضباط العظام .. بل الى بعض أفراد الجند أن يوقع بعرابى وصاحبيه وأن يأخذهم فى مأمنهم على غرة منهم ، فان لم يكن ذلك بازهاق الأرواح كان بافساد القلوب عليهم وهم لايشعرون ولكن شاء الله أن ينجيهم من ذلك.

الفصل الخامس

مجلس النواب

أراد عرابى أن يستعين بقوة فوق قوته الشخصية ، وأن يلتمس سلطة تعلو سلطته وسلطة الحكومة معا ، ولها من الشـأن فى مراقبة أعمـال الحكومة ومناقشتها الحساب على مايصدر منها خارجا عن الدستور أو مخالفا للعدل ماتخشى عواقبه ، وتتقى مصايره ، وكان يطالع فى الجرايد وفى بعض الكتب المترجمة من اللغات الأوربية ، ويسمع من بعض المطلعين على أحوال ممالك أوربا أن مجالس النواب فى تلك الممالك هى القائمة بحفظ أصول النظام ، وهى القاضـية على كل حاكم بالتزام حدوده ، والحاجبة للاستبداد فى الأرواح والأموال ، والحافظة للحرية الشخصية فى الأعمال

وقد رأى أنه لو كانت فى البلاد تلك القوة النيابية ، وكانت حكومتها حكومة شورية ، لكانت الشورى أو مجالس النيابات عاصما لحياته ، حافظا لحقوقه فى وظائفه ، ومأمنا يلجأ اليه ، اذا حوّم طائر الانتقـام عليه ، ولم يعلم أنه لو كانت فى مصر حكومة دسـتورية يقضى فيهـا القانون ، ولا يستبد فيها الرأى لأوخذ عرابى ومن معه أشد المؤاخذة ، ولقضى عليهم بجزاء ماهتكوا من حرمة القانون ، وما أدخلوا فى الجند من الميل الى الفوضى (١) ، وانما الذى استبقى حياتهم بعد مافعلوا تلك الأفاعيل هو ضعف سلطان القانون ، وعجزها عن ايقاف الداخلين تحتها عند حدود أحكامه ، وميل صاحب الرأى الأعلى فى الحكومة الى تلافى

(١) لعله قد فات الاستاذ الامام ان التورةعلى النظام القائم لاتنفق والخضوع له والعمل بحدوده ، والسير على قانونه . فمؤاخـذةعرابى هنا فيها نظر ..

الأمر بما ظنه أفضل وأنجح مما حدده النظام

وغاية ما توهم عرابى ، أن مجلس النواب هو من أبناء البلاد ، وهم لايسمحون بأن يقتل واحد منهم أو يعزل من وظيفته ، وان تعدى حدود كل نظام مادام يطلب طلبا يظنه هو عادلا . لهذا أراد أن يستعمل مابيده من السلطة على الجيش فى المطالبة بانشاء مجلس نواب ، يكون له من الحقوق ما لمجالس النيابات فى أوربا ، ثم تخيل أنه اذا أنشىء هذا المجلس عرف أعضاؤه ومستنيبوهم فضل من كان السبب فى تشكيله ، فيهتمون بالمحافظة على حياته (١) وعلى نفوذه بما يستطيعون ، بل وثق بأنه يستعمل النواب كما يستعمل ضباط الجند ويسوقهم الى الغاية التى يريدها منهم ..

ولم يخطر بباله أنه اذا فعل ذلك ، فقد سقط بالقوة التى يلجأ اليها الى هاوية العدم ، فانه اذا لعب بها فقد فتح لغيره باب الاستهانة بأمرها ، فيسهل عدم المبالاة بسيطرتها ، واذا قهرها على أمر فقد مهد السبيل لمن هو أعلى منه سلطانا فى نظر الأمة ، يكرهها على عكسه فتنقلب عليه بعد أن كانت له .. واذا كان المجلس تحت سيطرة الجند ، فما الفائدة من انشائه مع وجود الجند ، فليستغن عنه بالقوة العسكرية ، ولتكن هى الملجأ دونه ، فكيف يتصور أن يطلب تأليفه ليكون واقيا مما لم يقو الجند على الوقاية منه ؟ !

هذه أحاديث عقل ، ينبو عن فهمها ذهن شخص مثل عرابى ، تمثلت له جنايته فى صور أغوال فاغرة الأفواه محددة الأنياب ، ولزمه خيالها فى يقظته ومنامه ، فهو فى فزع دائم يخيل له العزل والموت فى كل شىء

= ثم ما هذا النظام الاستبدادى الذى سارت عليه حكومة توفيق وتواطأ معها عليه قبل حادثة قصر النيل ، وبعد حادثة قصر النيل فقد ازداد استبدادا حتى اضطر البارودى باشا وزير الحربية الى الاستقالة على اثر محاكمة الجنود التسعة الذين حكم على احدهم بالاشغال المؤبدة ، وعلى الثمانية الاخرين بالاشغال الشاقة ثلاث سنوات كما سيأتى فى صفحة تالية

(١) اتهام عرابى بالحرص على حياته فيه اسراف .. ولعل ما نراه من انتقاد الامام لعرابى باشا فى هذه المذكرات مبعثه النقمة على الاحتلال الانجليزى الذى أدى اليه فشل الثورة العرابية

يراه .. يلتفت يمينا وشمالا ، فلا يرى الا سيوفا مسلولة ، أو حبالا منصوبة ، ولايسمع من هواجس نفسه الا صيحة واحدة : الخلاص .. الخلاص .. الهرب .. الهرب .. ولم يتمثل فى مخيلته أوفى له من طلب تأليف مجلس النواب على الصورة التى قدرها له فى نفسه

وشد أمله فى نيل أمنيته ، ان أغلب أهل الطبقة العليا من الناس كثير من أهل الطبقة الوسطى يهمسون بما يدل على القلق ويشعر بالملل من ادارة رياض باشا لأعمال البلاد وسياسته فيها للمآرب التى بيناها .. فأخذ يتحسس ما فى النفوس ، ويسمع ما تنطق به الألسن ، فوجد أن أمنية تغيير الحال لم تزل تجول فى صدر كل واحد ممن كان يلتقى بهم . ولو قيل لطلاب التغيير أن لا سبيل اليه الا باستدعاء الخديو اسماعيل باشا ، أو استحياء اسماعيل باشا صديق لاستسهلوا طلب ذلك بعد ما ذاقوا على عهدهما ما ذاقوا ، فقد نسى الماضى واحتدمت الشهوة فى التخلص من الحاضر

***

وكلمة « مجلس النواب » كانت لم تزل دائرة على الألسنة ، وفى وهم الكثير ممن نظروا فى سير الأمم الأوربية ، أن علاج كل داء ينحصر فى تحقيق معنى هذه الكلمة ، فلما نطق عرابى وهو صاحب النفوذ فى الجند بأنه يريد انشاء مجلس النواب سمع دوى الاستحسان من كل جانب ، وصفقت له الاحشاء بين الجوانح قبل أن تصفق له الأيدى ، فاشتد بذلك عزمه وازداد طمعه ، وخيل له أن الأمة ستكون سنده

ولعلمه أن علاقة مصر بالدول العثمانية علاقة لاتسمح له أن يجاهر بايجاد شكل فى الحكومة المصرية — ليس معروفا عند السلطان العثمانى — بدأ بتحرير عريضة أمضاها هو وعدد كبير من الضباط ، وختمها بالشكوى من استبداد الحكام فى الأقطار المصرية ، وأن ذلك الاستبداد قد أضعف الأمل فى الامن على الأنفس والأرواح كما عاد بالقوة على نفوذ الاجانب ،

حتى أصبحت مصالح البلاد فى أيديهم وتحت تصرفهم ، وكاد اسم الدولة العثمانية ينسى ، وأشرفت علاقتها بمصر على الاندثار والانمحاء .. فورد له الجواب من بعض رجال المابين يحمل اليه تحية الخليفة العثمانى ، وينقل له رضاه السامى عن كل ما يجرى فى مصر لمقاومة نفوذ الأجانب فى ادارتها ومصالحها

أخذ عرابى ، بعد ذلك ، يجهر بطلبه هذا .. وخاطب رياض باشا فى شأنه فأباه عليه ، فأخذ يخاطب بعض العلماء ويكاشفهم بمقصده من ثلم النفوذ الأجنبى ورد ماسلبته أيدى الأجانب الحاضرة اذ ذاك ، كأنها نسر حوم فى جوها لاختيار خير الفرائس لينقض عليها ، ثم اختار من بينها الدين والعوائد الموروثة عنه لينشب مخالبه فيها ، وأنه لو دامت سياسة رياض باشا فى منهجها لقضى على الدين وسننه ، وفى خلال هذا كان يزين لكل ذى شهوة منهم ماتميل اليه نفسه ، ويمنيه بنيله اذا تغيرت هيئة الحكومة الحاضرة ، فوجد من حضرات المشايخ ــ وهم على مانعهد من السذاجة والبعد عن معترك السياسات ــ اصغاء لقوله وتأييدا لرأيه ، وكذلك كان يخالط بعض الأعيان ومشايخ العربان ويقرر لكل من لاقاه أن لاسبيل لمبتغاه الا بتأييده فى طلب مجلس النواب فيجد أذهانا مقتنعة ، وارادات مستسلمة .. وكذلك لأن القوة فى يده ولأن نفوسهم ترى منتهى راحتها فى التغيير على أى صورة جاء

واستحثه الحرص على ادراك المطلب أن يفضى به الى ضباط الجيش ، وأن يثير فى أحلامهم تماثيل الأمانى من العزة والسلطان ، والصعود الى أعلى مراقى الرتب والمناصب ، وأن كل ذلك لاينال الا بمجلس النواب ، ولم يكفه أن يكون ذلك مطلبا لهم يشتهونه ويساعدون عليه عند القيام للالزام به ، ولكنه كان يطلب الى بعض الضباط أن يكتبوا به عرائض يبينون فيها ضرورة انشاء المجلس ، وانما يقام الدليل على تلك الضرورة بالطعن فى هيئة الحكومة وبيان عدم كفايتها فى كفالة الأمن على الأنفس والأموال والأعراض ، وبينما هو فى ذلك اذ أحس الخديو توفيق بمسعاه ،

وعرفه بعض حاشيته ، وبعد قليل ظهرت مسألة تسمى مسألة التسعة عشر ضابطا

مسألة الـ ١٩ ضابطا

كتب البكباشى عبد الله أفندى الكردى تقريرا أمضاه ، هو وضابط قول أغاسى وستة عشر من اليوزباشية وملازمان ، وقدمه الى ناظر الجهادية .. ومحصل مافيه الشكوى من تصرف عرابى ومحالفيه وتعديهم حدود القانون ، واشتغالهم ببث الدسائس بين ضباط الجيش وحملهم على تقديم عرائض للجناب العالى ، يطلبون فيها عزل وزارة رياض باشا ، وتأليف مجلس للأمة ، وزيادة عدد الجيش ، والتصديق على القانون الجديد ، وان عرابى قد صرح لهم بما معناه « ان القوة فى يدنا ، والعلماء والأعيان ومشايخ العربان يعضدوننا ، ولامندوحة للخديو عن اجابة طلبنا ، فان لم يفعل خلعناه وأقمنا حكومة جمهورية مستقلة » فلما وقف الناظر (محمود سامى البارودى) على ما فى التقرير ، أمر بتأليف مجلس عسكرى لتحقيق مازعمه الضباط ، فقالوا انهم لم يكتبوا الا ماسمعوا وزادوا على ذلك ، أن فى الجيش كثيرا من المظالم والخيانات ، وطلبوا تحقيقها .. ثم قدمت الى المجلس العسكرى تقارير من ضباط الآلايات ، تنسب فيها تهم كثيرة الى هؤلاء الضباط الواقفين موقف المخاصمة مع عرابى وجماعته ، وانتهت المحكمة باثبات أنهم مدفوعين من ابراهيم أغا التوتنجى على كتابة ذلك التقرير ، فحكم عليهم بعقوبات شديدة ، قابلها الجناب الخديو بعفوه ، غير أنهم فصلوا من الجندية

وفى أثناء هذا الاضطراب ، كان محمود سامى ورياض باشا يخطبان فيما يجب على الجند أن يؤدوه للحكومة ، وعرابى يجيبهما بتصديق ما قالا ، وينادى بأن الجيش آلة الحكومة المنفذة .. كلا الطرفين خادع ومخدوع .. !

ابعاد الضباط غير الموالين للحركة

فى تلك الأيام ، قام ضباط الآلاى الرابع (آلاى عرابى) وطلبوا فصل البكباشى ألفى بك يوسف ، لأنه المانع للآلاى من الآلايين يوم حادثة قصر النيل ، فحملوه على الاستعفاء .. فاستعفى وأحيل على الاستيداع . وكذلك فعل ضباط آلاى القلعة فى طلب عزل أميرهم محمد بك صدقى ، فعزل وعين بدله الاميرالاى ابراهيم بك حيدر ، وتبعهم ضباط آلاى (الطبجية) فى طلب فصل قائدهم حسين بك ، ففصل وعين بدله الأميرالاى اسماعيل بك صبرى .. كل ذلك ليستوثق عرابى لنفسه ، وليأمن على أن القوة الجندية بأسرها معه

على أن ذلك لم يفتر عزيمة المخلصين من حاشية الخديو توفيق ، فقد قيل ان بقية مما ترك الخديو اسماعيل باشا من الجوارى السود ، كانت تحت تصرف الخاصة من الخدم .. فأخذوا يزوجونهن ببعض العساكر والضباط من آلاى السودان ، وكان أغوات سراى الاسماعيلية يدعون أولئك العساكر ويمنحون الواحد منهم نقودا لاتعطى عادة لأمثالهم ، بحجة أن ذلك مساعدة لهم على معيشتهم مع زوجاتهم عتيقات السراى ، ولكن العساكر كانوا يقولون لضباطهم أن الاغوات يغرونهم بقتل رؤسائهم ، فهيج ذلك غضب الضباط وأضعف ثقتهم فى الأمن على أنفسهم .. وسواء صح قول العساكر أو لم يصح ، فأثره فى ازدياد القلق والاضطراب لاريبة فيه ، والاشاعات التى تتولد عنه لاتقل قيمتها عن الحقائق الثابتة ، وانما وقود الفتن مايقال لا مايفعل

مقتل الجندى

فى ٢٥ يوليو سنة ١٨٨١ ، حدث أن عجلة (عربة) لأحد تجار الاسكندرية يقودها قائد أوربى ، كانت تمر فى الشارع المؤدى الى سراى رأس التين .. فصدمت جنديا من عساكر الطبجية فقتلته ، فاجتمع رفاقه على أن يحملوه الى السراى حيث يقيم الجناب الخديو ويلتمسوا

منه الاهتمام بمعاقبة الجانى فحملوه مخالفين فى ذلك رؤساءهم ، وساروا فى ضجة وولولة ، وصاحوا بطلب الانتقام من القاتل ، فكبر الأمر على الخديو ورآه تطاولا عليه مخالفا لآداب الجندية .. فأمر العساكر بالانصراف ، فانصرفوا ظانين أن شكواهم قد قبلت

وبعد أيام صدر الأمر بتأليف مجلس حربى لمحاكمتهم ، وحوكموا وصدر الحكم على الجندى الذى بدأ بدعوة رفقائه الى الاشتراك فى حمل الميت الى السراى بالاشغال الشاقة مدى الحياة ، وحكم على رفاقه — وهم ثمانية — بالاشغال الشاقة مدة ثلاث سنوات ، وبأن يقضوا مدة العقوبة فى السودان . ثم قدم الحكم الى ناظر الجهادية ، فرفعه الى الجناب الخديو ، فأمر بانفاذه ، وسيق المذنبون الى السويس ومنها الى سواكن .. ثم الى داخل البلاد السودانية

بعد هذا كتب عبد العال بك حلمى ، أمير الفرقة السودانية ، تقريرا طويلا يشكو فيه ما أصاب هؤلاء العساكر من شدة الحكم ، ويبين قلقه من الحوادث التى تجرى فى الآلايه والفتن التى لاتنقطع ولاتجف ينابيعها ، وأظهر استغرابه لشدة الحكم فى حادثة مثل هذه ، مع مقابلة الجانين بالعفو فيما هو أعظم منها وأهم كحادثة فرج الزينى وغيرها

***

قدم التقرير الى ناظر الجهادية ، فرفعه الناظر الى الحضرة الخديوية ، واشتد كدر الخديو لذلك ، وعده جرما لايقل عما اجترمه حاملو القتيل وملتمسو عقوبة القاتل ، فاستدعى النظار من القاهرة بالتلغراف .. فاجتمعوا فى حضرته وتداولوا فى الأمر ، وقرر (أى جنابه) ووافقه الأغلب من رجال النظارة على أن بقاء محمود سامى فى نظارة الجهادية مع ميله الى عرابى ومن معه ، هو منشأ الفوضى ، وأن لاسبيل لايقاف سير هذا الداء ورد المتطاولين على السلطة العليا الى الحد الذى رسمته لهم وظائفهم الا عزل محمود سامى ، فقدم استعفاءه فقبل فى الحال ، وعين

بدله داود باشا يكن [١] ناظرا للجهادية ، وأعقب ذلك صدور أمر آخر بعزل أحمد باشا الدرملى من ضبطية المحروسة (محافظة العاصمة) وتعيين عبد القادر باشا مأمورا لها

ضعف وزارة رياض

هنا أذكر ما أخبرنى به بعض الثقات وهو أن من أسباب ميل الجناب الخديوى الى استعفاء وزارة رياض باشا ، أنه كان ينتهز فرصة لتعيين داود باشا يكن ناظرا للجهادية لمكان المصاهرة الجديدة ، وانه لما لم يتمكن من ذلك فى حادثة عابدين لم يزل يتخذ له الوسائل حتى تهيأ له أن ينفذ ماعزم عليه بعد هذه الحادثة التى لاتمتاز فى شىء عما سبقها من أمثالها ، ومع ذلك فقد أظهر جنابه شدة قلقه من رياض باشا ، وأشيع فى الاسكندرية — بل وفى القاهرة — أنه قدم استعفاءه لتحققه من عدم رضى مولاه عنه ، وعلم رياض باشا بعد انصرافه من سراى رأس التين بضجر الخديو من بقائه على ما أخبره به بعض الأوربيين ، فرجع اليه وسأله فى ذلك فأكد له أن لا صحة لما سمعه ، وأنه فى المحل الأعلى من رضاه ، فأظهر رئيس النظار اقتناعه بما سمع مع قيام آلاف من الأدلة على مايخالفه !

ومن العبث أن يقال ان رياض باشا لم يكن يحس بوجد الخديو عليه ، ورغبته فى اعتزاله للسلطة ، ولكن لذة المنصب والشغف بالرئاسة ، وثقة دولة الرئيس بنفسه ، وظنه أن لا صلاح للبلاد الا اذا كان هو صاحب سياستها والقائم بتدبير شئونها .. كل ذلك كان يغالط به احساسه ، ويدافع به ضميره ووجدانه ، ويلتمس له العذر فى البقاء ، ويصرف نظره عن أدلة الانحراف عنه — على قوتها — ويقبل به على موهمات الركون اليه على ضعفها ، ولو حكم عقله وأنصف نفسه وبلاده لانصرف عن مقام السلطة مختارا قبل أن ينصرف عنها مكرها ، فقد كان من المحتمل ألا

---

(١) داود يكن باشا هو صهر الخديو توفيق .. أما عبد القادر حلمى فقد كان مواليا للسراى ومكروها من العرابيين وقد صار فيما بعد حكمدارا للسودان

تبلغ الفوضى بالبـلاد مبلغ ما وصلت اليه .. أو لم يضطر الضبـاط الى حشد الجنود فى ساحة عابدين لاكراهه على التنازل عن رئاسة النظار !

أراد داود باشا أن يقوم ما اعوج من النظام ، أو يرمم ما تقوض منه ، فأخذ يصدر الأوامر الشديدة الى الآلايات ، يلزم بها أمراءها وضباطها كافة بألا يفارقوا مراكزهم العسكرية ، ويحظر بها على جميعهم ما اعتادوا عليه من الاجتماع فى المنـازل ، والتردد على المحافل ، ويطـالبهم بايفاء الأعمال العسكرية حقها من الدقة ، وأمر بانشاء مكاتب فى مراكز الآلايات لتعليم القوانين العسكرية ، ظنـا منه أن ذلك يذكر الضبـاط والعساكر بأحكام النظام فيقبلون على طاعته ، وتأخذهم الرهبة من مخالفته ، وكان يذهب بنفسه الى ثكنات العسكرية ليلا ونهارا ليراقب تنفيذ تلك الأوامر.

واهتم سعادة مأمور الضبطية « محافظ العاصمة » بمعرفة حركات ضباط الجيش ، خصوصا الرؤساء منهم ، وهم : عبد العال ، وعرابى ، وأحمد عبد الغفـار ليخبر ناظر الجهادية بما يكون من أمرهم خطوة بخطوة ، فأرسل العيون والجواسيس على بيوت الرؤساء منهم وكبار الضباط ، ولم يخف شىء من ذلك على عرابى ورفقائه

قوة الناظر والمحافظ

ما القوة التى كان يستنـد اليها ناظر الجهادية فى اصـدار أوامره ، ومأمور الضبطية فى بث جواسيسه ؟

هى القوة التى يشير اليها اسم الوظيفـة « ناظر جهـادية .. مأمور ضبطية » وهى من القوى المعنوية التى لا يظهر أثرها الا بعد اليقين بأن قوة الجند من ورائها عنـد التواء الأمور عليهـا ، كسائر الوظائف فى الحكومة لا تخضع الأنفس الا للقائمين عليها ، الا ومثال القوة القـاهرة منتصب أمامها ..

وما تلك القوة القاهرة اذا لم تكن سلاح الجند ؟.. فان كان الجند وهم حفاظ الوظائف فى كل حكومة خصما لها أصيبت بالشلل كما يصاب

المخ اذا تمزقت عنه عظام الجمجمة

غفل كل من ناظر الجهادية ومأمور الضبطية « المحافظ » عن هذا الأصل المعروف عند الأمم كافة ، وظنا ان اسم الوظيفة له من السلطان فى انفاذ الأوامر ما يغلب قوة الجيش ويخمد نيران مدافعه وبنادقه ، وربما صار هذا السهو منهما مثالا حذا حذوه كثير من السذج فى مصر فيما تأخر من الزمان

نعم قد لايبالى بقوة الجيش متى استعصى على النظام ، اذا قامت الأمة بأسرها للمحاماة عن دستورها ، وهمت بمعالجة جسمها بقطع ما فسد من أعضائه ، واستعاض الحاكم بقوة الرعية من قوة بعض أفرادها ، وهم الجند ، وأخذ لذلك من الوسائل ما هو أشد أثرا من كتابة المنشورات ، ونشر الوريقات ووسوسة الجواسيس ، وحشد الأخبار يتراكم كاذبها على صادقها ، ويغلب باطلها على صحيحها ، ليكافح بذلك حشد الجيوش وصلصلة السلاح ..

لكن الأمة كانت لا تزال فى دور النقاهة من مرض التفرق وشلل الارادة ، فهى ان حكمت على متمرد فانما تحكم قلة .. فكل يصدر حكمه لصديقه همسا يرجو ألا يسمعه ثالث ، وقد يبالغ الاغلب فلا يقضى قضاءه الا فى نفسه ، وان جهر بالقول لم يبلغ من نفوس السامعين الا مجرد استحسان ، قد لاينطق به لسان ، وان نطق كان على طريقة القائل : « فربما اجتمعت أصوات ، وعلت ضوضاء » ولكن كان كل فى مكانه لا تتحرك قدماه ، ولا تمتد يداه ، وأول صيحة من مدفع تخرس لها جميع الألسن وتخفت جميع الأصوات ، ويتبدل الزئير بالأنين

ذلك شأن كل أمة ، لم تقوّم نفوسها بالتربية السليمة ، ولم تثقف عقولها بالمعارف الصحيحة ، ولم يبلغ بها حب وحدتها الملية أو الشعبية الى حد أن يسهل عليها بذل المال والروح فى سبيل صيانتها .. كل أمة تفرقت المطامع بين أفرادها ، ويصرف كل منهم شأنه عن شأن مجموعها ، ويلهيها العاجل عن الآجل ، ويذهب بها الحاضر عن المستقبل ، لا سبيل

للاعتماد عليها فى دفع غائل ، ولا فى مقاومة صائل

الجند والامة وعرابى

وكان الجند طوع عرابى ورفقائه ، لا تحت طاعة الناظر ولا المأمور ، وكانت الأمة على حالها التى ذكرنا طالبة لتغيير الحال كما قدمنا .. فالجند والأمة كلاهما كان فى جانب عرابى . أرقام المنشورات وأشباح الجواسيس قامت عند عرابى واخوانه مقام انذار لهم بسوء المصير ، فاشتد حذرهم واستجمعوا كل قواهم لحفظ أرواحهم ومناصبهم . وكانت الليالى ، ليالى رمضان ، تكثر فيها الزيارات ، وتتيسر الاجتماعات ، وتنتشر الاشاعات .. فازداد عرابى ومشايعوه من الحراس تحفظا مما عساه يقع من الغيلة ، وواصل اجتماعه مع اخوانه ، ومع كثير من أعيان القاهرة ، وتابع رسائله الى بعض من يظنهم على ولائه فى الاطراف ، وهو فى كل ذلك يدعو الى تأليف مجلس النواب ، لأنه الوسيلة الباقية لاتقاء شر الحكومة ، وكان يتردد فى أغلب الاوقات على منزل سلطان باشا ، ويستمد منه المعونة بالقول والفعل

محمد سلطان باشا
لماذا انضم للثورة العرابية ؟

سلطان باشا (١) لم يكن من أغبياء الاغنياء فى هذه البلاد ، بل كان فيه شىء من الفطنة يزينه الغنى وتعلى قيمته مظاهر الثروة .. كان يفهم ما يقال ، ويرضى السامع اذا قال . ولكن هيهات أن يكون له بصر بالعواقب أو علم بمصاير الانقلاب فى الحكومات وتغير الاشكال عليها ، وما يصيب الأمم فى مجارى الحوادث من تقدم وتقهقر

---

(١) محمد سلطان باشا كان من زعماء الثورة العرابية ، ثم انقلب عليهاوخانها.ولد فى بلدة زاوية الاموات بمديرية المنيا سنة ١٨٢٥ .وتعلم القراءة والكتابة وشيئا من القرآن فى بلده . ثم عين عمدة لبلدته ، فمامورا لمركزقلوصنا ، ثم جعله الخديو اسماعيل مفتشا عاما للوجه القبلى . وفى عهده امتلك ثلاثةعشرالف فدان

أفادته مناصبه السابقة أيام اسماعيل باشا شهرة وعلو صيت .. حافظ على مكانته فى النفوس ببسطة فى الكرم امتاز بها على أمثاله ، فكان يتردد على منزله الاعيان والعلماء وأرباب المناصب ، وكان يجد فى نفسه لهذا علوا على أقرانه . كان مثله مثل الكثير من الاعيان فى استثقال يد رياض باشا فيما استأثر من السلطة ، وفى استنكار تلك البدع التى جاءت فى وزارته ، خصوصا أبطال السلطة الشخصية ، والاخذ على يد الاقوياء ، حتى لا تطاول الى استخدام الضعفاء برغم ارادتهم ، ووضع حدود تلزم الاعيان وأهل الثروة بالوقوف عندها فى علاقاتهم مع غيرهم ، فكان ممن يألم لهذه القيود ويعدها من الضربات التى أصيبت بها البـلاد على يد رياض باشا وشركائه

توسم الفرج والخروج من هذه المضايق والوصول الى مقام تعلو فيه كلمته على كلمة مثل رياض باشا ، ويتمكن فيـه من أن يعيـد نفوذه الشخصى فيمن دونه من عامة أهل بلاده ، عندما لاحت له بوارق الثورة ولمع فى عينه شرر الفتنة ـ عند ما أحس أن عرابى يتلمس المعين على انشاء مجلس النواب لوقاية روحه ومنصبه ـ ظن وصدق ظنه أن عرابى لابد أن يصل الى ما يريد يوما ما ، فمن الحزم أن يتفق معه فى البداية ، ليكون له النصيب الاشرف من الفائدة فى النهاية .. فكان أول من مد يده اليه وعاهده على التعاون فى طلب مجلس الشورى . وأخـذ سلطان باشـا يستميل بعض أعيـان الوجه القبلى والبحرى الى رأيه ، ويحثهم على الاجتماع لتأليف وفد يطلب الى رياض باشا ويلح عليه فى الطلب أن يستصدر من جناب الخديو أمرا باستـدعاء مجلس النواب ، وتخويله حق النظر فى وضع قانون يضـمن له البسطة فى حقوقه ، حتى يكون كمجالس النيابات فى أوربا ، ثم يكون ذلك دستورا للبلاد تمضى عليـه حكومتها ، فانصاع له بعضهم وعارضه آخرون ، ولم يتم له تأليف ذلك الوفد ، ولم ير من الحزم أن يتولى الطلب بنفسه من رياض باشا خشية الخيبة ، فانقلب الى عرابى وحالفـه على أن يجمع له أعيـان القطر من

الوجهين البحرى والقبلى ، وعلماءه على تعضيد طلبه متى استقال رياض باشا ، ثم بارح سلطان باشا مدينة القاهرة ، وتوجه الى المنيا فى أواخر شهر رمضان سنة ١٢٩٨ هـ « أوائل سنة ١٨٨١ م » وقت اشتداد الاضطراب وتلاطم القوى

بينى وبين عرابى

كنت معروفا فى ذلك الحين بمناوأة الفتنة واستهجان ذلك الشعب العسكرى ، وتسوئة رأى الطالبين لتأليف مجلس النواب على ذلك الوجه وبتلك الوسائل الحمقى ، وكنت أذهب لزيارة سلطان باشا أحيانا ، فأرى من لدن الباب عرابى وبعض رفقائه جالسين معه ورءوسهم بادية من النوافذ فاذا استأذنت للدخول وسمعوا اسمى أسرعوا بالفرار من محل الاستقبال العام الى محل آخر ليختفوا ثم ينصرفوا

مررت ببيت « طلبة » (١) ثالث يوم عيد الفطر ، فسمعت جلبة ورأيت بعضا من صغار الضباط يجولون من جانب الى آخر من البيت ، فدخلت للزيارة فوجدت عرابى وجمعا غفيرا من الضباط ، ووجدت معهم أحد أساتذة المدرسة الحربية « ل. بك. س » وكان من الناقمين على الوزارة لأمر لايستحق الذكر ، فجلست واستمر الحديث فى وجهته ، وكان موضوعه الاستبداد والحرية ، وتقييد الحكومة بمجلس النواب ، وأن لا سبيل للأمن على الارواح والاموال الا بتحويل الحكومة الى مقيدة دستورية ، فأخذت طرفا من البحث فأقمنا على الجدال ثلاث ساعات كان عرابى والاستاذ من طرف ، والكاتب من طرف ..

هما يقولان : « ان الوقت قد حان للتخلص من الاستبداد وتقرير حكومة شورية » والكاتب يقول : « علينا أن نهتم الآن بالتربية والتعليم بعض سنين ، وأن نحمل الحكومة على العدل بما تستطيع ، وأن نبدأ

---

(١) هو طلبة باشا عصمت قائد الاسكندرية فى الحرب مع الانجليز ، وهازمهم فى موقعة كفر الدوار فى ١٩ اغسطس ١٨٨٢ م

بترغيبها فى استشـارة الأهـالى فى بعض مجالس خاصـة بالمـديريات والمحافظات ، ويكون ذلك كله تمهيدا لما يراد من تقييد الحكومة ، وليس من المصلحة أن نفاجىء البلاد بأمر قبل أن تستعد له ، فيكون من قبيل تسليم المـال للناشىء قبل بلوغ سن الرشد ، فيفسد المال ويفضى الى الهلكة ، وختمت قولى بأنه لو فرض أن البـلاد مستعدة بأن تشـارك الحكومة فى ادارة شئونها ، فطلب ذلك بالقوة العسكرية غير مشروع .. فلو تم للجند ما يسعى اليه ، ونالت البلاد مجلس شورى لكان بناء على أساس غير شرعى ، فلا يلبث أن ينهدم ويزول ، وأرى أن هـذا الشغب قد يجر الى البلاد احتلالا أجنبيا يستدعى تسجيل اللعنة بسببه الى يوم « القيامة »

تبسم عرابى ابتسام الساخط ، وقال : « أبذل جهدى فى آلا أكون مورد هذه اللعنة ، وليس الجند هو الطالب لتأليف مجلس النواب وانما هو مؤيد لطلب الاعيان ووجوه البلاد »

فسألتـه : « وعلى من تعتمد ؟ وممن أخذت الميثاق على ذلك ؟ » فهمس بصوت لا يسمعه الا ثالثنا : « ان سلطان باشا قد عاهدنى على أن يجمع أعيان القطر من الوجهين ليتقدموا بالطلب متى سقطت وزارة رياض باشا » .. ثم انصرفنا

بعد أن استوثق عرابى لنفسه من سلطان باشا ، وأيقن بما وعده أن أهالى البـلاد وأرباب الكلمة فيها سيكونون معه ، وبذلك تحول عمله من عصيان غير مشروع الى طاعة للأمة غير ممنوعة ، فقد رأى أن يضع نفسه ومن معه من الضباط موضع الآلة المنفذة لرغبة الأمة ، كأن الأمة هى التى استعملته ، فالثورة ثورة الأمة لا ثورة الجند ، وكل ما تأتى به الأمة فى سبيل حريتها وتقويم ما اعوج من حكومتها لا يصـادف منكرا ولا يستوجب عقابا . هذا هو الحجاب الممزق الذى كان يسدله على أعين الناظرين اليه ، والحجة الساقطة التى يقيمها للنـاقدين عليه .. وبعد أن استحكم هذا الخيال من نفسه ، أخـذ يترقب الفرصـة لجمع

رجاله لالزام رياض باشا بتقديم استعفائه ، وكان يصــل ليله بنهاره فى التفكير والتدبير والمشاورة مع اخوانه ، وكلما عقــدوا عزما على شىء عرض لهم ما ينقصه

كل ذلك والخديو توفيق بالاسكندرية ، وهم ينتظرون عودته ، وكان يزيد قلقهم ما كان يبلغهم من أنه استمال آلاى الحرس وأميره على فهمى، وعاهــده على أن يكون قوة تقضى على من يخالف الأوامر من بقيــة الآلايات ، وقد كانت الاشاعات فى ذلك لا تخلو من صحة ، وقد أخبرنى المرحوم على باشا مبارك يوم مجيئه من الاســكندرية فى معية الجناب العالى ان افتراق آلاى الحرس عن بقية الآلايات واستعداده لتنفيــذ ما يصدر اليه من الأوامر مما لاريب فيه ، وانه عما قليل سيؤخذ فى تقرير أمر فاصل تنحسم به هذه الفتنة

عاد الخديو توفيق من الاسكندرية فى أوائل شهر شوال سنة ١٢٨٩هـ ، وبعد عودته بأيام تجلى ذلك الأمر الفاصل الذى سمعت خبره من على باشا مبارك .. فاذا هو من غرائب التدابير ، بل من عجائب الالاعيب ، ذلك ان الحضرة الخديوية بعد أن استمالت على فهمى ورجاله وأعدتهم لمغالبــة من يستعصى عليهــا من سواهم ، استمالت أيضا أمير الآلاى الخامس الذى كان مقيما بالاســكندرية بجهة باب شرقى ، فأرادت أن ينقل الآلاى الثالث الذى كان مقيما بقلعة المعز بالقاهرة الى الاسكندرية، وأن يأتوا بالآلاى الخامس الى مصر بدلا عنه ، وبذلك يكون فى مصر آلايان تحت طاعة الخديو ، والله أعلم ماذا أراد الخديو توفيق أن يفعل بهذين الآلايين بعد استقرارهما فى مصر

هل كان الخديو يريد أن يصدر أمرا بالقبض على رؤساء الفتنة ، فاذا قامت جنودهم لحمايتهم صدر الأمر بالحرب والقتال بين الفريقين الطائعين والعاصيين ؟

ما أظن أن ذلك خطر بالبال . ولو مر ذلك بذهن الخديو لسهل عليه حسم الفتنة فى اليوم الثانى من واقعة قصر النيل ، ولكنها هواجس كانت

تجول فى الاذهان ، ثم تصدر عنها حركات وأعمال لايدرى صاحبها نفسه ما الغاية التى يريد منها ..!

ولما استحكم اليأس من نفس عرابى (١) ، وظن أن الخطر محدق به كتب هو وجماعة من الضباط عريضة الى السلطات يشكون فيهـا من الظلم ، ويلتمسون ارسال مأمور خاص لتحقيق ما يشكون منه ، وكان ذلك قبل حادثة عابدين بثلاثة أيام

---

(١) اشار الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده فى هذا الفصل الى ان من اسباب طلب عرابى باشا عقد مجلس النواب ورفعه عريضة الى السلطان هو خوفه هو وزملاؤه على حياتهم ، وأنه اراد بطلبه مجلس النواب ان يضيف قوة الى قوته . ومع تسليمنا بأن الحكم النيابى الصحيح هو قوة تظهر فيها سلطة الامة الا اننا لانوافق على أن عرابى لم يطلب هذا المجلس الا لحماية نفسه . وهنا ننقل ما كتبه عرابى فى هذا الموضوع فى مذكراته ، وفيه تتبين اسباب طلبه الحقيقى لقيام هذا المجلس .. قـال :« أخذت فى نشر افكارى بين علماء الامة واعيانها وعمد البلاد ومشايخ العربان ، طالبـا منهم مساعدتى فى حفظ الامن والراحة العمومية : حتى نتفرغ للنظر فى مصالح البلاد ، ولتوفر على انتشالها من وهدة الاضمحلال ، وهاوية التلاشى التى سقطت فيها ، أو كادت ، بتفريط الحكومة ، فى حقوق الامة وبيعهـا كثيرا من الاراضى للاجانب مع تعيين كثير منهم فى ادارات الحكومة ومصالحها بالمرتبات الفادحة ،وسعيها فى رفع الاحجار الطبيعية ، الموجودة فى بوغـاز الاسكندرية ، وغير ذلك مما كان ينذر بأوخم العواقب . ثم اثبت لهم ان سكوتنا عن حفظ حقوقنا عجز وجبن فاضح ، ومشاركة للحكومة فى التفريط فى وطننا العزيز

« وافضيت اليهم باننا قد اعتمدنا على البارى سبحانه وتعالى فيما اعتزمناه من منع كل ما من شانه الاجحاف بحقوقهم . وسبيل ذلك اسقاط الوزارة الحاضرة التى لاتريد بالبـلاد خيرا . وتشكيل مجلس نواب يمهد اليـه فى الوصول بنا الى الحرية المنشودة .. وختمت المنشور بطلب مساعدة أبناء البلاد وتأييدهم

« وبناء على ذلك وفدت علينا الوفود من جميع انحاء القطر ، وسلمتنا عرائض النيابة عنها . واوضحت الينا العمل لما فيه سـعادة البلاد ، وخلاصها من براثن رجال الاستبداد ، معلنة تضامنها معنا فى كل ما تقوم به من اعمال الاصلاح وما ينتج عنها من النتائج »

الفصل السادس

أسباب الحادثة

أصدر ناظر الجهادية أمرين فى يوم واحد ، أحدهما الى ابراهيم بك حيدر أمير الآلاى الثالث الذى كان يقيم فى القلعة بالتوجه الى الاسكندرية ، والآخر الى حسين بك مظهر أمير الآلاى الخامس أن يبارح الاسكندرية الى القاهرة ليحل محل الآلاى الثالث ، ثم أصدر أمرا الى أمير الآلاى الثانى أن يرسل من الضباط من يستلم المخافر من ضباط آلاى القلعة عند سفرهم ، فعندما وصل الأمر الى ابراهيم بك حيدر وعرفه الضباط أسرع اثنان منهم الى عرابى وأخبروه به ، ففزع لذلك هو ومن معه وهالهم ، وتمثل لهم سوء العقبى ، وأيقنوا أن فى ذلك القضاء عليهم ، فأمر عرابى أولئك الرسل أن ينادوا فى ضباط آلاى القلعة بعدم التسليم وبالبقاء فى مواقعهم ، وأن يمسكوا من يأتى اليهم من الآلاى الثانى للاستلام ، ففعلوا واجتمعت كلمتهم على ذلك ، وعندما حضر الآلاى الثانى كتب محمد أفندى الرملاوى ومحمد أفندى السيد الى عرابى بما محصله : « ان أربع بلوكات حضرت لاستلام مواقع الآلاى ، وأمتعة أبنائكم قد ربطت ، فأحضروا بنصف آلايكم والا فنحن قائمون ، أما النصف الآخر فيبقى تحت قيادة محمد أفندى الزمر الى العصر ثم يحضر »

عند ذلك كتب عرابى الى نظارة الجهادية ينبئها بأن جميع الآلايات ستكون فى ميدان عابدين فى نهاية الساعة التاسعة من ذلك اليوم ، وهو اليوم الخامس عشر من شهر شوال سنة ١٢٩٩ هـ [1] بعد أن كتب الى

(١) الصحيح يريد سنة ١٢٩٨ هـ فقد ارسل عرابى الى جمع الآيات المشاة والفرسان والمدفعية الموجودة بالقاهرة ان يوافوه فى ساحة عابدين فى الساعة العاشرة (بالوقت العربى) عصر يوم الجمعة ١٥ شوال سنة ١٢٩٨ هـ الموافق ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ م لعرض طلباتهم على الخديو

جميع الآلايات أن توافيه فى الموعد ، وكتب الى الجناب الخديو يحيطه بذلك علما ، والى قناصل الدول يؤكد لهم أن الغاية من جمهرة الجنــد داخلية محضة لطلب أمور عادلة ، فليكونوا مطمئنين على أرواح رعاياهم وأموالهم وأعراضهم

أرســل الجناب الخديو رضا باشا ليسأل عرابى عن السبب فى اجتماع العساكر بساحة عابدين ، فأجاب عرابى أن للجند مطالب يريد انفاذها ، فجاء رضا باشا (١) ، وعرض الأمر على الخديو ، فأرسل طه باشا ليطلب الى عرابى أن يسكن ويرجع عما عزم عليه ويحذره العاقبة ، وكان الوقت قد حضر فقام الآلاى بحضرة طه باشــا وقام معه آلاى الطبجية . أما الخديو توفيق فقد توجه بنفســه الى آلاى الحرس (الآلاى الاول) وأخذ ينصح الضباط ويذكرهم بأنهم أبناؤه وحرسه الخاص ، وينــذره بعواقب مثل هذه العصبية .. عصبية الجاهلية ، فصاحوا جميعا : « نحن جميعــا فداء لولى نعمتنا » فعنــد ذلك أمر جنابه أمير الآلاى أن يوزع العساكر داخل السراى ، وأن يقيمهم على نوافذها ليقوها من الهاجمين عليها .. ثم استصحب رياض باشــا وذهب الى القلعة ، وعند وصوله طلب الضباط وســألهم عن الحامل لهم على مخالفة الأمر الصــادر اليهم فأنكروا المخالفة ، فالتفت الى أمير الآلاى ابراهيم بك حيدر يستفهم منه فأجابه أن « فودة بك حسن » هو الذى أغرى الضباط بالمخالفة ومنعهم من التسليم ، وكان « فودة بك » على مقربة من رياض باشا فجذبه من طوقه وقال له : « أمثلك يقاوم أوامر الحكومة ويمنع من تنفيذها ؟ »

وبينما هم فى الكلام ، اذ ضرب أحد البروجية نوبة «سنكى‌ديك» (٢) فأسرعت العساكر الى تركيب الحراب على البنادق ، وأحاطوا بالخديو ورئيس النظار ، وصاحوا : « أطلق البكباشى » ، فأمر الخديو بتركه وأخذ يخاطبهم : « ألست خديويكم ؟ ألست ولى أمركم ؟ هل تأخر لأحد

---

(١) اللواء رضا باشا واللواء طه باشاكلاهماكان ياورا للخديو توفيق

(٢) هذه النوبة يراد بها أن يضع الجنودالسلاح فى رءوس البنادق . وقد امر بندائها اليوزباشى محمد السيد

منكم راتب ؟ أو نقصت له مئونته ؟ أو حرم من حقه فى ملبس أو نحوه ؟ فلم جهرتم بالعصيان وخالفتم أوامرى ؟ »

فأجابوه بقولهم : « نحن جميعا مطيعون لأوامر ولى نعمتنا ، ولكن قيل لنا ان الغاية من الأمر بسفرنا هو اغراقنا فى البحر ، عند مرورنا فوق كوبرى كفر الزيات .. »

فأسف الخديو لذلك ، وانصرف على أن يذهب الى العباسية لمنع عرابى من المجىء الى ميدان عابدين ، فبلغه وهو فى الطريق ان الآلاى قد سبق الى ساحة السراى ، فرجع هو ورياض باشا ، فوجد الساحة غاصة بالعساكر من كل فريق فدخلا من الباب الشرقى

وأول من حضر من الآلايات آلاى السوارى تحت قيادة أحمد عبد الغفار ، ثم آلاى عرابى وآلاى الطوبجية تحت قيادة اسماعيل بك صبرى ، ثم الآلاى الثانى تحت قيادة البكباشية لأن أميره محمد بك شوقى أبى أن يحضر معه ، ثم آلاى عبد العال حلمى وهو آلاى السودان تحت قيادة أمير الآلاى ، وفرقة المستحفظين يقودها ابراهيم بك فوزى ، واجتمعوا جميعا فى مبتدأ الساعة التاسعة (١) حسبما كتب عرابى

وصل عرابى يقود آلايه ومعه الطوبجية تتخلل بطاريات مدافعه فرق العساكر وهو ممتط جواده شاهرا سيفه ، ويحيط به عشرة من ضباطه شاهرى السيوف كحرس له .. أنبأه بعض الضباط أن على فهمى قد أدخل عساكره فى السراى للدفاع عنها اذا دعت الحال ، وقد ادخر كمية وافرة مما يحتاج اليه لذلك ، فاستدعى على فهمى واشتد فى توبيخه ورماه بالخيانة ، فاعتذر بأنه فعل ما فعل مداراة منه للخديو وتدبيرا لحيلة سياسية ثم أمر بالنداء فى الآلاى بالنزول فنزلت العساكر جميعا واصطفت فى الساحة مع بقية الجنود

وكان قناصل الدول ومستشارو الحكومة ونظارها قد حضروا الى سراى عابدين ، وعندما رأى عرابى أن الجيش قد اجتمع بأكمله ما عدا

(١) الساعة العاشرة فى مذكرات عرابى

آلاى القلعـة ، فانه بقى فى مقره بأمره ـ أمر باقامة الخفر على أبواب السراى لمنع من يدخل اليها ومن يخرج منها

عرابى والخديو توفيق

وأشرف الجناب الخديو على العساكر ، وأمر باحضار عرابى ، فحضر راكبا جواده سالا سيفه ، محفوفا بضباط السوارى يحرسونه .. فأمره باغماد سيفه والنزول الى الارض وابعاد الضباط عنه ففعل ، ثم أخـذ يخاطبه :

« ألم أكن سيدك ومولاك ؟ ألست أنا الذى رقيتك الى رتبـة أمير آلاى » فيجيبه عرابى : « نعم » ثم سأله : « لم حضرت بالجند الى هنا ؟ » فقال : « لطلبات عادلة ، وهى عزل وزارة رياض باشا ، وتشكيل مجلس النواب ، وزيادة عدد الجيش والتصديق على قانون العسكرية الجديد ، وعزل شيخ الاسلام « الشيخ العباسى (١) » .. » فقال الخديو: « كل هذه المطالب ليس من شأن الجند أن يطلبها » فسكت عرابى ولم يجب بشىء ..

ثم أشار القناصل على الخديو بالرجوع الى داخل السراى خوفا مما عساه أن يعقب هذه المخاطبة مما لا يحمد ، ثم تولى المستر كونفى (٢) المستشار الانجليزى فى المراقبة الثنائية وقنصلا انجلترا والنمسا المخابرة مع عرابى فى مطالبه ومطالب الجند ، فقال المستر مالت قنصـل انجلترا لعرابى : « ان عزل الوزارة من خصائص الخديو ، وطلب تشكيل مجلس النواب من شأن حقوق الأمة لا الجند ولا ضرورة لزيادة عدد الجيش ، فان البلاد آمنة مطمئنة ، وليس فى الأمم من يريدها بسوء ، أما التصديق على قانون العسكرية ، فسيكون بعد اطلاع الوزارة عليه ، وأما عزل

---

(١) نفى عرابى باشا فى مذكراته انه طلب عزل شيخ الاسلام . ولم يذكره احمد شفيق باشا وكان شاهد عيان لهذه الحادثة ، ولكن شيخ الاسلام محمد العباسى المهدى لم يكن من أنصار الثورة العرابيـة ، وكان من الموالين للخديو ، فلما سقطت وزارة رياض باشا وتولت وزارة شريف باشا سعى عرابى وصحبه فى خلعه وكان يتولى منصب الافتاء مع مشيخة الازهر ، فخلع من المشيخة وبقى فى منصب الافتاء

(٢) هو السير اوكلن كونفى

شيخ الاسلام ، فقد يحصل بعد بيان أسبابه »

أجاب عرابى : « ياحضرة القنصل ان ما يتعلق بالأهالى من هذه المطالب لم تنهض اليه الا بالنيابة عنهم فقد أقامونى نائبا عنهم فى طلبه وتنفيذه بواسطة هذه العساكر الذين هم أبناؤهم وأخوتهم ، واعلم أننا لا نفارق هذا المكان ما لم تنفذ جميع تلك الرغائب التى أبديتها »

وقال القنصل : « تصرح بأنك تريد الوصول الى ما تطلب بالقوة ، وهذه هى الهمجية التى تجر الخطر الى بلادك ، وربما تفضى الى ضياعها» فقال عرابى : « وكيف ذلك ومن الذى يعارضنا فى شئون داخليتنا ؟.. ولئن تحرش لذلك أحد فاعلم أننا نقاومه بكل ما لدينا من الحول والقوة ولو أدى ذلك الى فنائنا عن آخرنا » فقال مالت : « وأين تلك القوة التى تكافح بها وتناضل عن بلادك » فقال : « أستطيع أن أحشد فى زمن قصير مليونا من العساكر كلهم يسمعون قولى ويتبعون اشارتى ، فان كانت دولة انجلترا هى التى تستعد لخصامنا ، فلتكن على حذر من ثورة عامة فى الهند تقضى على حياتها فيه » فقال القنصل : « وماذا تفعل لو لم تجب على طلبك » فقال : « كلمة واحدة أقولها » فأجاب مالت : « ما هى ؟ » فقال عرابى : « أقولها عند اليأس والقنوط »

ثم انقطعت المخابرات بين الجناب الخديو وعرابى مدة ثلاث ساعات ، استولى فيها الضعف على جميع من كانوا داخل السراى من نظار وقناصل وغيرهم ، وظنوا انه من وراء هذا الاجتماع نيرانا تلتهب ، وحربا تنتشب .. ولذلك أفضت مداولاتهم الى التسليم والرضا باجابة عرابى الى ما يطلب ، لكن على شريطة التدريج فى التنفيذ ، وأرسلوا اليه يخبرونه بذلك فقبل ما عرض عليه ، واشترط أن تعزل الوزارة قبل انصراف العساكر ، فجاءه الخبر فى الحال بقبول استعفائها ، فطلب أن يعين شريف باشا رئيسا للنظار ، ومحمود سامى باشا ناظرا للجهادية ، فقبل شرطه وانصرف العساكر

سقوط وزارة رياض

استدعى شريف باشا لقبول رئاسة النظـار ، فتردد فى ذلك (١) أياما لاحساسه بالضعف عن القيام بأعباء الوظيفة ، اذا استمر الجند على مناوأته للحكومة واستبداده بالسلطة فيما يطلب ، واستعداده عند الابطاء فى موافاة مطلبه الى احاطة كرسى الحاكم بالسلاح وتهديده بالوثبة عليه اذا لم يسارع فى سوق رغائبه اليه ، ولظنه أن دولتى فرنسا وانجلترا ربما كانتا معضدتين لرياض باشا ويهمهما أن يبقى فى مسند الوزارة .. فاذا تولاها غيره خشى أن تنصبا له المكايد ، وتقيما له العثرات فى سيرة ولسابق علمه بالمخابرات التى كانت بين الضباط وبين الآستانة ، وبما فى بعضها من الثناء عليه ، وانه ورياض باشا على طرفى نقيض .. فرياض باشا هو ممثل النفوذ الأجنبى فى مصر ، وشريف باشا هو الامام المنتظر لتخليص مصر من ذلك النفوذ واعلاء الكلمة العثمانية فيها ، ويخشى أن تظهر الحوادث عجزه عما يؤمل فيه

كان محمد شريف باشا رحمه الله من أقوى عوامل هذه النهضة التى انقلبت الى فتنة ، كان من القائلين ان النفوذ الاجنبى قد بلغ حـدا لم يكن يمكن أن يبلغه لو لم يتساهل رياض باشا بالتسليم للأجانب فى كل ما يطلبون . كان شريف باشا يقنع جلساءه بأنه اذا ملك فيها ، أوقف الأجانب عند حدودهم ، وسار بالوطن شوطا عظيما فى مجده ..

كان هو ورؤساء الفتنة (٢) يتراسلون ويتواعدون .. ولهذا طلبوه

---

(١) وكان شريف باشا بالاسكندرية وقتئذ ، فاستدعى بالتلغراف وحضر يوم ١٠ سبتمبر سنة ١٨٨١ م فى الفجر بقطار مخصوص ، وتقلد الوزارة وهى وزارته الثالثة – فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨١ م

(٢) كان الاستاذ الامام وقتئذ المحرر الاول للوقائع المصرية ورئيس تحريرها . وكان فى أول الثورة العرابية منتقدا للطريقة التى اتبعها الثوار مع رياض باشا رئيس الوزراء الذى خلص البلاد من كثير من المظالم ، ويرثى لحملتهم عليه ، وكان من رأيه اخذ الامور بالسياسة لا بالعنف ، وكان تقديره لوطنية رياض باشا واعتداله فى مسالة مجلس النواب مع رغبته فى قيامه ، وخوفه من استيلاء الاجانب على البلاد اذا ما تفاقمت الثورة والتجأ أمير البلاد الى المساعدة الاجنبية ، كان ذلك كله يدفعه الى نقد عرابى ، ونصيحته له ولاخوانه بأخـذ الامور بالتدريج لا بالطفرة حتى لا يزداد النفوذ الاجنبى ، خصوصا وقد كانت انجلترا وفرنسا تتربصان بمصر الدوائر ، وتتسـابقان الى الاستيلاء عليها

رئيسا للنظار ، ولو عرض عليهم سواه لما قبلوه

كان وجه الرئاسة يهش له على بعد ، وجمالها يخدعه . وهو منها على موعد ، حتى اذا ما دنا منها ، ألفاها شكسة شرسة !



وقد كان هو والاستاذ جمال الدين الافغاني يتوقعان ذلك من تصرفات اسماعيل التي أتاحت للاجانب فرصة التدخل ، واخذوا يعملون لزيادة تدخلهم واستيلائهم على مقاليد الامور . ومع انتقاد الشيخ محمد عبده للثورة ورئيسها عرابي ، فلم يكن ميالا للخديو ولا راضيا عن تصرفاته هو ورجال السراى ولم يؤيد عملا من اعماله ، بل كان ينتقد سياسته المخالفة لمصلحة البلاد . ولما رأى ان المصلحة في الاتحاد انضم الى عرابي وزملائه في طلبه مجلس النواب ، وعندما قامت الحرب انضم اليـــه وكتب في الوقائع يؤيده ويدعو الى مساعدته بالنفس والمال . وقد حوكم معهم وحكم عليه بالنفي ثلاث سنوات خارج القطر . ويدل على ذلك قصيدته التي نظمها في السجن . قال فيها :

سريت للمجد هونا غير ذى عجـــل   على اســـاس من التقوى اراعيه
مجدى بمجد بلادى كنت اطلبـــه   وشيمة الحر تأبى خفض اهليـــه

الفصل السابع

سفر عرابى الى رأس الوادى

قبل شريف باشا الوزارة بعد تردد وألفها فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨١ م، وكانت له الرياسة ووزارة الداخلية ، ومحمود سامى البارودى باشا للحربية والبحرية ، وعلى حيدر باشا للمالية ، واسماعيل أيوب باشا للاشغال ، ومصطفى فهمى باشا للخارجية ، ومحمد زكى باشا للمعارف ، والاوقاف ، ومحمد قدرى باشا للحقانية

وقد ابتهجت الأمة بوزارة شريف باشا ، وهنأه الضباط وسائر طوائف البلاد . وقد اجتمع الزعماء من الضباط والأعيان فى منزل محمد سلطان باشا وكتبوا عريضة بطلب انشاء مجلس نواب ، وذهبوا برئاسة سلطان باشا الى شريف باشا وقدموا اليه هذه العريضة ملتمسين رفعها لسمو الخديو توفيق ، فوعدهم بذلك وصرح لهم بأن تأليف مجلس النواب هو الوسيلة الوحيدة لما يقصده من اصلاح والسبب القوى لما يبتغونه من النجاح

وقد بر شريف باشا بما وعد به من انشاء مجلس النواب الذى افتتحه الخديو توفيق ، فوعدهم بذلك وصرح لهم بأن تأليف مجلس النواب هو ادارية وقضائية وعسكرية ، وعمل على تحسين حالة البلاد

وقد صارح أحمد عرابى وصحبه ــ بعد توليه الوزارة بقليل ــ بأن مصلحة البلاد تقضى بابعاد الآلايات التى يتولون قيادتها عن العاصمة ، حتى تهدأ الخواطر ، ويقوى سلطــان الحكومة أمام الدول الاجنبية ، فوافق عرابى مرغما ، وسافر عبد العــال حلمى مع آلايه الى دميــاط ، وسافر عرابى مع آلايه الى رأس الوادى بالشرقية . وقد بقى فيه عرابى ثلاثة أشهر يتنقل فى الجهات ويبث أفكاره ، فرأى شريف باشا أن يعينه

وكيلا للحربية ، فعاد الى العاصمة واستقر بها وتوطدت الصلة بينه وبين البارودى وزيرها ، وعظم نفوذه

وبعد أن ألفت وزارة شريف باشا مجلس النواب ، أخذ فى وضع دستور له ، وكان يدعى فى ذلك الحين « اللائحة الاساسية » أو« القانون الاساسى » . وقد وضع على أحدث المبادىء العصرية ، فهو يحتوى على القواعد الرئيسية للنظم البرلمانية كتقرير مبدأ المسئولية الوزارية أمام مجلس النواب ، وتخويل المجلس حق اقرار القوانين بحيث لا تصدر الا بموافقته ، ومناقشة الميزانية وتقريرها ، والرقابة على أعمال الحكومة وعدم فرض أية ضريبة الا بعد عرضها على المجلس وموافقته عليها ، الى غير ذلك من النظم النيابية الصحيحة التى تقرر سلطة الأمة . ولما علمت فرنسا وانجلترا بهذا الدستور تذرعت بأزمة سياسية حتى لا يصدر ، ولكى يتاح لها التدخل المسلح فى شئون مصر .. وهنا نستأنف مذكرات الاستاذ الامام ، وهى فيما يلى من الصفحات مركزة ننقل بعضها مما يحتاج اليه المقام عن الشيخ محمد رشيد رضا الذى نقلها عن دفتر مكتوب بخط الامام . ونعلق عليها بما يحقق أحداثها ويوضح أغراضها ومراميها

سفر عرابى

قال الاستاذ الامام :

لم يذهب عرابى الى رأس الوادى الا بعد أن صدر الأمر بتأليف مجلس النواب على طريقة جديدة . وكان الخديو توفيق قد حاول أن يستدعى أعضاءه على مقتضى النظام القديم (١) فأبى الا نظاما جديدا . وعند سفره ألقى على مودعيه خطابا طويلا شكا فيه من العقبات التى تصادفها مطالب الشعب من وضع دستور يكفل له الحرية ، ويؤمنه من

(١) يقصد نظام مجلس شورى القوانين الذىكان فى عهد الخديو اسماعيل . وكانت السلطة فيه للخديو

الاستبداد ، وصرح فيه بأن الخديو والنظار ، ومن على شاكلتهم كلهم لايميلون الى مساعدة الأمة على ما تطلب ، وبأن أعداء الأمة هم الدائنون ومعاونوهم من الأجانب يدفعهم الطمع الى الاستيلاء على جميع موارد الرزق فى مصر ، وان من الافتراء أن يقال ان البلاد تريد سلب الأموال والاستئثار بالمنافع ، وسلب حقوق الدائنين ، وانما الحق أن هناك شعبا يطالب بأن يكون على أثر بقية الشعوب تحت حماية قانون عادل يؤمنه من الاعتداء على الاشخاص والأموال

مؤامرة فرنسا وانجلترا

فى أواخر سنة ١٨٨١ ، أراد غمبتا ارسال ٢٥ ألف عسكرى لتقرير النظام فى مصر ، مع انه لم يكن حصل فيها شيء . وكان ذلك فى وقت المخابرة بين فرنسا وانجلترا فى عقد معاهدة تجارية

وقد قال غمبتا فى محادثة مع اللورد ليون فيما يتعلق باستدعاء مجلس النواب : « قلبى ممتلىء رعبا .. ليس من الممكن الحزر والتخمين على ما عساه يقرره ما يسمى بالحزب (١) الوطنى .. من الجائز أن يعمد الى تقرير طريقة مختلفة تخالف مصالح الاوربيين .. لا أجد وسيلة للاحتياط لمنع نهضة جديدة أفضل من افهام المصريين ان انجلترا وفرنسا لايمكنهما أن تحملا شيئا من هذه المطالب ولا تلك النزعات

كان اتفاق « غمبتا » (٢) واللورد ليون نوعا من التعصب ، اذ لم يعرف مثل هذا الاتفاق على اسبانيا واليونان مع كثرة ديونهما ، وانهما

(١) الحزب الوطنى هو وليد جمعية حلوان السابق ذكرها فى هذه المذكرات فان هذه الجمعية التى تألفت من بعض الاعيان المعارضين لسياسة رياض باشا ، تحولت فيما بعد الى حزب انضم اليه الزعماء الوطنيون من الضباط والوجهاء .. وكان منهم الشيخ محمد عبده ، وقد اجتمعوا فى منزل محمد سلطان باشا . ووضعوا برنامجا له قيل ان واضعه الشيخ محمد عبده وقد نشروا هذا البرنامج حينما ذاع تخوف الاجانب منهم ، وارسله مستر بلنت بواسطة السير وليم جريجورى الى جـريدة التيمس فنشرته فى أول يناير سنة ١٨٨٢ م

(٢) غمبتا السياسى الفرنسى تولى رياسة الوزارة ووزارة الخارجية الفرنسية فى نوفمبر سنة ١٨٨١ م وكان حريصا على التدخل فى شئون مصر . وقد ساءه انشاء مجلس النواب اذ كان يكره الحرية للشعوب الشرقية . وقد فاوض اللورد جرانفيل وزير خارجية انجلترا فى ضرورة التدخل المشترك . ولذلك اشتركت الحكومتان فى ارسال مذكرة الى الخديو توفيق بتاريخ ٨ يناير سنة ١٨٨٢ م لبلغاه اتفاقهما على تأييده

أصعب حالا فى الوفاء من مصر

مقاومة فرنسا وانجلترا

فى ١٢ يناير سنة ١٨٨٢ م ، سأل اللورد جرانفيل وزير خارجية انجلترا مالت (ادوار مالت المعتمد البريطانى) : « أخبرنى بالتلغراف ما هى حدود سلطة مجلس النواب فى المالية المصرية على حسب ما قررته الجمعية العمومية والشروط التى تطلبها ؟ »

فأجابه فى ١٣ منه :

« مرتبات الموظفين الذين لم يكن تعيينهم بعقود مع الحكومة تكون تحت مراقبة المجلس ، وعلى ذلك يمكنه أن يلغى مصلحة المساحة مثلا لأنها لم يكفل تشكيلها باتفاق دولى ، ويمكنه الاستغناء عن عدد كبير من الموظفين الأوربيين فى الادارة المصرية »

وقد قال مالت : « اذا حاز مجلس النواب حق تقرير الميزانية فقدت المراقبة (المراقبة الثنائية) سطوتها فى الأمور المالية »

وفى ١١ يناير سنة ١٨٨٢ م ، قال مالت : « انه قد تقرر عنده ان المصريين قد دخلوا بحق أو بغير حق فى طريقة الدستور وان اللائحة التى يريد المصريون تقريرها لمجلس شوراهم تمثل فى الحقيقة شرائط حريتهم. وحيث قد تقرر هذا المجلس بحالة نهائية فلا شىء يمكن أن يبطله ، ولا أن يلغيه الا أن يكون تدخل (أجنبى) وهو آخر ما ينتهى اليه العمل .

وقد أكد سلطان باشا (رئيس مجلس النواب وقتئذ) لقنصل انجلترا ان النواب لم يوافقوا الا آمال الشعب ، وليس من ضغط عسكرى ، ولا يمكنهم أن يعدلوا عما يوافق رغبة الأهالى

فأجابه : « لا انتظار لأدنى مساعدة بما يختص بهذه المسألة (تقرير الميزانية) لما فى ذلك من الخطر . وما يقولونه وما يطلبه النواب لا طريق لنيله الا القوة ، واستعمالها اعلان للحرب . وقد علمت ارادة انجلترا وفرنسا فيما يتعلق بذلك

وفى ٢٠ يناير سنة ١٨٨٢ م ، فى مجموعة أعمال البرلمان نمرة ٣٢٣٠ تلغراف من مالت يقول فيه :

اذا تمسكنا بمعارضتنا لمجلس النواب فى أن ينظر فى الميزانية كانت المداخلة العسكرية أمرا اضطراريا ، فان اصرار مجلس النواب على رأيه فى ذلك جزء من مشروع تام أعد للثورة

وفى ١٧ يناير سنة ١٨٨٢ ، قدم المراقبون طلبهم فيما يتعلق بمجلس النواب ومطالبه قائلين :

ان الأوامر الخديوية السابقة قد ربطت الادارة المالية بدولتى فرنسا (١) وانجلترا ، فاليهما يرجع السماح للمجلس بحق اعطاء رأيه فى الميزانية وعدمه ، وهما لا تسمحان بذلك لما ظهر من مقصد المجلس فى تنقيص عدد الموظفين الاوربيين ، وفى ٢٧ منه أمضوا المذكرة بذلك باسم الدولتين

وفى ٢ فبراير سنة ١٨٨٢ ، استعفى شريف باشا وعين محمود سامى باشا البارودى

وزارة محمود سامى البارودى

* قرر مجلس النواب تعيين لجنتين لتخفيف بعض الشكاوى التى رفعت على مصلحة المساحة وعلى ادارة الجمارك ، وظهرت وجوه الخلل فى أعمال الموظفين الاوربيين ، وتحقق ما كان يخشاه المراقبون من مقاصد المجلس ، وقد رفض مسيو كاليار مدير الجمارك أن يحضر جلسات التحقيق وعارض فى أعماله

وقد وقف المجلس على تقرير قدم للمراقبين من أحد موظفى الدومين المسمى « روفسل » يطلب فيه مراقبة المجلس ، حيث أعطى الفلاحين آمالا

(١) تدخلت فرنسا وانجلترا مرتين فى شئون مجلس النواب ، الاولى عند وضع اللائحة الاساسية « الدستور » والثانية عند تقرير الميزانية ، وقد طالبتا بشدة حرمان المجلس من حق تقرير الميزانية . وكان من رأى شريف باشا تأجيل البت فى الميزانية ليتفادى الازمة ولما لم يوافق المجلس استقال من الوزارة ، وخلفه محمود سامى البارودى فى الرياسة ، واختار عرابى ناظرا للجهادية والبحرية « وزيرا للحربية والبحرية » . وذلك فى ٤ فبراير سنة ١٨٨٢ م

فى أن يصلوا بالطفرة الى ما يزيد من حريتهم ، واشتكى من أن المدير لا يحبس فى الحال من يطلب منه حبسهم لتوقفهم عن العمل ، ومن أن كل شخص يحبس بغير أمر قضائى يرسل بالتلغراف الى نائبه ، وعلى ذلك يسأل المدير عن السبب فى الحبس . وهـذا تظـاهر من الأهالى بالأحوال الجديدة التى يبنون عليها حريتهم وخلاصهم

* غوردون باشـا يكتب الى « التيمس » فى ينـاير سنة ١٨٨٢ :

« يقال ان مصر تسرع فى الغنى والسعادة وأنها فرحة مسرورة . ولا أظن أن شيئا قد تغير عما كان الا ما كان من ضمـانة الدين ، فانها اليوم أوثق ، أما الحبوس (السجون) فغاصـة بأولئك المساكين من الفلاحين !

مسالة الضباط الجراكسة

فى مسألة الجراكسة قدم عرابى الحكم وطلب العفو بتخفيف العقوبة ، فأرسل الخديو الحكم الى الآستانة ، فطلب السلطان الأوراق ، وكان ما فعله الخديو بناء على نصيحة القنصلين قد أساء الى الوزارة ، وبدأ الخلاف ، وطلب من الخديو تسـوية المسـألة ، فأشـار على القنصلين بالاصرار وطلب استعفاء الوزارة (وزارة محمود سامى البارودى)

يقول مقدم هذه المذكرات :

« ان ما ورد فى هذه السطور من مذكرات الامام مقتضب يحتاج الى توضيح .. ذلك ان طائفة من الضباط الجراكسة دبروا مؤامرة لقتـل عرابى وصحبه زعمـاء الحركة العرابية . وعلم عرابى بهذه المؤامرة فى شهر أبريل سـنة ١٨٨٢ ، فعرض الأمر على الوزارة والخديو ، فتقرر محاكمة الضباط المتهمين أمام مجلس عسكرى برياسة راشد باشا حسنى . وقد بلغ عددهم أربعين ضـابطا فى مقدمتهم عثمان رفقى وزير الحربية السـابق . وقد أصـدر المجلس حكمه فى ٣٠ أبريل ، وهو يقضى على المتهمين بتجريدهم من رتبهم ونياشينهم ، ونفيهم الى أقاصى السودان

نفيا مؤبدا

« ولما رفع الحكم الى الخديو توفيق رفض الموافقة عليه لقسوته فى رأيه ، وأصر على تعديله ، وتمسكت وزارة البارودى باقراره ، وأشار عليه معتمدا فرنسا وانجلترا بأن يرفض الحكم ويتمسك بتعديله فازدادت الازمة ، وزاد من سخط الوزارة عليه وسخط سائر العرابيين ، خصوصا بعد ما أرسل الحكم الى السلطان بعد ما نالت مصر استقلالها الداخلى منذ عهد اسماعيل . وفى ٦ مايو عرضت الوزارة حسما للخلاف تعديل الحكم من النفى الى السودان الى النفى خارج القطر . ووافق الخديو على ذلك فى ٩ مايو سنة ١٨٨٢ مع عدم تجريد المحكوم عليهم من رتبهم ونياشينهم

« وقد أدى ذلك الى تفاقم الخلاف ، فان الوزارة لم تعدل غير السطر الاول من الحكم . وانتهزت الدولتان الفرنسية والانجليزية هذا الخلاف، وبعثتا بأسطولهما الى ميناء الاسكندرية استعدادا للتدخل المسلح ، اذ عدتا هذه الحالة ثورة ، وأرسلت مذكرة فى ٢٥ مايو سنة ١٨٨٢ ، وطلبت فيها استقالة وزارة البارودى ، وابعاد أحمد عرابى مؤقتا من مصر مع بقاء مرتبه ورتبه »

مذكرة الدولتين

جاء فى الكتاب الازرق الانجليزى أن مستر مالت كتب أولا أن رئيس المجلس لايمكنه بعد الآن أن يعتمد على أعضائه ، فان كراهتهم لكل تدخل أجنبى تزداد كل يوم عما قبله

ثم يقول فى مذكرة أخرى ان المذكرة التى قدمها لم يطلب فيها الا تنفيذ ما أراده أعضاء مجلس النواب ، وقد صرح المجلس بارادته على لسان رئيسه سلطان باشا

ويقال ان قنصل الروسيا مسيو ليكس نصح مرارا أن أحسن طريقة لمعاقبة الشره الاوربى كان امتناع الاهالى كافة عن اعطاء الضريبة الخ

لكن عرابى ورفاقه كانوا يثقون بالدول غرورا ، ولا يعلمون ما كان يجرى حولهم (كذا يقول القنصل) فقد كتب مسيو مالت فى ٧ مايو سنة ١٨٨٢ م ، قبـل وصـول المراكب (الاسطول البريطانى) يقول لحكومته : « ليس من الممكن الوصول الى أى حل كان للمسألة المصرية قبل أن تحصل أزمة شديدة فى البلاد »

حصـلت مذاكرة فى المذكرة (١) التى قدمها وكلاء الدولتين بحضور سلطان باشا والنظار فوضع أحد الحاضرين هذا السؤال : « هل يمكن لنا أن نجمع المجلس ؟ » فأجاب سلطان : « أظن ان ذلك لايكون الا بأمر الخديو فنسأله فى ذلك ، ولا ريب انه يوافق عليه » . فقال له أحد النظار : « الخديو الذى كنت تطلب خلعه ان لم يمكن قتله قبل أيام ؟ »

وكان قد حدث قبل ذلك انه فى احدى الجلسات التى حضرها سلطان باشا مع زعماء الثورة أن طلب سلطان من عرابى قتـل الخديو . وكان سلطان يقول : « اقتلوا الثعبان سلالة الجنـاة الذاهبين الذين باعونا للأجانب » !

هذا هو سلطان الذى كان رئيس الحزب الوطنى ، وهو لايريد الآن الا مجاملة الخديو ــ ذلك الخديو الذى لا يبغى الا بيع البلاد للأجانب !

---

(١) يقصد المذكرة التى قدمتها فرنسـا وانجلترا فى ٢٥ مايو سنة ١٨٨١ م

الفصل الثامن

مندوب السلطان

كانت مقاصد الآستانة (1) من ارسال درويش باشا هى :

١ ـ اطالة زمن المخابرات

٢ ـ أن يطمئن قلب المراقبة وتوفيق من جهة تأكيد سلطة الخديو

٣ ـ أن يستمال قلب عرابى واخوانه بطريقة أبوية الى زيارة الآستانة قصد التنزه على شواطىء البوسفور

٤ ـ تقرير سلطة الباب العالى بمصر .. وكان من السهل ادراك ذلك كله لو أرسلت من هو أقوم من درويش الخ

أخذ درويش باشا يذكر بسلطة السلطان ، ويثنى على الخديو وينصح بالخضوع للنظام . واذا جاء الكلام فى النهضة المصرية يقتصد فى القول ، ويقتصر على قوله ان السلطان مولانا وأبونا ، وهو الذى ينظر فى ذلك ، وقد أرسل الخديو لاستقباله ذو الفقار باشا ، وأرسل عرابى من قبله يعقوب باشا سامى ، وقد حصل خلاف بين الرسولين فى المركب (الباخرة) عند المقابلة فتكدر ذو الفقار .. لكن درويش استقبل كليهما بالبشاشة

بين درويش وعرابى والبارودى

فى يوم السبت ١٠ يونيو ، قابل درويش باشا عرابى ومحمود سامى لأول مرة ، فجرى الحديث بينهما على ما سنذكره :

قال درويش :

---

(1) كان الخديو توفيق قد ارسل الى السلطان العثمانى عبد الحميد يطلب منه مساعدته فى اخماد الثورة العرابية فبعث اليه بوافد فى شهر يونية سنة ١٨٨٢ م على رأسه مصطفى درويش باشا . وكان قد ارسل وفدا على اثر سقوط رياض باشا وتولى وزارة شريف باشا برياسة على نظام باشا فى أكتوبر سنة ١٨٨١ م . ولما حضر وفد درويش باشا كانت البوارج الانجليزية والفرنسية تملأ مياه الاسكندرية

ــ نحن جميعا رجال جند يحترم بعضنا بعضا وأنتم أولادى لمكانى من السن . وقد أرسلنى مولانا السلطان لتقرير الاتفاق بين عائلته العزيزة ، وستسهلون على هــذا العمل ، أنا أعلم شكواكم ، وستقبل شكواكم ، صبرا قليــلا ، سيكون هــذا العمل بعد رحيل الدونانمتين (١) اللتين تضايقاننا جدا ، فقبل كل شىء يلزمنا ابعادهما .. هــذا ما أتكفل به لو عضدتمونى فيه ، أنا أرى جيــدا من جهة وقع الخطأ ، ليس الخطأ من قبلكم ، يجب التوسل الى المطلوب مع الحزم والبصيرة

ثم التفت الى عرابى وقال له :

ــ أنت أنت وحدك الآمر الناهى فى مصر .. أنت مع كونك لست الا ناظر الجهادية ، بيدك السلطــة العليا بأسرها . هــذا ما أغضب الدول المتحدة ، يلزم أن يرين المساهمة معهن ، وما بقى بعد هذا عملنا فيه بيننا وحدنا . استعف من وظيفتك العسكرية بحجة حضورى حيث انى مشير مرسل من قبل السلطان ، وكن نائبا عنى مأمورا تحت قيــادتى ، لكى تسهل على المخابرة مع الأجانب .. عليك أن تذهب مع الضباط الكبار من اخوانك الى الآستانة حيث أن مولانا الخليفة العادل يرى الخير فى مفاوضته معكم

فأخذ محمود سامى يترجم المقال ، وعرابى يسمعه ، ثم قال عرابى :

مشروعكم هذا فى غاية الحسن ، وانا نختاره مع الشكر ، لست حريصا على السلطة التى تريد أن تنسبها الى . هى سلطة غير مغتصبة ، الأمة هى التى أفضت الى بها ، فالواجب أن ينظر الى الأمة ويفكر فى شكواها .. اعترف بأن يديك أبرع من يدى فى العمل لتذليل المصاعب التى أمامنا الآن . سيفى ووظيفتى تحت تصرفك .. أنا مستعد للانسحاب واتبــاع نصيحتك ، انما أشترط شرطــا واحــدا : اعطنى باسم السلطان واسم الخديو واسمك كتابا تصرح فيه ببراءة ذمتنا من التبعات جميعا فى كل

---

(١) يقصد بالدونانمتين العمارتين الحربيتين الانجليزية والفرنسية بالاسكندرية

ما جرى الى الآن ، كائنا ما كان .. سواء أكان ذلك منى أم من اخوانى ، وحيث انى تعهدت للقناصل بحفظ الأمن فى الديار المصرية وتحملت مسئولية ذلك على كاهلى ، فأرجو أن تعفينى من ذلك بطريقة رسمية معروفة

أطلب ذلك لأن الأحوال ان جرت على وجه حسن لم يعرف لنا فيها صنيع ، وان جرت على العكس من ذلك كنا الجانين ..

« مالت ، وكولفنى ، وسندريش ، عاملونا معاملة الخارجين على النظام . وذلك فى بلادنا وهم الأجانب الذين لا يحترمون لنا شيئا ونحن نحترم لهم كل شىء »

فوعده درويش بانالته مطلبه يوم الاثنين ١٢ يوليو ، وهو اليوم المحدد لجلسة يحضرها درويش باشا تحت رياسة الخديو .. وانما طلب أن يعلن هذا القول الذى جرى بينهما من قبلهما جميعا وطلب من عرابى أن يكتب الى الاسكندرية ذلك بالتلغراف ، فأبى عرابى أن يعلن شيئا الا بعد أن ينال ذلك الأمر الذى يعفيه من كل تبعة (١)

(١) لم يفعل مصطفى درويش شيئا ، وقد استماله الخديو برشوته بمبلغ خمسين الف جنيه ، وبهدايا يقول عنها مستر بلنت فى كتابه « التاريخ السرى للاحتلال البريطانى » أنها بلغت خمسة وعشرين الف جنيه

مذبحة الاسكندرية

أخبر مالت حكومته نقلا عن سكرتير الخديو الاوربى (كودار بك) أن محمود سامى وعرابى دخلا فى اليوم الثانى من استعفاء وزارة سامى والسيف فى يد كل منهما يهدد الخديو بفقد حياته

وقد سمع مكاتب « التيمس » من عرابى قبل ضرب الاسكندرية انه يحترم القنال ما لم يخرق العدو حرمة البلاد والا هدمه ، ولكنه ضعف عن ذلك وقت الحرب .

وقد أكثرت الجرائد والتلغرافات من الاشاعات التى أفزعت الاوربيين وأخافتهم من المصريين ، وطالبوا من مديريهم فى الاعمال أن يأذنوا لهم بالتسلح .. فمنهم من أبى ومنهم من أذن

وطلب خدمة (لاسترن تلغراف) التسلح ، فأبى رئيسهم فكتبوا له عريضة فعرضها على رئيس الكمبانية (الشركة) فى لندرا ، فأذن بذلك وسمح بثمانية وثلاثين مسدسا ، وسافرت عائلات الموظفين الى قبرص على نفقة « الكمبانية »

وأصبح الاوربيون متأكدين من عداوة الشعب لهم لاحساسهم من ضمائرهم بسوء أعمالهم اليه ، وتكهن مستر « كوكسن » قنصل انجلترا فى الاسكندرية بوقوع حوادث

فى يوم الأحد ١١ يونيو سنة ١٨٨٢ م ، كانت المقاهى غاصة بطالبى الراحة من الأشغال والراغبين فى اللهو واللعب والسكر، فحدثت مشاجرة على مقربة من مقهى « القزاز » فى آخر شارع البنات فى الساعة الواحدة بعد الظهر ، حيث ازدحام كثير من الكراسى والموائد والناس ، منهم القائم والقاعد . وحدث أن سكير مالطى ـ يقال انه خادم « مستر

كوكسن » (١) ـ ثم ركب عربة وطـاف بها من محل الى محل يشرب ويتنزه الى أن وصل الى حانة أحد مواطنيه ، فطاب منه السائق الوطنى أجرته فأعطـاه المالطى قرشـا واحدا ودخل الحـانة ، فتبعه السـائق وتبادلت الكلمات بينهما ، فتناول المالطى سكينا كانت معلقة فى مائدة الدكان ، معدة لقطع الجبن وطعن بها السـائق فسـقط لا حراك به ، فاجتمع بعض الوطنيين ورجل من أقارب السائق وأرادوا القبض على القاتل ، فجاء يونانى خباز مجاور للحانة ومعه بعض مواطنيه بالسكاكين والطبنجات وأخذوا يضربون يمينا وشمالا ، ومضى نصف ساعة قبل أن تصل عساكر المستحفظين (البوليس) من قراقول اللبان « قسم شرطة اللبان »

وقد قتل أول من جاء منهم (من العساكر) مع المعاون ، فجاء آخرون وصارت معركة عمومية ، ولكن لم يتـداخل العسـاكر فى القبض على الجناة ، فتمكنوا من الفرار (الاروام والمالطيـة) وكان يكفى لحسم المعركة تدخل المحافظ ، لو اهتم بذلك لمرض الضابط (٢) وغيبته

وبعـد نصف ساعة ، حصـل نزاع بين العامة وعساكر المستحفظين ، فتفـاقم الخطب لأن كلا منهما كان يريد أن يفترس الآخر (وذلك لعدم القبض على الجانين) لـكن مسـألة الجانين لم يبق لها ذكر فى أذهان المتنازعين وانما بقى النزاع

ودخـل المسلمون والمسيحيون فى خصـام حقيقى بين أهل الدينين وأخذ الاروام والمالطيون يطلقون الرصاص من أعلى البيوت ، مع انهم كانوا فى مأمن من وصول الشر اليهم . وعند ذلك أخذ المسلمون يفدون من كل جانب مسلحين بعضهم بالعصى والبعض الآخر بأرجل الموائد أو هشـيم الكراسى ، وبعضهم بالنبـابيت اشتروها من المخازن القريبـة

---

(١) فى رواية اخرى ان المالطى ركب حمارالرجل مكار يدعى « السيد العجاف »

(٢) المراد بالضابط السيدبك قنديل ماموالضبطية ، وقيل انه تمارض فى هـذا اليوم ليتأخر من اخماد الفتنة وكان أعمال المذبحـة فى نظر عرابى مؤامرة من الخديو توفيق وعمر لطفى باشا وادوار مالت ، والمستر كوكسن ، ليظهر عرابى بمظهر العاجز عن حفظ الامن

خصوصا من السوق الجديدة

وفى هذه الحالة ، رؤى مستر « كوكسن » نازلا من بيت أحد المالطيين بلباس ملكى ومعه قواصه فتبعه المتشاجرون وضربوه ضربا خفيفا عندما أراد أن يركب العربة ففر ونجا منهم .. وصحبه عمر لطفى « محافظ الاسكندرية » فى أثناء الطريق

لم يكن المسيحيون الاجانب (الاروام والمالطيون) مدافعين ، بل كانوا يهاجمون أيضا . وقد طارت الغوغاء ، ورؤيت عربة تمر حاملة قتلى من عساكر المستحفظين . وعلى القرب من شارع الميدان جاء جماعة من الاروام المسلحين على حسب الأوامر المعطاة لهم ، وأخذوا يطلقون الرصاص على الجموع بدون تمييز

ولم يأت أحد من العساكر ولا من ضباط البوليس ولا « المحافظ » لاطفاء النار ..

وعلى القرب من تمثال محمد على حيث لم توجد مذبحة ، وجد نحو اثنى عشر قتيلا ليس بينهم الا أوربى واحد

وعلى القرب من زيزينيا رؤى عمر لطفى « محافظ الاسكندرية » يسأله سائل : « كيف تكون هنا والمذابح على خطوات منك ؟.. »

فقال له : « لست بقائد وهذا لايعنينى .. »

فسأله : « لِم لَم تحضر بلباسك الرسمى على حصانك شاهرا سيفك مع خمسين من عساكر المحافظين وبذلك ينتهى الأمر ؟ .. »

فأجابه : « انصرف .. ليس هذا من شأنك ، وهل أنت محافظ البلد؟»

وبعد ذلك مر أحد موظفى المحافظة فسئل : « ماذا يفعل الضابط ؟ »

فقال : « انه مريض وقد طلب من المحافظ مرارا أن يرسل العساكر فلم يفعل .. »

وقد كان سليمان سامى مستعدا لارسال العساكر اذا ورد له الأمر من نظارة الجهادية ، ولكن لم يكتب أحد بذلك الى النظارة لأن الأمر بيد المحافظ ، وقد بدأ فى المخابرة التلغرافية مع القاهرة من بدء الحركة ولا

جواب على ما يظهر

وقد ذهب نينيه (١) الى قنصل روسيا ، وحدثه بما رآه من المحافظ فعجب وقام للمخابرة مع اخوانه القناصل ، وبعد ذلك كتب للخديو ودرويش ، وعرابى بما حدث ، وكانت الساعة الرابعة بعد الظهر ..

وفى نحو الساعة الخامسة بعد الظهر ، قابله من أخبره أن عرابى أرسل الأوامر لاعادة النظام . وقد كانت الشوارع غاصة بالرعاع يحملون الاسلاب ويصيحون ويسبون . وبعد نصف ساعة ، عاد النظام الى ما كان

ولم تقتصر المذبحة على شارع البنات ، بل وقع ذلك فى جهة الجمرك وشارع رأس التين وأبو العباس أيضا . واتفق مع ذلك أن بعض المسلمين فى هذه الحالة ، خلصوا نساء أوربيات وأوصلوهن الى بيوتهن .. !

ويقال ان أخوين انجليزيين كانا مسلحين بمسدس ، ولم يحسنا استعماله فقتل أحدهما بضربة عصا أطارت سلاحه من يده ..

وقد ظهر فى اليوم الثانى أن عدد القتلى الوطنيين بلغ ١٦٣ غير من أخفاهم المتشاجرون ، اذ حملوهم سرا من وسط المعركة

ومجموع ما وجد من جثث الاوربيين وغيرهم من المسيحيين بلغ ٧٥ قتيلا ، كثير منهم مصاب برصاص فى قمة رأسه (٢) فبلغ مجموع القتلى ٢٣٨ ..

ولم يصل الخبر الى عرابى الا الساعة الرابعة والربع بعد الظهر، مع أن القليل من موظفى التلغراف الذين يشتغلون بعد الظهر لم يكن عندهم وقت للعمل الا فى تلغراف (المحافظ) حتى ان رسالتين مهمتين من أحد الميرالايات فى اسكندرية لم تقبلا لاشتغال العدة بتلغراف (المحافظ) وقد طلب عمر باشا لطفى انزال عسكر انجليزى لعجز عرابى عن الأمن..

---

(١) هو مسيو جون نينيه عميد الجاليةالفرنسية ، وقد الف كتابا عن الثورةالعرابية باسم عرابى باشا

(٢) هذا يدل على ان هؤلاء قتلوا بالرصاص الذى كان يلقيه الاروام والمالطيون من اعلى بيوتهم بغير حساب

١٢ يونيو سنة ١٨٨٢ م

رجع مسيو « كليكن كويسكى » القائم بأعمال قنصل فرنسا ، الى عقله ، وطلب تحقيق أسباب الحادثة ، فصدر الأمر فى الحال بذلك ..

وبعد هذا امتنع الاعضاء الاوربيون من العمل .. وألح الوطنيون على التحقيق مع حبس من تظهر الشبهة عليه من الاوربيين ، فعارض فى ذلك مندوبو اليونان والانجليز ، وأبى مندوب فرنسا الحضور وطلب بعض وكلاء الدول شنق عشرين شخصا من المذنبين ، وبهذا تنتهى المسألة فى رأيه .. !

***

كان صادق بك وكيل الضابط (سيد قنديل) أعد جنـدا ولكنه لم يستطع أن ينفذ شيئا من تعليمات الضبطية لأن (عمر لطفى) كان يعمل بعكس تلك التعليمات ، وبعد ذلك عين (صـادق) وكيل حكمدارية السودان بناء على توصية (عمر لطفى) فهـل كان ذلك لابعاده حتى لا يشهد ، أو مكافأة له على المشاركة فى الجناية ؟..

وبعد الحادثة نبه القناصـل رعاياهم بالهجرة مع كتابة ما عندهم من متاع وأثاث ، فكتبوا دفاتر وزادوا فيها ما شاءوا . ذلك ان القناصـل كانوا يعتقدون أن البلد ستضرب ، وأرادوا أن يربح رعاياهم ما يشاءون

وفى الأسبوع التالى للحادثة ، أشيع أن « سيمور » (قائد الأسطول البريطانى) لا يعتقـد أن للحزب الوطنى دخـلا فى الواقعـة ، فاهتم الخديو وأمر عمر لطفى أن يخبر « سيمور » أن تعهـد عرابى بالأمن أصبح لا يعتد به ، ويخشى من مذبحة أخرى ... ففعل ولكنه لم ينل جوابا شافيا (أخبر الكاتب « نينيه » غرابى بذلك وطلب منه عزل عمر لطفى ولم يتيسر له ذلك)

وقد استقالت فى ذلك الحين وزارة البارودى باشا . وخلفتها وزارة اسماعيل راغب باشا ، فأصدرت عفوا عن الجرائم السياسية ، غير أن القناصل لم يعترفوا بها تبعا لقنصلى فرنسا وانجلترا

مسئولية عمر لطفى

وكتب الاستاذ الشيخ محمد عبده عن (مذبحة الاسكندرية) فى مذكرة دفاعه أثناء محاكمته مع العرابيين فقال :

ـ لما وقع الخلاف بين الخديو توفيق ووزارة محمود سامى باشا ، شاع فى القاهرة أن الخديو سيسعى بواسطة بعض أتباعه ليحدث شغبا فى نفس القاهرة الى حد أن الوزارة احتاطت لمنع الفتنة ، وبالغت فى ذلك طول مدة قيامها بأعباء الأمر

« وقد استدعى الخديو ابراهيم بك توفيق مدير البحيرة ، وطلب منه أن يجمع مشايخ قبائل البدو ويحضرهم اليه ، ففعل ، وبالغ الخديو فى حسن استقبالهم ، وأكثر لهم من المواعيد ، ثم أوعز الى المدير بأن يأمرهم بحشد ثلاثة آلاف بدوى وباحضارهم الى العاصمة بطريق الجيزة ، ليحدثوا فتنة فى البلد لعدم وجود النظام بينهم ، ولكن تعذر على المشايخ حشد العدد المطلوب من البدو . ولما فشل مسعاه هذا أرسل تلغرافا رمزيا (بالشفرة) الى محافظ الاسكندرية هذا نصه :

« قد ضمن عرابى أمر الأمن العام ، ونشر ذلك فى الصحف ، وجعل نفسه مسئولا لدى القناصل . واذا نجح فى ضمانه هذا ، وثقت به الدول ، وصغر شأننا . أما الآن وأساطيل الدول فى مياه الاسكندرية ، وعقول الناس متهيجة فوقوع الخلاف بين الاوربيين وغيرهم أمر محتمل ، فاختر لنفسك اما خدمة عرابى فى ضمانه أو خدمتنا »

« وفى يوم هذه الحادثة (مذبحة الاسكندرية) توجهت الى السراى ، فرأيت موظفيها فى جدل عظيم مما حدث ، وكانوا يبالغون فى رواية الاخبار ، ويضحكون من عهد عرابى بالمحافظة على الامن العام ـ ومن المعلوم أن موظفى السراى لا يقولون الا ما يسر الخديو ، فاذا كانت الأخبار سارة تكلموا وضحكوا والا تظاهروا بالحزن والكآبة جهدهم

« وبعد ١٢ يوما من هذا التاريخ كنت بالاسكندرية ، فسمعت الناس أجمع يقولون ان المحافظ عمر لطفى سمح بانتشار الفتنة الى هذا الحد ،

لأنه كان مقيما فى البلد ، ولم يصدر أمرا بوقفها ، ولم يذهب الى مكان الفتنة الا بعد مضى وقت . ولم يطلب مساعدة العسكر النظامى مع انهم كانوا على مقربة منه . وقد أجمع الناس على أن عمله هذا موعز به من الخديو ..

« وعلمنا أيضا انه لما كانت المذبحة على وشك النهاية ، وكان المحافظ يتمشى من مكان الى آخر ، واذا بأوربى فى شباك ، وفى يده مسدس ، فقال أحد البدو : « أأرمى هذا الرجل يا باشا ؟ » فقال له : « ارمه » ، فأطلق البدوى عليه الرصاص ، فقتله .. وكثير من المنهوبات دخلت بيته وبيوت أقربائه فى ذلك اليوم الاسود

« وقد سمعت أيضا انه حرض بعض الناس أثناء المذبحة وشجعهم على ذلك ، وانه أشار الى المستحفظين والبوليس ، ألا يتدخلوا قائلا : «دعوا أبناء الكلاب يموتون »

« ولم تسأل اللجنة التى تألفت للنظر فى أسباب الفتنة عمر لطفى عن شيء مما حدث مطلقـا ، بل كان الخديو أوعز اليه أن يستعفى بدعوى المرض

« كان عمر لطفى محافظ الاسكندرية ، زمن الفتنة ، وقد أهمه أمر القيام بحفظ الامن العـام على أنه هو الشخص الوحيد المسئول عنه . هذا اذا لم نقل أنه هو المحرض عليها .فاذا كان فعل ما فعل لطاعة لأمر عرابى كما ادعى مع أن وظيفته تابعة رأسا للخديو ــ لأن الخديو أصدر أمرا خاصا صرح فيه انه بعد استعفاء وزارة سـامى البارودى أفضت أمور الداخلية وشئونها الى السراى ــ فكيف نعلل تعيينه وزيرا للحربية جزاء لطاعته لعرابى وعصيانه لسيده الخديو ؟.. واذا كان الأمر اهمالا منه ، فكيف يصح مع اهماله وعدم كفايته تعيينه وزيرا للحربية ؟.. ولماذا لم يسأل سـؤالا واحدا عما جرى مع انه كان يجب أن يكون أول من يسأل

« لاريب فى أن استقراء سير هـذه الحوادث يظهر أتم الظهـور أن

الخديو بالاشتراك مع عمر لطفى كانا سبب الفتنة »

***

فيما تقدم من هذه المذكرات يتبين ان الاستاذ الامام يرجع مسئولية هذه المذبحة الى الخديو توفيق ، وعمر لطفى مكايدة لعرابى ، واظهارا لضعفه عن المحافظة على الامن ، وكان وقتئذ وزيرا للحربية فى وزارة اسماعيل راغب باشا التى تلت وزارة محمود سامى باشـا البارودى .. أما تعيين عمر لطفى مكانه وزيرا فى نفس الوزارة ، فقد كان بعد عزل عرابى فى ٢٠ يوليو سنة ١٨٨٢ م ، لمخالفته لأمر الخديو فى الاستعدادات الحربية ومحاربة الانجليز . وقد كتب الاستاذ الامام فى احدى مقالاته يتهم الانجليز بأنهم سبب الخلل والفتنة فى البلاد قال :

« ان الحكومة الانجليزية على عادتها فى اختـلاق العـلل وارتجال المساءات قلبت وجوه المسائل ، واسـتدبرت طلائع الحق ، واستقبلت وجه مطمعها ، واتخذت مجرد التغيير فى بعض نظامات الحكومة الخديوية سببا للمناوأة ، واندفعت لتسيير مراكبها الى ميـاه الاسكندرية تهديدا لحكومة الخديو (يقصد الوزارة) وعدوانا عليه . ثم نفخ بعض رجالها فى أنوف ضـعاف العقول من الأجانب المقيمين بالثغر حتى أوقدوا فتنة (يقصد المذبحة) هلك فيها المساكين قضاء لشـهوة انجليزية . وأقامت منها حكومة انجلترا حجة فى العدوان على الأراضى الخديوية . ولو أن بصيرا نظر فى أحوال القطر المصرى بعين صحيحة من مرض الغرض لعلم أن بداءة الخلـل فى ذلك القطر يوم وردت المراكب الانجليزية لثغـر الاسكندرية .. »

وعنـدنا ان وصول الاسـطول البريطانى كان مشجعا للخديو وعمر لطفى على الكيد لعرابى ، والعمل للقضاء عليه . وليس فى ذلك ما ينافى ان اهمال المذبحة كان بتدبير واتفاق بين الخديو توفيق وعمر لطفى ، ولا ما ينافى ما ذكره الأستاذ الامام فى مذكراته السابقة من الأدلة التى تثبت أن مسئولية الحادث تقع على عاتق عمر لطفى وسيده الخديو توفيق .

الفصل التاسع

ضرب الاسكندرية

فى ٩ يوليو سنة ١٨٨٢ م ، كتب سيمور «قائد الاسطول الانجليزى» الى طلبه عصمت باشا « قائد حامية الاسكندرية » بوجوب الكف عن وضع المدافع وتجهيز الدفاع ، وتوعده بالضرب

وفى ١٠ يوليو كرر ذلك الاشتكاء ، وقال انه سينفذ تهديده ان لم يسلمه طابية رأس التين لتجريدها من السلاح (لم يكن شىء من التجهيزات قد وصل فى ذلك اليوم) فأرسل اليه قرارا من مجلس النظار تحت رياسة الخديو حضره أيضا كثير من الاعيان ، محصله ان مصر لايمكنها تسليم موقع من مواقعها الا قهراً ، وان شيئا مما يدعيه لم يحصل من يوم صدور أمر السلطان بمنع ذلك . وما كان قد حصل فهو من الترميمات السنوية ، وان المدافع لم تزل على حالها من عدة سنين

أبلغ الجواب اليه ضابط وقال له : ان شاء فليزر بنفسه الطوابى ، وليتحقق مما يدعيه . فأجاب بأنه مصر على وعيده وان عرابى لم يزل يحول بينه وبين مصر الخ ...

راى الخديو فى ضرب الاسكندرية

فى ١١ يولية ، قال أحد الميرالايات الذين فى معية الخديو لسموه : « ما مصير الاسكندرية لو ضربها الانجليز ؟ »

فأجاب (الخديو) : « ستين سنة ! » (١) وهز كتفيه

فقال الضابط : « لكن السكان سيحرقونها ، فأرجو أن تتوسط لدى

---

(١) لعله يقصد ستين سنة احتلالا انجليزيا

الاميرال « سيمور » والوقت لم يزل يسمح بذلك ، استدع ذو الفقار وأمره أن يحافظ على المدينة فعنده من الرجال الكفاية »

فأجاب الخديو :

« فلتحرق المدينة جميعها ولا يبقى فيها طوبة على طوبة حرب بحرب ، كل ذلك يقع على رأس عرابى وعلى رءوس أولاد الكلب الفلاحين ، وسيذوق الاوربيون الملاعين عاقبة هروبهم مثل الارانب »

وقد ذهب الخديو من رأس التين الى الرمل ، وانسحب المحافظ وموظفو المحافظة واختفوا (بعيدا عن الخطر)

حرق الاسكندرية

بين من حرقوا الاسكندرية أروام بلباس عرب : رؤيت جثثهم بتلك الثياب أثناء الحريق ، ومنهم عربان من أولاد على ممن كانوا على صلة بالخديو ، ومنهم من أهالى الاسكندرية ، ومنهم أوربيون بقصد المبالغة فى التعويضات .. وذلك بعد ما أخليت الاسكندرية ممن يخشى عليهم

وفى ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ م ، الساعة ٧ صباحا ضربت الاسكندرية ، وكان قد أوصى عرابى ضباطه ، ألا يضربوا الا بعد خامس طلقة (١) من المراكب

وقد قتل كثير من النساء وهن حاملات أطفالهن فى أيديهن ومات الأطفال أيضا ، وحمل النساء والأطفال وهن على هذه الحالة . وهدم المسجد الذى فى طابية قائد بك عمدا ، بعدما وجهت اليه النار على قصد

مساعدة الاهالى لعرابى

وتحت مطر الكلل (٢) ونيران المدافع ، كان الرجال والنساء من أهالى

---

(١) يقول احمد عرابى فى مذكراته ان مدافع قلاع الاسكندرية لم تجاوب ضرب الاسطول البريطانى الا بعد اطلاقه عشرين طلقة . لكن عميد الجالية السويسرية فى مصر مسيو جو نينيه سنة ١٨٨٢ م قال فى كتابه (عرابى باشا) أن بطاريات الاسكندرية اجابت بعد الطلقة الخامسة

(٢) يريد بالكلل هنا السفن الحربية ولعل هذا الاسم كان معروفا عنها عند العامة وينطق بالتفخيم

الاسكندرية هم الذين ينقلون الذخائر ويقدمونها الى بعض بقايا الطبجية الذين كانوا يضربونها ، وكانوا يغنون بلعن الاميرال ومن أرسله (١)

وقبل الضرب بمدة صدر أمر من مدير شركة التلغرافات الانجليزية بتعديل فى بعض الخطوط ، وطلب وكيلها فى مصر مد خطوط الى بور سعيد والسويس تحت الماء ، وأذن له عرابى ولكن لم يتم ، وقد طلب مدير الشركة فى لوندرا من وكيله بمصر فى شهر مايو سنة ١٨٨٢ م أن يتغيب بالاجازة الى أن تنتهى الحوادث ، فان ميله الى الوطنيين قد يضر به عند الغالبية اذا حدثت حرب

الهجرة واستمرار الضرب

نحو مائة وخمسين ألفا من السكان ، مجردين من كل شيء ، أخذوا فى الحركة لغير قصد ولا لمأوى . الموت والفزع ملء نفوسهم .. على شطوط المحمودية الى دمنهور وجسر السكة الحديد من دمنهور الى القاهرة

كانت المهاجرة تكون خطوطا سوداء تارة عريضة وأخرى رقيقة ، متحركة فى كل جهة ، أشبه بسلسلة انسانية طويلة ، هنا ينزلون ، هناك يمشون ببطء ، لا وقاية ولا عيش ، على طرفى تضاد مع سماء صافية وأرض خضراء نضرة

فى الساعة ٧ صباح اليوم الثانى (١٢ يوليو) عاد الضرب الى الساعة الحادية عشرة وأصاب الاسبتالية ، وهجرها كثير من المرضى والجرحى ، وكان عليها العلم الابيض بالهلال الاحمر

طلبة (باشا) بعد أن رفع العلم الابيض على نظارة البحرية ذهب الى

---

(١) قال محمود فهمى احد ثوار العرابيين الذى حكم عليه بالنفى فى كتابه « البحر الزاخر » : «ورأيت ذلك الوقت بعينى ما حصل من غيرة الاهالى بجهة رأس التين ، وأم كبيبة وطوابى باب العرب ، وهمتهم فى مساعدة عساكر الطوبجية بجلبهم المهمات والذخائر وخراطيش البارود والقلوقات هم ونساؤهم واولادهم وبناتهم والبعض من الاهالى صار يعمر المدافع ويضربها على الاسطول »

الاميرال يسأله عن سبب عودة الضرب ، فأجابه أحد الضباط عن لسان الأميرال انه يطلب تسليم الطوابى والقشلاقات أيضا .. طلبه (باشـا) أراد المخابرة مع مجلس النظار ، انتشر الخبر فى المدينة ، آخذ العساكر فى اخلائها ، هلع الناس ، وأخذوا ثانية فى الهرب

دخل أولاد على للنهب .. سليمان سامى سلم محافظة محلة الاوربيين الى عساكر الرديف الذين لم يكونوا أفضـل من العربان ، فانضـموا اليهم فى النهب آخر النهار

أما الهـاربون فكانوا كالأعاصـير أو كماء انكسر سـده فاندلق ، يتصل بعضهم ببعض مزدحمين متراكمين ، فى حالة عقلية أشبه بالجنون ، سائقين أمامهم أو حاملين على ظهـورهم ما خف حمـله من أمتعتهم : حيوان ، أثاث ضئيل ، ثياب رثة حتى بعض المفروشات التى لا قيمة لها

***

فى هذه الحالة ـ حالة شعب طرد من بيته ـ كان الحر شديدا وغيم من الغبار سد الأفق ، وأظلم الجو ، نساء يبحثن عن أولادهن ، يتشاجر بعضهن مع بعض ، يتضاربن ، فى اخلاط لا يمكن التعبير عنه .. عربات بلا عجل استعملت مسـاكن .. عربات من كل نوع بعضهـا سـاقط فى المحمودية ، بعضها مقلوب ، بعضها بخيل ، بعضها بغير خيل .. روائح شى اللحم .. صياح على المارة : الخبز .. الخبز

وقد ابتدأ الحريق فى المدينة الساعة ١.١ مساء من ثانى يوم الضرب .. وفى ١٣ يوليو توجه الخديو من الرمل الى رأس التين ، وعسكر عرابى فى كفر الدوار

فى ٢٤ يوليو ، عندما وصل عرابى لكفر الدوار ، اجتمع عليه النساء والرجال يلعنون العالم ويطلبون الخبز ، فوعدهم بالقوت وبما يحملهم مجانا الى داخل البـلاد ، وقـد أرسلوا مع تواصى للمديرين ليقيتوهم ويضعوهم فى أعمال بقدر الطاقة

كتاب الخديو الى عرابى

فى مساء ذلك اليوم (١٤ يوليو سنة ١٨٨٢ م) ورد لعرابى كتاب من الخديو محصله بعد العنوان : سعادتلو عرابى باشا ناظر الحربية فى معسكر كفر الدوار (١) :

« انك تعلم ان الاميرال الانجليزى لم يرد حرب مصر ، وانما أطلق المدافع على الطوابى بسبب ما كان جاريا من التجهيزات كما أنذر به ، وقد أعلننا انه يجب اعادة العلاقات معنا ، وانه مستعد لتسليم الاسكندرية لجيش منظم مطيع ، فان لم يكن فالى جيش عثمانى ، وقد قرر مؤتمر الآستانة أن للسلطان وحده حق التدخل بقوة السلاح فى المسألة المصرية . فعليك أن تحضر مع رفاقك الى رأس التين للمداولة فى ذلك ، وآمرك بالكف عن التجهيزات التى لا فائدة منها بعد الآن »

فأجاب عرابى بعد التعظيمات :

« ان الاميرال انما أطلق المدافع بعد التأكيدات من الوزارة ومن سموكم بأنه لا تجهيز ولا تحضير ، وقد عددنا جميعا ــ وسموكم معنا ــ ان انذاره بالضرب اهانة لمصر واعلان بحربها بلا سبب ، ومع ذلك فلم يقتصر الضرب على الطوابى كما قال ، بل قذف قنابل مفرقعة على الاملاك حتى قتلت ودمرت كثيرا ، وان عسكركم المنظم مستعد لأن يأتى المدينة عند الاقتضاء ، وأنا لا أرفض أية مخابرة فى الصلح ، لكن يلزم أن يتذكر أن التعدى وخرق سياج السلم وتدمير المدينة انما جاء من المراكب الانجليزية ، وان الطوابى لم تجاوب الا بعد خامس (٢) ضربة من المراكب حسب القرار الصادر من المجلس المرءوس بسموكم وحضور درويش باشا

« ومن المعلوم ان انجلترا أصبحت بذلك محاربة لمصر ، اذ بعد اطلاق النيران اثنتى عشرة ساعة واضطرار العساكر المصرية لاخلاء المدينة

(١) ما ذكر هنا من خطاب الخديو الى عرابى ، ورد عرابى عليه هو خلاصة للخطابين، وليس النص لهما . أما النص : فقد نشر فى جريدة الوقائع المصرية بعدد ١٨ يوليو سنة ١٨٨٢ م وفى كتاب «الثورة العرابية »للاستاذ عبد الرحمن الرافعى

(٢) فى نص الرد بجريدة الوقائع : .. لم نقابلها الا بعد عشرين طلقة »

واشغالها بعساكر انجليزية لا يمكن أن يقال ان البلد في غير حرب « سموكم يعلم أنه في هـذه الحالة لا يمكن أن تكون مداولة حرة ما دامت المراكب الاجنبية في مياه الاسكندرية ، بل يجب أن تبعد عنها ، فاذا حصل ذلك فاني مستعد لاجابة الدعوة حالا . أما التجهيزات فيجب أن تستمر الى أن تبعد المراكب عن الاسكندرية .. تلك التجهيزات التي تشير اليها سموكم وهي جمع ٢٥ ألف مقاتل هي التي أمرتم بها وما أنا الا منفذ لأمركم »

عزل الخديو لعرابى

بعد أيام صـدر الأمر بعزل عرابى ، ووزعت بذلك منشـورات لهذا السبب : وصرح فيها بأنه كان ناظر الحربية الى تاريخ الدعوة الى رأس التين

طبعت نسخ من تلك المخاطبات ، ووزعت في البلاد ، فجاء الناس لعرابى طالبين بقاءه والاستمرار في الاستعداد ، وأخذت الهدايا تتوارد عليه من كل جانب

ثم شرع في بناء الاستحكامات ، وأغرق الجانبان من جهة الملاحات ، وانتهت القلاع في قليل من الزمن ، وساعد على ذلك ان العدو لم يكن يعمل شيئا

الجيش المصرى والمتطوعون

كان الجيش مؤلفا من ثمانية آلاف منظمة مع ثمانين مدفعا من كروب ، وكان في أبي قير ثلاثة آلاف وخمسمائة ، وألفان وخمسمائة في رشيد ، وخمسة آلاف في دمياط ، المجموع أحد عشر ألفا (١) أما الخيالة فلم يكن لهم وجود الا قليلا

وقد كان من عمل المراكب أن تهدد في حركاتها النقط المذكورة لتمنع

---

(١) اى مجموع العساكر التى فى الثغور المذكورة افيكون الجيش المنظم الذى يقوده عرابى ١٩ الفا ، لا احد عشر الفا ويظهر انه سهو من الاستاذ

عرابى أن يرسل جيشا الى الوادى ..

أدخل العربان فى الجيش على علم من عرابى بمضرة دخولهم .. شرع فى جمع عساكر الرديف ولم يكونوا يصلحون لشىء .. شرع فى جمع غيرهم . ودخل كثير من المتطوعين ولكن لم يكن يكفى لجعلهم جيشا صالحا للدفاع وراء الجدران أقل من ثمانية أشهر مع الاجتهاد ، وأما فى الفلا ، فلا أقل من سنة لعسكرى ألمانى ومن سنتين لعسكرى انجليزى

قالت « التيمس » : أرسلت الحكومة الانجليزية ٢٥ ألفا وستبلغها ثلاثين ألفا لمقاتلة الجيش المصرى

***

كثير من ضباط التليان والالمان والسويسريين عرضوا أنفسهم ومعهم عدد وافر من المتطوعين ، والبعض كان يطلب وسيلة للنقل ، والبعض لم يكن يطلب (كالالمان) الا تعيين الضابط الاكبر باسم رفيع فى الجيش . أما الفرنسيون فجاء من بعض المفلسين منهم عدد لا يلتفت اليه غير أن البحر كان مأخوذا تحت مراقبة المراكب الانجليزية ، والمواصلات كانت منقطعة تقريبا بين مصر وأوربا

عرابى لم يثق بالفرنسيين

لم يكن يهم عرابى عندما رأى فى بعض الجرائد الفرنسية والانجليزية تلقيبه ـ بعاص ـ الا مخافة أن يصدر بذلك أمر ، وكانت له ثقة بالسلطان الا اذا أكره . وتذكر البارون درنج وكان يلومه على عدم مساعدته له عند حكومته مع انه كان موظفا فى خارجيتها . ثم بعد ذلك أخذ يذكر مصائب الاحتلال الفرنسى فى مصر أيام نابليون ، وما احتال به هو ومينو على المصريين من الاكاذيب ، وما حصل من الفرنسيين فى تونس ، واستنتج انه لا يمكن الاعتماد على فرنسى فى شىء عندما ضبط الاسير الانجليزى واستنطقه عرابى وسأله عما كان مكتوبا على بعض الكلل (١)

(١) الكلل هى السفن الحربية عند العامة كما قدمنا

من اسم « اسكندريا » فأجابه حصل تحريف والحقيقة « اسكندرا » اسم المركب ، فاعتذر عرابى بعدم معرفته الانجليزية ، ثم قال له : « لعلك رأيت ما يخالف عما قرأت عن المصريين ؟ » فأجابه : « نعم ، ولكنى عسكرى ما علىَّ الا أن أطيع »

غش ديلسبس لعرابى

اعتمد عرابى على ديلسبس فى حماية القنال ، وكان يظن أن مس القنال يهيج عليه جميع الأمم ، لهذا ترك تلك الناحية عوراء ، وعندما أحس ديلسبس بأن الجيش المصرى قد يتحرك ناحية القنال ، كتب تلغرافا لعرابى يقول له : « من المستحيل أن عساكر الانجليز تمر من القنال »

وبعد واقعة مهمة فى ناحية كفر الدوار ، جاء الخبر عقبها بأن اثنين وثلاثين مركبا توجهت الى القنال ، فورد تلغراف من ديلسبس يقول : « لا تشرع فى شىء يمس القنال : لا يمر عسكرى انجليزى الا ومعه جندى فرنسى !.. أنا مسئول عن كل ما يحصل » فأجيب بأن هذا غير كاف وتقرر ارسال جيش ، ثم أرسل الجواب ببطء ، وقبل أن يتحرك عسكرى الى ناحية القنال كان الجيش الانجليزى قد احتله ، وذلك لتأخر الجيش ١٥ ساعة فى مخابرة ديلسبس ، ويظهر انه كان فى الحاضرين خونة حملوا الاخبار وأبطأوا فى المخابرة

قال ولسلى : لو قطع عرابى القنال كما قرر لم يكن لنا الا حصر مصر، والضرب فى البحر أربعة وعشرين ساعة خلصتنا وأنجتنا

اخبار القتال

فى يومى ٢٣ ، ٢٤ أغسطس ، كانت واقعة نفيشة وأسر محمود فهمى (باشا) فجاء سامى (باشا) بنفسه وطلب من عرابى أن يذهب الى ناحية الوادى

وكان جيش الجهة الشرقية أغلبه من العساكر المجموعة حديثا التى

لا سناوى شيئا .. خسارة محمود فهمى كانت جسيمة لا تعوض ، وليس من السهل تعويضه .. عرابى وجميع الضباط ومحمود سامى شعروا بالضعف والوهن عند ذلك

فررت مشورة حربية اغراق المنطقة الشرقية مما وراء الزقازيق . وذلك أخاف عرابى وأرهبه فلم ينفذ . وتقرر سحب بعض الضباط من دمياط ورشيد وارسال مثل عبد العال الى جهة الوادى ، فنفذ شىء وأوقف شىء ، ولم يحضر عبد العال ، وكان حضوره مفيدا

ذهب عرابى الى الوادى فى حزن وانكسار قلب . وقد اعترف انه فى مدة الستة الاسابيع لم يأت اجتهاده بتنظيم قوة من المشاة يمكن الاعتماد عليها . أرسلت عساكر الى الوادى وجاء الى كفر الدوار من عساكر الرديف الهَرِمون والمرضى

ومع حركات الجيش المتوالية ، وتلك الدهشة المستولية ، كان النظام والخضوع مستوليا على الجميع

خيانة سلطان باشا

فى ٢٧ أغسطس سنة ١٨٨٢ م ، جاء خبر بأن فارسين خرجا من الاسكندرية وتوجها من الناحية الشرقية من البحيرة وهما بدويان من قبيلة أولاد على من عائلة شهيرة بالفيوم ، فقبض عليهما عند مرورهما على قريب من معسكر كفر الدوار ، ووجد معهما منشورات من سلطان باشا ورسائل منه الى رؤساء القبائل وبعض الضباط يدعوهم الى ترك عرابى والالتحاق بالجيش العثمانى الذى جاء لاخضاع العصاة

وقد سئلوا فاعترفوا بكل شىء ، وذكروا أن جنديا بحريا انجليزيا يسمى « جيل » حمل ثلاثين ألف جنيه من سيمور ليلحق بالاستاذ « بالمر » يستميل معه عربان غزة ، وحمل معه رسائل من توفيق ومن سلطان باشا الى رؤساء العربان فى الشرقية ، وان مبلغا لا يقل عن المبلغ السابق سيصحب القائد الانجليزى الى الزقازيق ، وبعد أن سلم الضابط أوراق

المرور الى القائد ذهب الى السويس لمقابلة « بالمر » وقد قطع سلك التلغراف الذى يصل بين مصر والآستانة . وكان كل ذلك حقا فان قائد الفرقة البحرية فى القنال أخذ المبلغ من « جيل » وسلم منه أربعة آلاف جنيه الى « بالمر » وحجز الباقى على حسابه ، وأرسل معه « جيل » وضابطا آخر فقتلوا جميعا بين العربان

وكان مركز الدسائس والمخابرات فى اسكندرية فى مكتب يسمى (قسم المخابرات العسكرية) اجتمع فيه كثير من موظفى الحكومة المصرية ومن المقيمين بمصر

وكان روح الجميع سلطان باشا ..

عرف سلطان باشا ان توزيع النقود باسم الانجليز لا يفيد ، وعرف مقدار سلطة النقود على الارواح ، فأخذ فى التوزيع باسم الخديو والسلطان ، واختار لبثّ الأفكار الحاوى الطحاوى أحد ثقاة عرابى ، وكان الحاوى يعظ اخوانه العربان بعصيان عرابى وقوة الجيش المحارب ونحو ذلك ، وكانت المبالغ التى تدفع الى الأفراد تتفاوت من جنيهين الى ثلاثة جنيهات . ولم يكن عرابى مقتنعا بخيانة العربان ، وكان الحاوى مع ذلك يخبر عرابى ببعض حركات العدو على وجه الصدق وعرابى كان نفضى له بجميع ما عنده

***

فى واقعة القصاصين كان الرسم كما ينبغى ، وكانت العساكر المصرية يجب أن تزحف فى الساعة الثانية بعد نصف الليل على الجيش الانجليزى ، وما راع القواد المصريين الا وجود الفرق الانجليزية زاحفة وآخذة جميع الطرق فى الساعة الواحدة . وقد جرح على فهمى ، وراشد باشا وانهزم الجيش ، وما ذاك الا من الجواسيس العربان ، وكانت الخيانة وصلت والنقود قد وصلت الى قلب الجيش والى كثير من الضباط بسعى سلطان باشا ومراسلة العربان

فى ١١ سبتمبر جاء مراسل عرابى ينبئه بخيانة العربان .. فأبى قبولها

قائلا انهم مسلمون « ! ! ! »

وفى ٢١ سبتمبر أنبىء عرابى من المنبع نفسه (بعض رؤساء العربان أيضا) بأن الانجليز سيضربون التل الكبير ، ويرمون الى بلبيس (جهة حصنها الفرنسيون من قبل) ليأخذوا هذا الموضع ويفتحوا طريق القاهرة. اقتنع عرابى بصحة الخبر فأرسل الى طلبه ، يطلب منه ارسال فرقة من الجنود لتكون فى التل الكبير صباح الثالث عشر من شهر سبتمبر . جاءت الفرقة ماشية ، وصلت الزقازيق فى صباح اليوم المذكور بعد الهزيمة

وقد قال أحد الضباط انه فى الساعة الثانية بعد نصف الليل لم يشعروا الا بصياح العربان ، وبضرب النيران ، ولم يعرف من كان لهم ممن عليهم ، ووقع الاضطراب العام ، والجيوش الجديدة انهزمت فكان الانجليز يقتلونهم كأنهم صيد ، وقاوم ثلاثة آلاف مات نحو نصفهم .. وقد عجز بعض الضباط عن المشى عند الفرار لثقل النقود التىكان يحملها

مكافأة سلطان باشا

هذا الهمام الوطنى الذى أوقد نار الفتنة فى البلاد ، وجمع لها وقودها وحطبها حتى امتد لهبها وعم جميع الأنحاء ، ثم هرب من طريقها حينما خاف أن يلذعه لسان لهبها ..

جاء فى آخر الأمر نائبا عن الحضرة الخديوية فى حبس كثير من الناس ولم يفرق بين الأبرياء وغيرهم . وقد نال المكافأة (١) من الجناب العالى بالاحسان جزاء ايقاد الفتنة ثم الهرب منها ليتعلم كل مصرى هذه الطريقة المفيدة لكسب الشرف ونيل الاحسان أولا وآخرا !.. الا أن العدل الالهى سيقوم بمجازاته حق المجازاة على ما صدر منه أول الأمر وآخره « يوم يعض الظالم على يديه يقول : يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ، ياويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا ، اقد أضلنى عن الذكر بعد اذ جاءنى،

(١) انعم الخديو توفيق على سلطان باشابعد الاحتلال بعشرة الاف جنيه من المالية جزاء اخلاصه

وكان الشيطان للانسان خذولا » وكما ان العدل الالهى سيأخذه بما قدم من عمله ، أظن أن محاكم العدل الانسانية تبين له خطـأه فى زعزعة راحة البلاد المصرية فى أول الأمر



الفصل العاشر

الإمام في السجن

لما انهزمت مصر فى الثورة العرابية ، قبض على الاستاذ الشيخ محمد عبده مع من قبض عليهم من زعماء الأمة لمحاكمتهم ، وأودع السجن رهن مثوله أمام المحكمة العسكرية التى ألفها الخديو توفيق لهذا الغرض ، وقد قضى فى السجن ثلاثة أشهر وأيام . ثم حوكم وحكم عليه بالنفى الى خارج القطر المصرى ثلاث سنوات ، فأقام فى بيروت مدرسا بمدرسة جمعية المقاصد الخيرية للأدب والتوحيد وعلوم الدين . ثم فر الى باريس

وقد نظم قصيدة طويلة أثناء سجنه تبلغ نحو مائة وخمسة عشر بيتا وصف فيها الثورة العرابية وموقفه الوطنى منها . ثم كتب فى ذلك الحين خطابا الى أحد أصدقائه يرد فيها على الخونة المنافقين الذين انتهزوا فرصة القبض عليه وكتبوا فيه تقارير حشدوها بالكذب والبهتان . وهذا الخطاب قطعة من الأدب !

أما القصيدة ، فقد جاء فى مطلعها :

مَالى يُعنِّفُ قلبى من تغاضيهِ
دهرٌ يُبالغ فى عُجب وفى تيهِ
أبيتُ ليلِى كملسُوع تُساوِرُه
زرق الأفاعِى وقد شُدَّت أياديهِ
وما ذنوبى لدى دهرى سوى شمم
تأبى الدنايا وأفكار تُضاهيهِ
سريت للمجدِ هوناً على ذى عجل
على أساس من التقوى أراعيه

مجـــدى بمجدِ بلادى كنتُ أطـلبُه
وشـــيمةُ الحرِّ تأبى خفضَ أهليهِ

وأما الكتاب الذى أرسله الى أصدقائه (ولعله سعد زغلول) فقــد تبادل معه عدة خطابات أثناء نفيه فى بيروت . وكان زميلا له فى تحرير « الوقائع المصرية » فى عهد الثورة العرابية



الخطاب

فى ٩ المحرم سنة ١٣٠٠ هـ ، الموافق ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٨٢ م

عزيزى ..

تَقلّدتنى الليـــالى وهى مُدبرةٌ
كأننى صَارمٌ فى كفّ مُنـهزمِ

هذه حالتى : اشتد ظلام الفتن حتى تجسم بل تحجر ، فأخذت صخوره من مركز الارض الى المحيط الاعلى ، واعترضت ما بين المشرق والمغرب ، وامتدت الى القطبين . فاستحجرت فى طبقاتها طباع النـاس ، اذ تغلبت طبيعتها على المواد الحيوانيـة أو الانسـانية ، فأصبحت قلوب الثقلين كالحجارة أو أشد قسوة فتبارك الله أقدر الخالقين

انتثرت نجوم الهدى ، وتدهورت الشـــموس والاقمار ، وتغيبت الثوابت النيرة ، وفر كل مضىء منهزما من عالم الظلام ، ودارت الافلاك دورة العكس ، ذاهبة بنيرانها الى عوالم غير عالمنا هذا ، فولى معها آلهة الخير أجمعين ، وتمحضت السلطة لآلهة الشر فقلبوا الطبـاع ، وبدلوا الخلق وغيروا خلق الله ، وكانوا على ذلك قادرين

رأيت نفسى اليوم فى مهمة لا يأتى البصر على أطرافه ، فى ليلة داجية ، غطى فيها وجه السماء بغمام سوء ، فتكاثف ركاما ، لا أرى انسانا ، ولا أسمع ناطقا ، ولا أتوهم مجيبا ، أسمع ذئابا تعوى ، وسباعا تزأر ، وكلابا تنبح ، كلها يطلب فريسة واحدة ، هى ذات الكاتب ، والتف على رجلى تنينان عظيمان ، وقد خويت بطون الكل ، وتحكم فيها سلطان الجوع . ومن كانت هذه حاله ، فهو بلا ريب من الهالكين

تقطع حبل الأمل ، وانفصمت عروة الرجاء ، وانحلت الثقة بالاولياء ، وضل الاعتقاد بالاصفياء ، وبطل القول باجابة الدعاء ، وانفطر من صدمة

الباطل كبد السماء ، وحقت على أهل الارض لعنة الله والملائكة والانبياء وجميع العالمين

سقطت الهمم ، وخربت الذمم ، وغاض ماء الوفاء ، وطمست معالم الحق ، وحرفت الشرائع ، وبدلت القوانين ، ولم يبق الا هوى يتحكم ، وشهوات تقضى ، وغيظ يحتدم ، وخشونة تنفذ ، تلك سنة الغدر ، والله لا يهدى كيد الخائنين

ذهب أرباب السلطة فى بحور الحوادث الماضية ، يغوصون لطلب أصداف من الشبه ، ومقذوفات من التهم ، وسواقط من اللمم ، ليموهوها بمياه السفسطة ، ويغشوها بأغشية من معادن القوة ، ليبرزوها فى معرض السطوة ، ويغشوا بها أعين الناظرين

لا يطلبون ذلك لغامض يبينونه ، أو لمستور يكتشفونه ، أو لحق خفى فيظهرونه ، أو خرق بدا فيرقعونه ، أو نظام فسد فيصلحونه ، كلا بل ليثبتوا أنهم فى حبس من حبسوه غير مخطئين

وقد وجدوا لذلك أعوانا من حلفاء الدناءة ، وأعداء المروءة ، وفاسدى الأخلاق ، وخبثاء الأعراق ، رضوا لأنفسهم قول الزور ، وافتراء البهتان ، واختلاق الافك ، وقد تقدموا الى مجلس التحقيق ، بتقارير محشوة من الأباطيل ، ليكونوا بها علينا من الشاهدين

كل ذلك لم تأخذنى فيه دهشة ، ولم تحل قلبى منه وحشة ، بل أنا على آتم أوصافى التى تعلمها ، غير مبال بما يصدر به الحكم أو يبرمه القضاء ، عالما بأن كل ما يسوقه القدر وما ساقه من البلاء ، فهى نتيجة ظلم لا شبهة للحق فيه ، لأن الله يعلم — كما أنت تعلم — اننى برىء من كل ما رمونى به ، ولو اطلعت عليه لوليت منه رعبا أو كنت من الضاحكين

نعم خنقنى الغم ، وأصمى فؤادى الهم ، وفارقنى النوم ليلة كاملة ، عندما رأيت اسمك الكريم ، واسم بقية الأبناء والاخوان المساكين ، تنسب اليهم أعمال لم تكن ، وأقوال لم تصدر عنهم ، قصد زجهم فى السجون .. لكن اطمأن قلبى ، وسكن جأشى ، عندما رأيت تواريخ

التقارير متقادمة ، ومع ذلك لم يصلك شرر الشر ، فرجوت أن الحكومة لم ترد أن تفتح بابا لايذر الأحياء ولا الميتين

قدم فلان وفلان تقريرين جعلا فيهما تبعات الحوادث الماضيـة على عنقى ، ولم يتركا شيئا من التخريف الا قالاه ، وذكر أسماءكم فى أمور أنتم جميعا أبعد الناس عنها ، ولكن لا حرج عليهما ، فانى أعدهما من المجانين

ولم أتعجب من هذين الشخصين ، اذ يعملان مثل هذا العمل القبيح ، ويرتكبان هذا الجرم الشنيع ، ولكن أخذنى العجب كل العجب ، غاية العجب ، بالغ ما شئت فى عجبى ، اذ أخبرنى المدافع عنى بتقرير قـدمه (فلان) الذى أرسلت اليه السـلام ، وأبلغتـه سرورى عندما سمعت باستخدامه وأنا فى هذا الحبس رهين

الى هذا الوقت لم يصلنى التقرير ... ولكن سيصل الى ، انما فيما بلغنى انه شاهده بأقبح شىء ، لا يشهد به الا عدو مبين

هـذا اللئيم الذى كنت أظن انه يألم لألمى ويأخـذه الأسف لحالى ، ويبذل وسعه ان أمكنه فى المدافعة عنى ، فكم قدمت له نفعا ، ورفعت له ذكرا ، وجعلت له منزلة فى قلوب الحاكمين

كم سمعنى أقاوم هجاء الجرائد وأوسع محرريها لوما وتقريعا ، وأهزأ بتلك الحركات الجنونية ، وكان على فى بعض أفكارى هذه من اللائمين

كان ينسب فلانا لسوء القصد اتباعا لرأى فلان ، وأعارضـه أشـد المعارضـة ، ثم لم أنقض له عهدا ، ولم أبخس له ودا ، وحقيقـة كنت مسرورا لوجود موظف ، فما باله أصبح من الناكثين ؟

آه ما أطيب هذا القلب الذى يملى هـذه الاحرف ! ما أشـد حفظه للولاء ، ما أغيره على حقوق الاولياء ، ما اثبته على الوفاء ، ما أرقه على الضعفاء ، ما أشد اهتمامه بشئون الاصدقاء ، ما أعظم أسفه لمصـائب من بينهم وبينه أدنى مودة ، وان كانوا فيها غير صادقين

ما أبعد هذا القلب من الايذاء ، ولو للأعداء ، ما أشده رعاية للود ،

ما أشده محافظة على العهد ، ما أعظم حذره من كل ما توبخ عليه الذمم الطاهرة ، ما أقواه اقداما على العمل الحق ، والقول الحق ، لا يطلب عليه جزاء ، وكم اهتم بمصالح قوم وكانوا عنها غافلين

هذا القلب الذى يؤلمونه بأكاذيبهم ، هو الذى سر قلوبهم بالترقية ، وملأها فرحا بالتقدم ، ولطف خواطرهم بحسن المعاملة ، وشرح صدورهم بلطف المجاملة ، ودافع عنهم أزمانا — خصوصا هذا اللئيم — أفنشرح الصدور وهم يحرجون ! ونشفى القلوب وهم يؤلمون ! ونفرحها وهم يحزنون ! تالله قد ضلوا وما كانوا مهتدين

هذا القلب ذاب معظمه من الأسف على ما يلم بالهيئة العمومية من مصائب هذه التقلبات ، وما ينشأ عنها من فساد الطبـاع ، الذى يجعل العموم فى قلق مستديم ، وما بقى من هذا القلب فهو فى خوف على من يعرفهم على عهد مودته ، فان تسللوا جميعا بمثل هذه الاعمال وأصبحوا من مودته خالين ، واتخذوه وقاية لهم من المضرة ، وجعلوه ترسا يعرضونه لتلقى سهام النوائب التى يتوهمون تفريقها اليهم ، كما اتخذوه قبل ذلك سهما يصيبون به أغراضهم ، فينالون منها حظوظهم ، فقد أراحوا تلك البقية من الفكر فيهم ، والله يتولى حسابهم ، وهو أسرع الحاسبين

آه ، ما أظن ان تلك البقية تستريح من شاغل الفكر فى شئون الأحبة ، وان جاروا فى تصرفهم ، ان طبيعـة هـذا القلب لطبيعة ناعم الخز ، اذا اتصل بذى الود ، وان كان خشنا فصعب أن ينفصل ولو مزقته خشونته ، وان هذا القلب فى علاقته مع الاوداء ، كالضياء مع الحرارة ، أيما حادث يحدث ، وأيما كيماوى يدقق ، لا يجد للتحليل بينهما سبيلا ، وأظنك فى العلم بثبوت تلك الطبيعة فيه كنت من المحققين

أى عزيزى

الآن وصلنى تقرير اللئيم ، فقرأته بأول نظـرة ووجدته كما بلغنى ، وسأرد عليه فى بضع دقائق بما يسود وجهه ويخجله ان كان انسـانا ،

ولكن تصادف فراغ الحبر من الدواة ، فسأنتظر بالرد عليه وتتميم رقيمى اليك بعض ساعات فكن معى من المنتظرين

رددت على التقرير ، وكان كل ما فيه الغش والتغرير ، وذكر فيه فلانا .. بأشنع ما يؤاخذ به انسان فى هذه المسألة كما ذكره الخبيثان قبله ، ولكن دفعت ما قاله فى جانبه أيضا . وأخذت على نفسى كل مسئولية تنسب اليه أو اليكم ، فما عليكم اذا سئلتم الا آن تكونوا منكرين

ربما يسألكم (القومسيون) عن معلوماتكم فى شئون أيام الحوادث ، فلا يدخل عليكم غش السؤال والارهاب ، ولكن عبروا عما كنتم تشهدون وتعلمون من أفكارى وأقوالى التى كانت تهزأ بالحكومة الفلانية ، ومن كانوا لها من الطالبين . الى هذا الحد قفوا ، فان سئلتم فقولوا ما نحن بتأويل الأحلام بعالمين

فى هذا الوقت وصلنى الرقيم مبشرا ببقائكم فى مركزكم ، فقمت ورفعت يدى ورجلى وناديت : الحمد لله رب العالمين .. وأخذنى الاسف على حبس فلان ، لكن دل اطلاقه على حسن حالة الباقين

يا عزيزى أعود الى ذكر ما لأولئك القوم ، كأنما قذف بهم من شاهق جبل فسقطوا على رءوسهم ، فغشيتهم من شدة الصدمة ما غشيهم ، فقاموا ينطقون بما لا يعون ، ويكلمون ولا يفهمون ، ما بالهم يقذفون من أفواههم أخلاطا أقذر من البلغم ، وأمر من الصفراء .. وكأنما جرعوا جرعة من السم فقلبت أمعاءهم فاستفرغت من حلاقيمهم أخبث ما يحملون

ما بال دنان قلوبهم تفيض من اللؤم أشد من فيضان بئر برهوت ، تقذف بسائلات بشعة الطعم ، خبيثة المنظر ، كريهة الرائحة ، تضطر معانيها للفرار منها ؟ لكن أعضاء التحقيق من زكام الحوادث الاخيرة لايشمون ولا يذوقون ، ومن ظلماتها لايبصرون

هل بطل ياعزيزى ما جاء على لسان النبوات : الانسان أسير الاحسان؟ هل نقض ما جاء من ذلك : المعروف بذر المحبة يغرسها فى أعماق القلوب؟

هل هدمت قاعدة : ان الحيوان يقاد بالزمام والانسان يقـاد بالصنيعة ؟ هل كان خرافة ما قرره الحكماء من الفصـول الطويلة تقسيما للمحبة وبيانا لفضائلها ومنافعها فى الاجتماع الانسانى الخبيث ؟ هل كان خرافة ما حوته الكتب متعلقا بموجبات روابط النوع البشرى ؟ أم صح كله لكن الناس به جاهلون ؟

هل أتأسف ان كنت سباقا الى الخيرات ؟ هل أتأسف ان كنت مقداما فى المكرمات ؟ هل أتأسف أن كنت شجاعا فى الدفاع عن ذوى مودتى ؟ هل أتأسف ان كنت أبيا أغار أن ينسب مكروه أو ذل لأولى صلتى ؟ هل أستحق العقاب على حبى لبلادى والناس لها كارهون ؟

كلا .. والله لن يكون ذلك ولم أزدد فى سبيل الفضيلة الا بصيرة ، ولم أزدد فى المحافظة عليهـا الا ثباتا ، ولئن عشت لأصنعن المعروف ، ولأغيثن الملهوف ، ولأنقـذن الهاوى فى حفرة الغدر ، ولآخذن بيـد المتضرع من ضـغط الظلم ، ولأتجاوزن عن السيئات ، ولأتناسين جميع المضرات ، ولأبينن لقومى انهم كانوا فى ظلمـات يعمهون ، ولأظهـرن الصديق فى أجمل صورة ، ولأجلونه للناس فى أبهج حلله ، ولأثبتن لهم ببرهان العمل انه فكرك الثانى فى روحك الواحدة ، وانه جسمك الآخر فى حياتك المتحدة ، وانه صاحبك اذا طال ليل الكدر ، ومصباحك اذا غسق دجى الهموم ، ستضىء به فى حل ما انعقـد ، وتستعين بقوته فى تيسير ما عسر ، وتذهب به الى أوج المعـالى ، والنـاس من معجزات الصديق يتعجبون

انى اليوم أعجز من المقعد عن طلوع النخل ، ومن المفلس عن حرية التصرف . وقد صار سـقوط الجاه كمرض يصيب الجميـل الفاتن ، فيخف الجسم ، ويغير اللون ، ويقلص الشفاه ، ويضعف القوى ، ويقعد عن الحركة ، ويبعد عن نيـل المطلوب . ويثقل على الأهل والعشائر فى التمريض . ويسئمهم ان طال زمن معاناة العلاج ، فيصبح المريض منهم فى أدنى المنازل ، وقد كان ربا لهم وهم له ساجدون

يذهب عنه البهاء ، وينكسف من وجهه الضياء ، وتنكره عند الرؤية أعين العشاق ، وتمجه طبـاع ذوى الاذواق ، وتمحى من جبينـه تلك الأسطر الجليلة العبارة ، الصادقة النسبة ، الناطقة بالحق ، القائلة : هنا كنز الرغبات ، هنا منال الحاجات ، ههنا ما يروح الروح ، ههنا ما يقضى وطرا فى الانفس ، ههنا ما يخشى منه على الارواح والافئدة ، فينحرف عنه السالكون اليه ، وقد كانوا قبل على آثار غباره يتدافعون ، وقيسوا على مرض الجميل مرض صاحب جاه ولا أظنكم بالقياس تجهلون

لكن أقول لكم : ان الحوادث المريعة سوف تنسى ، وان هذا الشرف يرد ، ولئن أبت طبيعة هـذه الارض بخستهـا أن يكون لها من عوده نصيب فليعودن ّ الى بلاد خير منها ، ولأجذبن الى المجد أحبتى ، ومن الى المجد ينجذبون

كل ذلك ان عشت وسـاعدتنى صحة الجسم ، ولا أطلب شيئا فوق هذين سوى معونة الله الذى عرفه بعض الناس ، وبعضهم له منكرون

أطلت عليك الكلام فلا تسأم ، وأظنه آخر كتاب منى اليك فى السجن الا أن يحدث حادث يسمح بالكتابة مرة أخرى . فان تلاقينا بعد اليوم كانت المشافهة أزكى ، والا كانت المراسـلة أجلى وأعلى . ولا تجزع ، فليس فى الأمر ما يفزع ، وهو أهون مما يتوهمون ، وأسأل الله أن يغض عنكم أبصـار الظـالمين ، ويحفظكم من نكاية الخـائنين ، ويسر قلبى بالطمأنينة عليكم وعلى سائر الاخوان والأبناء أجمعين

محمد عبده

فــهرس

صفحة

طبع
بمطابع مؤسسة دار الهلال

